رحلة في قلب إسرائيل

جان فرنسيس هلد

الشرخ

ترجمة حسان يوسف

شركة المطبوعات الشرقية
للطباعة والنشر والتوزيع
دار المروج

رحلة في قلب إسرائيل

جان فرنسيس هلد

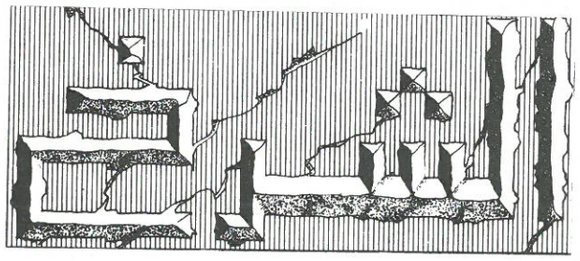

ترجمة حسان يوسف

شركة المطبوعات الشرقية

دار المروج

١٩٨٦

GIFE 283066

Jean-Francis Held

La Déchirure

Voyage au cœur d'Israël

Editions Ramsay
9, rue du Cherche-Midi, 75006 Paris

جميع الحقوق محفوظة
دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ١٩٨٦

توطئة

ثمة رجل طيب صغير القد، يرقد في سريره. . إنه نموذج الإنسان الإسرائيلي. ولأنه يملك حساً سلياً تراه لا يخاطر، فقد علمته حكمة الأمة التي تعلمت بدورها من تجارب الزمن القاسية أن يكون حذراً. إنه من المحظوظين لأنه من أصل غربي.

إن الرجل الطيب والهادىء ينفّس عن كربته بالرسومات في الجيروزاليم بوست، ينام هذه المرة في سريره لأن حرارته مرتفعة، حرارة لا تطاق. «كنت مريضاً طوال أسبوع» قال ثم نظر إلينا:

«تقلبت في فراشي، فرأيت كابوساً، حلمت بأن نصف إسرائيل ينعت النصف الآخر بأنه فاشي ويُنعت بدوره بأنه خائن وجبان ومبتذل».

رفع أصبعه من فوق المسند. .

«حلمت بوقوع جريمة سياسية وبمشادات عنيفة داخل الكنيست على أثر مشادات في الشارع. . ».

وأخيراً: «يجب أنْ أتوقف عن أخذ هذه الحبوب».

إن مطلع ١٩٨٣ سيظل علامة سوداء في تاريخ دولة إسرائيل: انعكاسات حرب لبنان تفسد الجو العام في البلاد، الالتباس الذي رافق مجزرة صبرا وشاتيلا، تقرير لجنة كاهان، قنبلة القدس وأخيراً الفذلكة التي رافقت تجديد الثقة بحكومة بيغن كما لو أن هناك أيادي كثيرة تحاول جاهدة أنْ تُعمّق الشرخ: هذا الشرخ الذي أصبح أعمق وأكبر وأخذ يتشعب وينسل إلى جميع القطاعات التي صنعت دولة إسرائيل.

نافا آراد النائب العمالي يصرخ من على المنصة بأن الحكومة قد قسمت البلاد إلى قسمين. أرييل شارون الذي لا يزال يتمسك بحقيبة وزارة الدفاع يعتبر أن الأخذ بتقرير كاهان هو تمريغ لسمعة إسرائيل إلى أبد الآبدين. «إن فترة العشرين شهراً من عهد شارون العسكري كانت بالفعل كابوساً»، يقول أبا إيبان «لقد دفعوا بالأخ إلى كره أخيه» يضيف نافا آراد. بعد مظاهرات عشرة شباط ومصرع إميل غرونزويغ وصلت النقاشات داخل الكنيست إلى درجة من العنف لم يشهدها سابقاً.

أما شارون فينعت المعارضة العمالية «بالطابور الخامس». إن حزب العمل يطعن الوطن في الظهر! المجابهة ليست بين اليسار واليمين وإلا كانت المسألة بسيطة. لم تكن ردة فعل التحالف الحاكم واحدة تحت تأثير الصدمة. يهودا بن مئير نائب وزير الخارجية والعضو في الحزب الوطني الديني قال: بأن مصرع غرونزويغ قد أوقعه مريضاً بالفعل. «علينا أنْ نحاكم أنفسنا ونتساءل لماذا وكيف تحصل أمور كهذه». ثم يضيف بن مئير «قبل إلقاء القنبلة خفت كثيراً حين شاهدت على التليفزيون الجماهير تشتم المتظاهرين من حركة السلام الآن وترميهم بالحجارة. ولكن الأفظع كان محاولة منع الأطباء في مستشفى شعار تزيدك من معالجة الجرحى. هذا هو الخطر الحقيقي الذي يهدد إسرائيل! عرفات يعرف كيف نتعامل معه ولكن هذا؟ . . » .

لقد دان مناحيم بيغن العنف في الشارع وقد أقلقه اتساع الشرخ المفاجىء، لكن كلامه ظل ضمن اللجان المختصة. . . «إنه ماهر في لعب دور المتأثر، حين يسيل دم يهودي بالكاتيوشا العربية، يقول النائب العمالي ياكوف غيل: «هذه المرة كان رصيناً إلى أقصى الدرجات». أما شارلي بيطون القريب من الشيوعيين ومن أصل مغربي: «وضع بيغن كاتماً للصوت لأنه يريد أن يستعمل الشارع لمصلحته في الانتخابات المقبلة ولا يريد أنْ يُشهّر علناً بالذين يؤيدونه». بعض النواب اليمينيين الأكثر إخلاصاً لليكود لم يخفوا انزعاجهم. فأكثر ما يلحق الضرر بالوطن هو الانقسام، وبالتالي يجب أنْ تكون معالجة هذا الانقسام الهم الأساسي لكل مسؤول إسرائيلي، ولكل يهودي مسؤول. .

في اليوم الذي نشر فيه تقرير كاهان، ذهب شارلي بيطون الذي كان من مناضلي الفهود السود من اليهود الشرقيين، إلى سوق ماهان يهودا في القدس لجس ردة فعل الناس، لم يجد أحداً ينتقد شارون أو بيغن، مع العلم أن الجميع مقتنعون بأنهما المسؤولان بشكل غير مباشر عن مجزرة صبرا وشاتيلا: «إنها غلطة حزب العمل إذا كان تشكيل هذه اللجنة سيؤدي إلى ضرب سمعة إسرائيل. . » .

بعد يومين راقب موظف يعمل في البلدية مظاهرة «السلام الآن» تنطلق من وسط المدينة، متجهة نحو مقر الحكومة. هاجمت مجموعة من الرجال ـ وقد تعرّف على بعضهم ـ المسيرة بوحشية تفوق كل وصف: «ضربوهم بأرجلهم، مزقوا اليافطات، صرخوا بألفاظ نابية». هذا تصرف لا سابق له في إسرائيل. حاول رجل أنْ يُبَوّلَ على المتظاهرين. رأى الموظف غرونزويغ في الصفوف الأمامية هذا الذي خاض عدة حروب ولا يزال يسعى إلى تقريب الفلسطينيين من الإسرائيليين.

فيما بعد سيظهر أنّ أوتوبيساً إن لم يكن أكثر، كان ينقل عناصر من بيت شمس للوقوف بوجه المظاهرة. وبيت شمس هي مستوطنة قرب القدس تسكنها أكثرية شرقية. كذلك جَمّعت الشرطة شهادات تفيد بأن العديد من المعتدين قد رشتْهم حركة يمينية متطرفة معترف بها و«مسؤولة».

استمرت الصدامات تحت المطر عدة ساعات. «شارون ملك إسرائيل» كان يصرخ المعتدون.

من شدة خوفه مما كان يراه على وجوه المعتدين ومن هذا الحقد الأعمى، قال مساعد رئيس البلدية تيدي كوليك إلى رفاقه في المكتب: «سيقع قتلى. . ». بعد لحظة انفجرت القنبلة بين جموع الناس المحتشدة في ساحة ملوك إسرائيل. وقع قتيل وعدة جرحى بينهم صديقنا إفرام بورغ الذي سيكون لنا معه لقاء في الفصول اللاحقة.

استمرت الاعتداءات ضد الذين كانوا يبكون غرونزويغ في المكان الذي سقط فيه. هذا التصرف غير المعهود أذهل إسرائيل، ليس كل إسرائيل. في الحادي عشر من شباط، أي في اليوم الذي تلا مقتل غرونزويغ هزّ رجل رأسه: «أكيد إن الذين رموا القنبلة هم من جماعة «السلام الآن» للتخريب على سياسة بيغن. . ». كذلك قال سائق تاكسي: «يجب تصفية كل هؤلاء الخونة من جماعة السلام الآن».

الاثنان هما من اليهود الشرقيين. كان من الممكن أن لا يكونا شرقيين. وفي هذه الحالة كانت طريقة التعبير مختلفة.

يجب أنْ لا يغيب عن بالنا أنّ هناك شخصيات يمينية كثيرة استاءت من مقتل إميل غرونزويغ، كما استاءت بشكل أعنف من الهوة التي عبّرت عنها القنبلة. وإلّا لن نفهم شيئاً في إسرائيل ولا بالتالي مما سيحدث لاحقاً. لقد شعر اليسار بالخطر، فدق الناقوس، وإن يكن غالباً ما يدقه بشكل خاطىء. من جهة الليكود، وفي ما عدا بيغن وشارون والمجموعات التي لا تتعامل مع الظروف المستجدة لكونها تتحرك من ضمن ما يُسمى رسالة سماوية، دب الخوف من هول الوحوش التي غذيناها.

«أنا خائف» قال المستشار البلدي روفن ريفلن العضو في حيروت، حزب بيغن في التحالف الحكومي. «لقد بنينا الجيش معاً. من الممكن أنْ نختلف ولكن في النهاية نشرب القهوة معاً. عندما كان يصاب أحدنا في الحرب كان الباقون يحمونه، يشعرون بالحزن، لا فرق أكان يهودياً غربياً أم شرقياً، كنا عائلة واحدة. لكن هذه القنبلة دمّرت كل شيء وشكلت سابقة مخيفة. أنا أراهن بأن المجرم الذي رماها لم يخدم في الجيش». الجيش ومن ثم الجيش.

النائب مئير شيتريت العضو في حزب حيروت كذلك، هو وجه سياسي معروف في إسرائيل. عمره ثلاث وثلاثون سنة، والده مهاجر مغربي لا يعرف القراءة والكتابة. مئير هو رئيس بلدية يافية «الآتي أعظم» قال: «التوتر بين اليهود الغربيين والشرقيين لم يعد يطاق. إذا لم نتحرك سيطلق اليهود النار على بعضهم البعض في الشوارع. لا يغمض لي جفن عندما أفكر بذلك».

في الأوساط اليساريّة واليمينيّة لا أحد يستطيع أنْ يؤكد عدم استمرار هذيان المجموعة الشرقية القومي - أو غالبيتها - بعد انتهاء ولاية بيغن. أمّا يهود أرض الميعاد الغربيين المتعصبين فقصتهم قصة أخرى.. روفن ريفلن يخشى أن تنقسم الساحة السياسية بشكل دراماتيكي بين الشرقيين والغربيين بعد بيغن. عندئذ لا يعود هناك مجال لأي واقع آخر وبالتالي لأية عقلانية أخرى. ويضيف ريفلن على طريقته الخاصة: «إننا بحاجة إلى بيغن أو شخص مثله لما لا يقل عن ثلاثين سنة أخرى».

في اليوم الذي تلا المأساة التي شهدتها ساحة ملوك إسرائيل، أثار الشرخ الذي حاول البعض تجاهله في السابق هزة كان صداها قوياً. تزاهي حانغبي الشاب العضو في حزب تحيا اليميني المتطرف والذي يشكل الجناح المتصلب في ليكود وابن غولا كوهن أحد زعماء حزب تحيا الذي يعتبر: أنّ العربي الطيب هو العربي الميت. والذي ساهم مع أصحابه في دفع جموع اليهود الشرقيين الذين يقطنون في الضواحي للنزول إلى الشارع. لنسمع حانغبي:

أعلن حانغبي في الإذاعة، وإن متأخراً، أنهم استغلوا حقد الشرقيين ضد حزب العمل: «لم أكن أدرك حتى ذلك اليوم معنى الحقد الرهيب الذي كنت أراه في عيونهم». صحيح أن في إسرائيل يساراً ويميناً ولكن لا يشبه أبداً اليسار واليمين في بلادنا. فالخيارات الفردية مهما كانت عمياء فهي ليست جامدة كما عندنا».

إن مقتل إميل غرونزويغ كان بمثابة الصاعقة في سماء صافية. حاول أنصار بيغن بعد هذه الحادثة إظهار أن استعمال العنف ليس حكراً على اليمين، على الأقل العنف على الصعيد الكلامي. إنها لعبة لا تخلو من الخطورة حتى وإن كانت تسعى للتهرب من المسؤولية عبرها. إذا توزع العنف تتوزع المسؤولية ويصبح لعنة جماعية وعدوى عامة. كلنا مسؤولون. من غير الجائز وضع الصقور والحمائم في سلة واحدة واعتبار أن التصلب والمهادنة متوازيان. إذا كان هابيل أقل بياضاً فقايين أقل سواداً. إن «الآخر هو الذي بدأ» هي حجة مألوفة في إسرائيل.

لم يعد يوسي ساريد النائب العمالي المتطرف يحتمل. الدم الذي أُريق في ساحة

ملوك إسرائيل لم يجف بعد: «كل من يسفك الدم أو يحرض الآخرين على سفكه يجب عدم التساهل معه» صرخ ساريد. ويجيب الليكود إن هذا الكلام هو «دعوة للقتل». أما يشياهو ليبوفيتز العجوز الثائر، فهو يرفع راية الإرهاب ضد الإرهاب: لنرمي بعض القنابل على الذين يرمون القنابل.

إن إسرائيل معتادة على هذا النوع من التصاريح العنيفة التي يطلقها رجال الدين من على جبل سينائهم. إن ردة فعل صحيفة يديعوت أحرونوت على هذا الصعيد معبرة جداً. كتبت الصحيفة تقول: «أصبحت إسرائيل بركاناً حيث الدعوة إلى الإرهاب والانتفاضة بوجه الجيش أضحت من الأمور المكشوفة». وتضيف الصحيفة: «إن اليوم الذي يمر من دون حرب أهلية هو بمثابة أعجوبة وطنية كبرى. ليس لدينا خياراً آخر: يجب اعتماد الوسائل الناجحة وتقليص الحقوق المدنية». وتطالب الصحيفة بمنع المظاهرات في الشوارع وبمنع الاجتماعات وخاصة في الجيش.

إن مطالب من هذا النوع كانت هزت إسرائيل لو جاءت قبل بضعة أيام. لكن الإسرائيليين يبدو أنهم قرأوا في كتبهم أنّ الصراعات الداخلية تُنذر دائماً بالكوارث. يقول أحد المعلقين: «إننا في طريق تدمير الهيكل الثالث». بعد حادثة القنبلة في ساحة ملوك إسرائيل أضحت هذه الإمكانية هاجس جميع الناس.

خمدت الحرارة بعد أن وصلت إلى ذروتها. لم يخرج أرييل شارون من الحكومة. أما المسؤولون غير المباشرين عن صبرا وشاتيلا، فقد تلقوا بعض الضربات ولكنهم استطاعوا الوقوف فيما بعد. أعطى الكنيست الثقة للحكومة بأكثرية أربعة وستين صوتاً ضد ستة وخمسين صوتاً. آخر الاستقصاءات تشير إلى أن ٦٩٪ من الإسرائيليين تؤيد مناحيم بيغن. الرجل الأقوى داخل هذه المعمعة. فاليسار منهك واليمين بدأ ينشطر. والعاصفة التي أثارها تقرير كاهان خمدت. فبقي تحالف الإنقاذ الوطني بين الليكود وحزب العمل مستحيلاً. فإقامة المستعمرات في الضفة الغربية - عفواً في يهودا والسامرة - لا تزال على قدم وساق. والشرخ هنا أضحى موجعاً أكثر من قبل. النزيف توقف فقط، ولكن إلى متى؟.

في اليوم الذي نشرت لجنة كاهان تقريرها، رجعت إلى باريس بعد عدة أسابيع أمضيتها في إسرائيل. وقبل الكلام عن اللقاءات التي أجريتها هناك، وقبل أن يفصح أصحاب الشهادات عن الشرخ. حاولت أن أعطي فكرة عن الانفعالات المتضاربة التي سبقت مباشرة مقتل إميل غرونزويغ ضحية أزمة الدولة الصهيونية. لم يستطع

أحد التنبؤ بوقوع هذه المأساة ولا أحد أراد حتى أن يتنبأ بها. ولكن بما أنها وقعت، وبالتالي، أثارت جدالات عنيفة، فهي إذن لم تكن وليدة الصدفة؛ إن وقوع الحادثة كان منطقياً. إنها مجرد حادثة، وعلينا أنْ لا نقع فريسة التفسيرات التبسيطية التوتاليتارية. أكان أحد وراءهم أم لم يكن فالشيء الأكيد هو أن ليس كل شرقيي إسرائيل هم الذين لحقوا بالجرحى لتصفيتهم داخل مستشفى شعار تزيدك ولا كل غربيي إسرائيل كانوا في مسيرة «السلام الآن». لم تصل الأمور بعد إلى درجة ينقض بها سكان المستوطنات على سكان المستعمرات. ولا أن يوجه الجنود أسلحتهم إلى صدور الضباط ولا أنْ يهاجم المثقفون الليبراليون بالقنابل الضواحي التي يسكنها اليهود الشرقيون. علينا أن لا نضخم الأمور. ولكن إذا كان شارون ومن لف لفه، يصرخون بأن الحمائم هم خونة، وإذا كان سائقو التكسيات يفكرون بإطلاق النار على المسالمين، وإذا كان ماتي بيليد وليبوفيتز لم يعودا يتحملان، فهذا دليل على أن عاصفة كانت تحت الرماد وانفجرت: «سياسياً إسرائيل هي كالطفل المتلىء عضلات ولكن لا رأس له». هذا ما قاله لي صديقي الصحافي. إن كل من يعرف هذا البلد يدرك الى أي حد يمكن أنْ تنقلب الأمور، لا فرق بين الصقور والحمائم، وإلاّ كيف يمكننا تفسير تقرير كاهان.

ما عدا مجموعة ضيقة من المتعصبين العميان التي لا تقبل بأفكار سواها، فالتسامح في إسرائيل لا نظير له في العالم بأسره. فالنقاشات التي سأوردها هي خير دليل على ذلك. حتى الغوش إيمونيم هذه الفرقة التي تعتبر الأكثر هذياناً، لم يتهربوا من الأسئلة المُحرجة والمحرمة التي طرحتها عليهم. ظل الحوار مفتوحاً، وإن كان حوار طرشان. ظل ممكناً إنْ لم نقل حاراً.

منذ عدة شهور يلاقي فيلم «خمسين» نجاحاً كبيراً في إسرائيل. يعالج الفيلم تحول بعض اليهود في الريف إلى مستثمرين استعماريين، وذلك عبر سيطرتهم على السكان العرب الذين يتحولون إلى بروليتاريا. وأحياناً يقوم هؤلاء اليهود ببعض الحملات التأديبية خلال الليل، تذكر إلى حد ما بـ كوكلوكس كلان ولكن هذه المرة في الجليل. يُعرض «خمسين» في جميع الصالات الكبرى، ولم يرم أحد الشاشة لا بقنبلة ولا حتى بحجر. لم يخطر ببال أحد أنْ يقوم بعمل كهذا. نال الفيلم الجائزة الكبرى من وزارة الثقافة في حكومة الليكود. هذا مثل من بين ألف. هل الدعوة التي أطلقتها جريدة أحرونوت للمحافظة على النظام تحت تأثير الخوف هي مؤشر لإعادة النظر بكل شيء؟

في لبنان، الحرب الأولى «الوقائية» بشكل واضح والحرب الأولى التي لم يكن فيها بقاء إسرائيل على المحك، لا تزال هذه الحرب مُستمرة مع كل النتائج التي نعرف. في الماضي

وقعت حرب السويس ولكن إسرائيل كانت لا تزال فتية وغير واثقة من قوتها. إن النقاشات تطال كل شيء: لبنان، الاستيطان في يهودا والسامرة: «يهوديّان يعني ثلاثة آراء». ما من شيء محظور. حين أتذكر رحلاتي السابقة، أدرك بأن ثمة انزلاق، أي نوع من إعادة توزيع مبسطة للخيارات والتي يشكل هذا الكتاب أحدها.

قبل بيغن، كانت الخيارات متنوعة كثيراً. فالمواقف من الصراع الأبدي بين اليهود والعرب وحول مصير إسرائيل في المنطقة كانت تتراوح بين الاعتدال والتطرف. المهم ان مراوحة الخيارات كانت مفتوحة أكثر.

منذ احتلال الضفة الغربية والدخول إلى لبنان وحتماً منذ قنبلة القدس، لم تعد المواقف كما كانت. غابت الحلول الوسط ولم يبقَ سوى مخرج واحد: التسوية أو القوة، التفاوض أو الرفض. من جهة دولة فلسطينية مهما كان شكلها، ومن جهة أخرى دولة إسرائيل. لم يعد هنالك من التباس كما كان الحال أيام «حرب الأيام الستة» أو حرب الغفران، كما لم يعد هناك مكان للغش. أضحت الأمور واضحة إلى درجة كبيرة. ويخطىء كل من لا يختار موقعه. أعلن أولاً موقفك ومن ثم تأتي المواقف الملتوية، فهي دائماً بحوزتك.

إن المشادات المتلاحقة حول تقرير كاهان أكدت كل ما سمعته، فكأن سداً فُتِحَ فجأة أو غطاءً رُفِعَ. لم يعد هنالك من محرمات. أصبح بالإمكان الكلام على حرب أهلية، أو عن الفاشية وإن لم يكن أحد مقتنعاً بذلك.

هناك اليوم، مجموعات من المسعورين لا تتورع عن تنفيذ ما تفكر به. إنهم يشكلون طليعة بمعنى أن ما يقومون به ليس سوى تعبير عن مشاعر الأكثرية..

إن الميول التي لا يمكن التوفيق فيما بينها يُقيد عليها في الإطار الديمقراطي الصهيوني. فاليمين واليسار أو ما يحل محلهما، لم تعد القناعات الإيديولوجية بكافية، لأن المسألة المطروحة ليست مسألة تأمينات أو مبادرة فردية ولا مدرسة علمانية أو مدرسة حرة.. فالمطروح هو مسائل تتعلق بجوهر الكيان الصهيوني.

لم تعدِ الصقور تتحمل الحمائم ولا الحمائم الصقور. كُلّ يتصرف بحسب طبيعته التي تختلف ولا شك عن طبيعة الآخر.

الشرخ موجود في كل مكان، أحياناً بشكل مكشوف وأخرى بشكل خفي. فهو موجود عند الإسرائيليين الشرقيين الذين أتوا بموجات متلاحقة من المغرب ومصر والعراق واليمن ومن جميع التجمعات التي تسمى خطأً بالسيفاراد. فالسيفاراد يشكلون حالياً أكثر

من نصف سكان إسرائيل، والتيارات التي تفرقهم توازي تلك التي تجمعهم. من هنا فلا مجال لاعتبارهم أنهم جميعاً من الصقور.

كذلك فالشرخ موجود عند اليهود الغربيين (أشكيناز) الذين لا يمكن اعتبارهم جميعاً من الحمائم. فهم من أصول ألمانية وبولونية وروسية وأميركية وأرجنتينية الخ... ومن جميع أصقاع الأرض. فهناك ما يجمعهم وما يفرقهم.

كذلك فالشرخ موجود طبعاً بين اليهود الشرقيين والغربيين. فاليهود الشرقيون انطبعوا بالعالم العربي واليهود الغربيون بالمجازر الجماعية. بشكل أو بآخر ـ التناقض ليس إلاّ ظاهرياً ـ يوجد تداخل واسع بين المجموعتين يحاول الواقع اليهودي والواقع الإسرائيلي أن يدمجه. فأصحاب المواقف المتشددة هم بالضبط الأقليات الأكثر شرقية أو غربية. أكثر من نصف الإسرائيليين هم صبرا أي من الذين ولدوا في إسرائيل. وبالرغم من ذلك فلا يزالون مطبوعين بأصولهم. هناك عملية تسابق بين الانخراط وعدمه. ويبدو أن الأول يسير بشكل جيد بينما الثاني يتعثر. فالتنافر يزداد وينسحب على المجتمع بأسره. من هنا، مثلاً، الوضع المتفجر بين المستوطنات والكيبوتزات. طال التصدع كل شيء ولم يعد يقتصر على الحرب والسلام. وأخذ يتنكر بأشكال لا تُحصى.

يطال الشرخ كذلك المتدينين. فالصراع القديم بين اليهود والذين يمارسون واجباتهم الدينية واليهود العلمانيين قد تخطاه الزمن.. فشعار «أبداً السبت» الذي لا يتلاءم مع مصالح شركة العال أو الحضور الإلزامي الى الكنيس لإجراء عقد الزواج، كلها أمور لا تزال غير محببة من قبل عدد كبير من الناس. بين أوريال سيمون الذي يرى التوراة كرسالة سلام كونية وبين واحد من الغوش إيمونيم الذي يحقد على جميع المشركين، لا يوجد أي قاسم مشترك. فكتابهم ليس الكتاب نفسه. فالمسألة تشبه محاولة مناقشة الخميني من قبل أب دومينيكي ذي نزعة إنسانية.

الشرخ موجود أيضاً في الجيش الذي نخره قصف بيروت وتقسيم الضفة الغربية أكثر مما نخرته صبرا وشاتيلا. الجيش هو بوتقة الأمة وعصب بقائها، إنه إسرائيل كل إسرائيل. ومع هذا فجنود «السنة الثانية» يرفضون علانية الخدمة في حرب لم يعد فيها فالمي (Valmy).

الشرخ داخل الكنيست، داخل الأحزاب وداخل الأوساط السياسية. الشرخ في هذه الأوساط ليس جديداً، وإن كانت الأزمة الأخيرة تُسعّره. لقد التقيناعددا من النواب والوزراء الذين لا يزالون يعتقدون بمثالية الوضع في إسرائيل. ففي خضم العاصفة لم تعد اللعبة البرلمانية تمثل واقع البلاد الحقيقي. فالأحزاب منقسمة على نفسها،

أسيرة هواجسها وغير قادرة على التحرك نتيجة التحالفات التي تكبلها. لذا فضّلنا أنْ نتكلم مع شعب إسرائيل عن السلام والقوة والأمن والأراضي المحتلة والحدود ومستقبل الفلسطينيين، أي مستقبل إسرائيل والصهيونية.

لا يوفر الشرخ المصانع والجامعات والأحياء، حتى أنه يدخل إلى العائلات. هنا يضم غالبية الشرقيين وهناك يقسم الروس والرأسماليين والجسم التعليمي ويتلاعب بالطلاب. يذكرنا كل ذلك بانعكاسات قضية درايفوس(*)على الرأي العام مع الفرق أنها هنا مسألة حياة أو موت أكثر منها مسألة وجود. هذا لا يعني مطلقاً أن ميول الناس تتحدد في إسرائيل بالمثاليات فقط. فهموم الرفاهية والمصالح الشخصية تلعب دوراً كبيراً على هذا الصعيد.

لقد لاحقت الشرخ من المستوطنات حتى الجامعات ومن مكاتب المصارف حتى القرى التعاونية (موشاف)، ومن أرصفة مرفأ أشدود حتى البيوت الفخمة في القيصرية. وقد ظهر لي الشرخ في مطاعم ديزا نغوف وفي الكنيس وعلى قمم لبنان المغطاة بالثلج حيث دبابات المركافا تحرس الطرقات الكبيرة والصغيرة. ففي الجلسات الخاصة أو الاجتماعات حيث ينسى المجتمعون وجودي، كان الشرخ موجوداً عند أصدقائي وأصدقاء أصدقائي. صحيح إنني لم أقابل كل الناس. فهناك الكثير من الرجال والنساء الأحرار والنزهاء والصادقين والمندفعين في إسرائيل، وكل واحد يعرف الآخر إما بشكل مباشر أو غير مباشر. ولو بقيت وقتاً أطول، لكنت قابلت ثلاثة ملايين إسرائيلي: «لا بد من مقابلة شلومو أنتل. إن تفكيره بعيد جداً عن تفكيري ولكن على ما أظن لديه شيء يقوله. إنه كولونيل عمل كذا وكذا، ومن سكان الكيبوتز الذين حصل معهم كذا وكذا، ومن أصل هنغاري لم يمض على وصوله وقتاً طويلاً، إنه رجل رائع وفي آن سافل، كلامه واضح جداً. «خذ هذا رقم هاتفه..».

من دون التحري عن الشرخ، يمكننا معرفة الدوافع السياسية الكبرى للأزمة الإسرائيلية. ولكن من الصعب معرفة معنى الخضّات القوية التي تمزق دولة إسرائيل الفتية. إن أكثر ما يزعج الإسرائيليين، حتى الأكثر انفتاحاً منهم هو عدم فهم الآخرين لهم. في الداخل يقبلون بكل الانتقادات والشكوك لأنهم يحسون بها. فهم أكثر تقبلاً للانتقادات بما لا يقاس من يهود الشتات (الدياسبورا). تشاء الصدف أن أكون من أصل يهودي نسبياً. ساعدني هذا ربما على أنْ لا يُنظر إلي كغريب، يجب أن لا يباح بكل شيء

(*) ضابط فرنسي حوكم لأنه رفض الاشتراك في حرب الجزائر

أمامه. وأعتقد أن أكثر ما ساعدني هو أنني جسدت انفعالات الذين كانوا يتحدثون معي.

قبل أن نترك الكلام للإسرائيليين لا بد من التنويه بناحية تقنية. بعد عودتي إلى فرنسا، فكرت بمعالجة الشرخ بطريقة منهجية انطلاقاً من الفئات المختلفة التي تحدثت إليها: جنود، يهود شرقيين، متطرفين أو معتدلين، مثقفين يحاولون تفهم الأمور، سكان المستوطنات في يهودا والسامرة، رجال دين من الصقور أو الحمائم الخ... ولكن ما إن بدأت بنسخ المقابلات حتى أدركت بأن هذا التقسيم هو تقسيم اعتباطي لا يعكس الواقع.

إن الذين حثّيتهم على الإفصاح عن رأيهم، ليسوا فقط جنوداً أو أساتذة أو رجال دين أو يهود شرقيين في حالة غضب أو مستوطنين أميركيين. إنهم يحملون غالباً أكثر من صفة تنعكس في أقوالهم وآرائهم. إذا تحدث أحد سكان الكيبوتز عن الجيش وعن جيرانه وعن البورصة وعن التوراة، فهل يجوز تقسيم كلامه إلى أقسام ثلاثة؟ كل قسم يشكل وحدة بحد ذاته. جميعهم إسرائيليون ولكل منهم رأيه الخاص بإسرائيل. من هنا فإن تقسيمهم إلى أجزاء لا فائدة منه، فكل تقسيم يشوههم. احتفظت إذن بالهيكلية العامة وسمحت لنفسي بالتصرف بها نسبياً. فأكثر من مرة تشابكت الأحاديث وهذا أمر طبيعي إذ أننا كنّا دائماً نتحدث حول المواضيع ذاتها: الحرب والسلام والأمن. هنا يكمن الشرخ. لا أحد يتعرض إليه من المنطلق نفسه. فطريقة كل واحد، وإن كانت خاصة به، تلقي ضوءاً على حديث الآخرين.

علّ هذه التقاطعات تساعدكم في تغيير الزاوية التي تنظرون منها كل مرة إلى إسرائيل. قارنوا وعدلوا كما فعلت أنا حيث كان شعوري دائماً إما الاعجاب أو الخوف وإما الرهبة. ضعوا أنفسكم مكان هؤلاء الناس. إنهم جديرون بالاهتمام.

صحيح أن العالم يضج لدى نبأ مقتل عربي أو يهودي في يهودا أكثر مما يكترث لمصرع خمسة آلاف هندي في آسام. والسبب ليس وجوه العديد من اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، أو لأن العرب هم أصحاب النفط، فلليهود قيماً كونية. من هنا ـ شئنا أم أبينا ـ تفردهم المميز. أنا متأكد بأن العديد من الإسرائيليين يرغبون في استبدال هذا التفرد المُكلف والمُزعج بشيء آخر أكثر بساطة وأكثر طمأنة. فهم أشبه بفتاة لعوب تشتكي من كثرة الاهتمام بها. إن شعب إسرائيل لا يقبل أن يكون «مثل الآخرين» نظراً لقوة تاريخه. اسمعوا بعض الرجال والنساء الذين يحق لهم الكلام باسم هذا الشعب. انظروا إليهم ولكن ليس من نافذتكم.

١
الجيش

انتقام أشعيا الأشعر

رقيب في مطلع العقد الثاني من العمر، يضع النظارات البعيدة المدى المركبة في أحد التحصينات ويثبتها «ها هم...» مددت رأسي من الفجوة ورأيت على الثلج شخصين قريبين لدرجة تخال أن بإمكانك أن تلمسهما. كانا ينظران باتجاهنا. ثيابهما رثة، لا يحملان بنادقهما، إنهما جنديان سوريان.

«إنهم يعانيان كثيراً من البرد، قال الرقيب من دون تشفي. ليس لديهما ثياب شتوية، يبنيان أكواخاً من أغصان الشجر ولا يأكلان بشكل جيد».

على حائط التحصينات المتقدمة، يوجد خيالات صغيرة لدبابات روسية وذلك كي لا يخطىء الهدف عندما يفتح النار. حولنا آليات متطورة، لا أعرف اسمها، ولا غاية استعمالها. «ما هذا؟»، نظرت إلى الرقيب الذي ظل صامتاً.

تركت الموقع من ممر تحت الأرض. لم أشاهد ذلك من قبل. فحتى الأميركيين في فيتنام لم يتوصلوا إلى هذه الدرجة من الرفاهية. الممرات المطمورة عُزلت بواسطة قبب من الصفيح المضلع الذي تتشابك أجزاؤه كالميكانيكي. ويستطيع هذا النظام أن يصعد ويهبط ويدور مع المحافظة على عزلته. إنه اختراع إسرائيلي محض. ويمكن تركيب أو تفكيك هذا النوع في بضعة أيام حسب طبيعة الأرض. الأرض مغطاة بأحجار كبيرة ناشفة. الطقس حار نسبياً: أنابيب الشوفاج تمتد في جميع الممرات حيث يوجد أجهزة تهوية لتنقية الهواء. جنديان شابان يلعبان بطاولة الزهر، وآخر لم يتجاوز العشرين، يدقق ببعض الأرقام. هل يعد امتحاناته المقبلة؟ لا. «البورصة». إن أول اتصال بالأهل يكون غالباً بالسؤال عن أسعار البورصة. بعد ذلك قمت بزيارة الحمامات حيث المياه ساخنة ومن ثم زرت المطابخ التي لا تقل شأناً عن المطاعم المحترمة وأخيراً زرت قاعة الاستراحة حيث يوجد

جهاز للتليفزيون.

في الخارج، كانت تلمع شمس باردة وبيضاء. إنها مناظر جبال لبنان الشرقية الخلاّبة. وفي الموقع المتقدم يوجد حوالى مائة من الرجال وحوالى ست دبابات من الصعب تصور كيفية صعودها إلى هذه القمة التي تعلو ١٦٠٠ م. إن دمشق تبعد عنّا كخط مستقيم حوالى ثلاثين كيلو متراً.

في الخارج، لا يترك الجنود بنادقهم أبداً. يضعون على رؤوسهم قبعات من الصوف وشالات حيكت في البيت. هذا هو جيش الدفاع الإسرائيلي، جيش الشعب الإسرائيلي. التجهيزات العسكرية لا تقل رفاهية عن الغرف. فالرفاهية مفيدة لمعنويات الجنود الذين يشعرون بثقل الوقت طالما لا يسمعون أزيز رصاص الدروز والكتائب أو الفلسطينيين. رفضت القيادة أنْ توصلنا إلى حيث تدور المعارك لأن الإنسان يعرض حياته لخطر الموت هناك.

يتقدم كشاف ممرض متزلجاً على الثلج من الدبابات، وبعد أنْ يستأذن من النقيب يأخذ يشرح بأن المعطف الذي يرتديه يتكون من مادة أميركية الصنع، مدروسة، يسمح بتحمل طقس قطبي بالرغم من أنه برقّة وخفّة قميص من النايلون، وأن في الجعبة التي يضعها على ظهره يوجد أدوية تمكنه من مساعدة وحقن الجرحى الذين يصابون على الثلج، وبأنه تدرب على التزلج على منحدرات جبل الجليل. أما الجنود فيضعون معاطف مبطنة وأحذية من صنع كندا هي أيضاً مبطنة، ونظارات ضخمة تقي أعينهم من انعكاس الشمس على الثلج، وحتى من القذائف. إنها باختصار الرفاهية.

يظل الجيش جيشاً، خاصة على هذه الجبال الوديعة. فالضباط لا يبوحون بأي شيء ويتهربون من الكلام بشكل مهذب. «لا يوجد أية مشكلة هنا. لقد وصل ارتفاع الثلج في الأسبوع المنصرم إلى متر ونصف، ولكننا عملياً لم نتعطل. مما لا شك فيه أن الشباب يرغبون بالعودة إلى منازلهم، بالرغم من كثرة المأذونيّات. إن حرب لبنان، الجنرال شارون؟ هه... إنك تعلم بأن النقاش السياسي غير ممنوع، ولكن... كل شخص حر في طريقة تفكيره. لا نتكلم كثيراً.. المعنويات عالية والأكل ممتاز».

لم أكن متوهماً أبداً.

طلبت إذناً مُسبقاً للقيام بهذه الزيارة إلى لبنان لكي أتعرّف على طريقة اشتغال الماكينة العسكرية الإسرائيلية في المستنقع اللبناني.. وبما أن الوصول إلى المواقع الساخنة يتطلب إذناً خاصاً، لأن وزارة الدفاع على ما يبدو لا تحب كثيراً الزوار الحشريين.

في تل أبيب، في المكتب الصحفي التابع للجيش، يبدو أنهم لا يعيرون الدماثة

السياسية اهتماماً كبيراً. الجدران مغطاة بملصقات تظهر عرفات كالغول الدموي. الشعارات لها لون واحد: حين يعتدل الفلسطينيون، فما ذلك إلاّ لتدمير إسرائيل بشكل أفضل. يمدون يداً وبالأخرى يخفون خنجراً. فانتبهوا أيها الصحافيون الأجانب. صحيح أن عرفات يَشدّ ويرخي ولكن يجب الحذر منه. إذا كان الفلسطينيون بالرغم ممّا يدّعون هم تحديداً وبشكل مطلق غير قابلين للتغير، فإن مسألة الحرب والسلم هي مسألة محسومة سلفاً. فما علينا سوى ضربهم حتى لا يبقى منهم إلاّ الفلاحين المسالمين.

النغمة ذاتها تتردد في الكراسات التي قدموا لي منها عدة كيلو غرامات. القوانين هي التالية: «لبنان في خطر»، «إن اعتدال منظمة التحرير الفلسطينية هو غطاء لمواقفها المتطرفة»، «حق الدفاع عن النفس»، «منظمة التحرير الفلسطينية وموسكو»، ألخ.. كل شيء يسير بانتظام. كل الأبواب مغلقة. هناك مثلاً محاولة لتشبيه حرب لبنان بالحرب الأميركية اليابانية. لو هاجم الأميركيون بيرل هاربور من قبل، لكان الحق إلى جانبهم، إليس كذلك؟ إن تنظيف بيروت كان بالضبط كتدمير المقاتلات اليابانية وهي في طريقها إلى هاواي. هل في حال انطلاق صواريخ روسية نحو الغرب من الخطأ تدميرها قبل وصولها؟ بكل تأكيد لا. أما بالنسبة للمساجين الفلسطينيين لا نرى أية ضرورة في تطبيق اتفاقية جنيف. يمكننا القبض عليهم ومحاكمتهم ومعاقبتهم لأنه ـ وهذا ما يجب برهنته ـ لا وجود لدولة فلسطينية وبالتالي لا وجود لجيش شرعي. إن منظمة التحرير الفلسطينية تريد تدمير إسرائيل. إذا اذاعت العكس، فلا يجب أنْ نصدقها. لأنه في حال صدّقنا أقوال منظمة التحرير الفلسطينية أو ما توحي به، فهذا يعني تشجيع الأصوات المعتدلة في كلا الجانبين. وفي هذه الحالة سترى إسرائيل نفسها مجبرة على التنازل.

على ثلوج لبنان إذن، لم تكن الظروف مؤاتية للخوض في تلك المواضيع الملتهبة. فالذين استقبلوني لم يتوقفوا عن الكلام، ولكن بخصوص حسنات دباباتهم الأميركية الجديدة الصنع، وذلك إذا ما قورنت بـ: ت ٧٢ السوفياتية. فمثلاً، السائل المبرد في الدبابات الأميركية يشتعل تحت ضربات مدافع العدو مما يعطل هذه الدبابات. نحن نعلم بأن نتائج ودروس «المناورات الكبرى» التي تجري في الشرق الأوسط تهم كثيراً عسكريّ البنتاغون. وهذه حجة يستغلّها بيغن لصالحه. فهذه القنوات الثمينة التي ترعى تسليمها عدة اتفاقيات فلا يُسلمها بيغن إلاّ بالتقطير وهذا يثير غضب الأميركيين. بعض الإسرائيليين يجدون أن هذا التقطير هو في محله. إننا نشد الحبل للحلفاء الذين لا ينفكون يطالبوننا بالاعتدال. فمن هم حتى يدعون تعليم الشعب اليهودي الفرق بين الصحيح والخطأ.

على الجبال تمحو الدبابات آثار جنازيرها وتدير أبراج المراقبة. «علينا أنْ نعترف أن دبابات ت ٧٢ هي سلاح رائع. أحياناً يفوق الميركافا الإسرائيلية. ولكن بشكل عام أسلحتنا هي أفضل، اعتدنا عليها وهي تتجانس بحيث تشكل إنساناً واحداً». إن كل دبابة تساوي ١٤ مليون فرنك فرنسي، والقذيفة من عيار ١٧٥ تساوي ٥٠٠٠ فرنك.

لم أسعَ إلى لقاء إيلي جيفا الكولونيل الشهير الذي استقال عندما أخذت حرب لبنان تأخذ منحاً غير أخلاقي. وهو معروف جداً في فرنسا. كنت أفضل سماع محاربين وجنود عاديين. أظن بأنني كنت على هذا الصعيد مخطئاً. شارل أندرلين مراسل القناة الثانية الفرنسية يعرف جيفا جيداً

«إنه نموذج الضابط الإسرائيلي. إن جيفا إنسان لامع، إبن جنرال، كان في رتبة ملازم في بداية حرب الغفران عام ١٩٧٣.. في معركة القنيطرة حاصرت القوات السورية دباباته، فكسر الطوق والتحق بوحدته. وها هو كولونيل في عمر ٣٢ سنة. حين أصبح شارون وزيراً للدفاع، قال جيفا: أدركت أن مشاكل كثيرة ستقع... عندما بدأت عملية ما يسمى «سلامة الجليل» كانت دبابات إيلي الميركافا تتجه نحو الشمال عن طريق البحر. قطع الأربعين كيلو متراً التي كانت حجة للهجوم بسرعة. لم يقتنع أحد من الضباط ولو للحظة بهذه الحيلة التي كانت تهدف في البداية لتغطية قرار الحرب الوقائية».

«كانت المخيمات الفلسطينية على السواحل تدافع عن نفسها بشراسة. وقعت خسائر في صفوف الإسرائيليين وكان لا بد من القصف المدفعي. «يروي فيما بعد إيلي جيفا. رأيت بنظاراتي أولاداً يلعبون وكان علينا أن نفتح النار». قرر الكولونيل من دون الرجوع إلى أحد الالتفاف حول التجمعات السكنية وذلك لتوفير الإصابات ولربح الوقت. يبدو أن رغبة شارون كانت غير ذلك. فقد كان شارون يبغي ضرب الفلسطينيين. على كل حال ظل جيفا يتقدم شمالاً. فتخطى الدامور متوغلاً في منطقة الشوف. بدأ الهجوم يأخذ طابع التمشيط. طالب عدة مخاتير مقابلة جيفا وحذروه: لا تسمحوا للكتائب بدخول المخيمات الفلسطينية. كان الكولونيل يبلغ كل ذلك. ولكن لم يسمعه أحد، في تلك الفترة تفاقمت الأزمة النفسية، وكان ذلك قبل صبرا وشاتيلا».

فكر جيفا بالاستقالة. لكنه تصرف لا سابق له في الحرب يضيف شارل أندرلين. تكلم مع رئيسه الجنرال دروري الذي حاول تهدئة أعصابه. عبثاً. «يجب أن أمنع ذلك، يجب الوقوف بوجه هذا التدهور»، قال جيفا. قابل شارون أكثر من ساعتين: لكن الوزير كان يعرف ماذا يريد. أدرك جيفا أن شارون ينتمي إلى عالم مختلف عن عالمه. بيغن

وشارون يُقللان من قيمة الخسائر الإسرائيلية ومن نتائج الحرب على الصعيد الإنساني وذلك كي ينجزا مهمتهما من دون أن يقف الرأي العام في الداخل وخاصة في الخارج بوجههما. إنه سباق مع الزمن. لأول مرة كان على جيفا أن يضرب العربي كما عليه أن يضرب المقاتلين والمدنيين الذين اختلطوا بعضهم ببعض بطريقة فريدة جداً. إن فكرته عن الحرب هي تدمير دبابات العدو عندما يهاجم أرض إسرائيل. أخيراً استقال. أنا على يقين أنه لم يكن يدرك مدى الصدى العالمي الذي سيأخذه قراره هذا. «جيفا قال شارون، أطال الحرب بإعطائه أملاً لعرفات».

إن شخصية وشهرة جيفا جعلتا من تصرفه تصرفاً نموذجياً بالنسبة للبعض ومشيناً للبعض الآخر. ليس المقصود الاستسلام مطلقاً، بالرغم من ذلك لم يتردد عدة ضباط عن التعبير عن رأيهم وبعض الوحدات من التحرك. لم يحاول شارون التقليل من أهمية الأمور بل على العكس فقد حاول كبيغن اللعب ببراعة على عواطف الناس البسيطة. يكفي في هذا المجال التكلم عن انقسام داخل الجيش حتى ترص صفوف الأكثرية وتعزل الحمائم الخونة الذين يخربون قوة إسرائيل.

اشترك شارل أندرلين في حرب لبنان كضابط. ثم عاد عدة مرات إلى الجبهة الشمالية كصحافي. يروي شارل ماذا تعلم من خلال ما رأى وما سمع.

«في بداية الليل الجميع يتناقشون. فهذا أمر جد طبيعي في الجيش الإسرائيلي. قبل عملية «سلامة الجليل» كانت النقاشات تدور غالباً حول مصير الضفة الغربية، وعن المساحة التي يجب أنْ نحتفظ بها وتلك التي يجب أنْ نتخلى عنها.. في لبنان ارتفعت الحرارة. وأصبحت الشتائم مسألة طبيعية. الضباط كانوا الفئة الأساسية التي تأثرت بحرب لبنان. فبالرغم من عدم إعلان موقفهم بصورة علنية، فقد كانوا يعارضون أهداف وأساليب شارون. تلك الأهداف والأساليب التي قلبت رأساً على عقب طرق تفكيرنا المعهودة.

أكد لي ضابط آخر ممن اجتمعت بهم ولا يزال يخدم في لبنان أن تسعة أعشار رفاقه يكنون العداء لشارون مع العلم أنهم ليسوا جميعاً من الحمائم وليسوا ضد بيغن. لقد كان لشارون طريقة «خاصة» في تعريض حياة الجنود للخطر، كما كان له طريقته في الكذب مع العلم أن الصدق هو القاعدة في إسرائيل.

«الجنود العاديون، يضيف أندرلين، أتت ردة فعلهم متأخرة. فالشباب منهم يصدقون كل شيء. كانوا يناقشون في كل شيء. ولم يكن من الممكن منعهم إلّا في حالة واحدة؛ ألا وهي تأثير هذه المناقشات على الناحية العملية من عملهم.

- هل ردات الفعل مرتبطة بأصول الجنود؟

- بالأحرى بمستواهم الثقافي. سمعت مهاجرين روس ورجال دين أميركيين يشتمون وهم ليسوا مبدئياً من الحمائم. كذلك كانت ردات الفعل سلبية عند بعض الضباط اليهود الشرقيين. لقد أحس شارون أن هناك رجالاً ضده في بعض الوحدات. لذلك وضع في الخطوط الأمامية الاحتياطيين المعارضين وذلك كي لا «يلوث» الألوية الجديدة. ورفع شعارات رنانة: «إن لبنان مهم جداً»، «علينا أنْ نصمد من أجل سلامة إسرائيل ومستقبل السلام». لأول مرة خاض جيش الدفاع الإسرائيلي حرباً مريحة جداً باستعماله كميات كبيرة من الدبابات والطائرات والصواريخ والبحرية وكل الأسلحة المتطورة. فقد كنا خمسة مقابل واحد في قتالنا ضد السوريين.

«لم يكن سبب التذمر عند الاحتياطيين يرجع إلى دوافع إنسانية أو سياسية. فثلاثة أشهر من الحملة تعني بالنسبة للتجار أو أصحاب المهن الحرة ثلاثة أشهر من العمل الذي يذهب هدراً. ماذا نفعل هنا؟ يتساءل الكثيرُ من الجنود. ما همّ لو ضحينا بأنفسنا ولكن شرط أن تكون الدوافع واضحة وغير قابلة للنقاش».

«وقعت مرة على رجل ينظر إلى بيروت من خلال نظارات ضخمة، وذلك كي يضبط نيران مدفعيته على المدينة. كُنت ترى البنايات تتساقط. هل أنت صحافي؟ إجلب لي شارون، أريد أنْ أكلمه. أنظر إلى هذا العمل الذي يطلب مني القيام به. إن الأسلوب الذي ينعت بإرهابي كل مقاتل فلسطيني ليس واضحاً على ما أظن».

«هناك محاضرات واجتماعات داخل الجيش حيث يمكن لكل عنصر أن يعبر عن رأيه. كنت في أحد الاجتماعات حين طلب مني العريف الكلام. «كنا أمام قرية تعج بالمدنيين. تلقيت الأمر بالقصف. هل يعتبر الأمر شرعياً؟» شرعياً! ضجت القاعة بالضحك؛ هذا الضحك الأصفر ورافقه ضجة صاخبة. بعد انتهاء الاجتماع سألت العريف لماذا طرح هذا السؤال المضحك. «لم أكن أتوقع أي جواب. كل ما كنت أريده هو أن يصل هذا السؤال إلى القيادة العامة».. بعض الضباط أصحاب الرتب العالية يشاركون في هذه المحاضرات التي تُعطى للقاعدة حيث يُوضعون أحياناً في قفص الاتهام. بعض الأجوبة التي يقدمونها تفضحها حيرتهم. لا، لا أظن أننا سنتخطى بيروت، إلّا إذا رأى أحدهم من خلال موقعه ومسؤوليته أن أمن إسرائيل يفرض احتلال تركيا أيضاً. النكات جميلة. من الممكن أن نصل إلى سويسرا، وبعد ذلك نفاوض. ومن الممكن أن نتنازل عن كل شيء ما عدا سويسرا. مرة أخرى صادفت وحدة صغيرة بعد معركة عين الحلوة، بالقرب من صيدا. لم تكن العملية سهلة. كان الجنود في حالة من العياء والضياع

الشديدين. قتلنا إرهابيين وفتشنا في كل مكان. والآن صدرت لنا الأوامر بتطمين الناس كما يقال. ماذا يعني ذلك؟ أولاً يجب تصفية «الحيوانات» التي تمشي على رجلين، وثانياً يجب تصفيتها! لم نعد نفهم شيئاً. هم أيضاً لا يفهمون شيئاً. بالرغم من كل ذلك إن هؤلاء الجنود يحسدون على برودة أعصابهم وشعورهم الانساني. أعتقد أن ذلك لم يحصل أبداً، لم تعرفه أية حرب».

رأيت بأم عيني جندياً شاباً عمره تسع عشرة سنة، يحمل إمرأة حاملاً أصيبت في القصف، إنها فلسطينية. أوصلها إلى المستشفى. في المخيم، كان الجندي يحرص على أولاد المرأة. رائع. أثارت هذه الحرب نوعاً من الصحوة. للمرة الأولى نفهم من هم اللاجئون ومن هم ضحايا الحرب التي كنّا نحن المبادرين فيها. ما زلت أتذكر مخيماً استطاع أن يصمد ستة أيام، تحت ضرب المدفعية والطيران والدبابات. ستة أيام، من دون شك إن اختلاط المقاتلين بالمدنيين عمل سافل، كأنهم يحتمون بهم. ولكن المدنيين هم أهلهم. لم نر ذلك أبداً ولم نفعل ذلك أبداً.

وماذا لو اقتحمت الجيوش العربية إسرائيل في يوم من الأيام لا سمح الله؟ سيختلط المقاتلون بالمدنيين داخل البيوت والشوارع. سيختلط الجنود بأهلهم.

لم أعد أتذكر هذا الاستشهاد الذي ذكره أمامي رجل دين متحرر. قال بالرغم من تمتع موسى بخصائل حميدة كثيرة، فقد منعه الله من دخول أرض الميعاد لأنه قتل مصرياً.

ها نحن عند صديقي القديم اميرام بالقرب من الكرمل في الجليل. أعرف أميرام منذ عشرين سنة. لقد قطعنا معاً صحراء النجف حين كان لا يزال قائداً لناقلات الجند من نؤوت هكيكار بالقرب من البحر الميت. لقد خاض إميرام عدة حروب. إنه ذو نزعة فردية متشددة. فعائلته الكبيرة هي بالنسبة له كالكيبوتز. زرع أزهاراً لبيعها في هولندا وكبد بط للبريغورد. وغداً سيصنع خوخاً مجففاً من أجل آجن. حالياً يُربي بطاً. لقد تسنى لنا لقاء إميرام الذي تضفي عليه هامشيته إمتيازاً فريداً. إذا كان إميرام مغشوشاً فمن نفسه.

أحد أولاد إميرام في الجيش. لم أستطع أن أراه. لم يحصل على اذن خلال رحلتي، اتصل فقط بالهاتف.

«الهاتف يلعب دوراً مهماً في الحياة العسكرية في اسرائيل»، يقول اميرام مبتسماً. فلم ينس بعد الظروف الصعبة التي كانت إبان الحروب الماضية، خاصة حرب الاستقلال. «اليوم باستطاعة أولادنا وبناتنا الاتصال بالهاتف حين يتسنى لهم ذلك،

حتى أنهم يتصلون بين معركة وأخرى. مودي لا يهتم بقصص البورصة. إنه نوع آخر، أحياناً المكالمة تطول جداً : أبي اتصل بفلان، بفلانة، بفلان، بأهل هذا وأهل هذه وقل لهم كذا وكذا . . أمضي أحياناً نصف النهار هكذا » .

حين يأتي مودي خلال مأذونيته إلى مزرعة البط في عين كامونيم فإن غسالة والدته دورا تدور من دون انقطاع. فهو عادة يحمل معه غسيل زملائه في الشعبة. فكل جندي يحمل بدوره غسيل زملائه .

في بداية حرب لبنان كان مودي لا يزال صغيراً. فقد كان يتدرب في مخيم خاص للوحدات المظلية الخاصة شمال الجليل .

«كل نهار سبت عندما كان يُكلف مودي بالحراسة كنا نذهب بالسيارة لرؤيته. يتحول المخيم في ذلك النهار إلى شيء غريب. العشرات والعشرات من أهالي الجنود يحملون معهم حلويات صنعت في البيت. عندئذ تبدأ نزهة جماعية لا تخلو من المرح.الجميع يتحدثون وينشدون حتى تحين ساعة العودة. إنها نوع من السعادة التي يجعلها الخوف من الغد حادة جداً » .

رونن يُجسّد هذا الغد .

وصل رونن ذات ليلة خلال مأذونيته، بعد عدة أسابيع قضاها في الخطوط الأمامية. في تلك الليلة كان رونن يحتفل بعيده العشرين. تعشينا معاً. العائلة وأصدقاء العائلة في الغرفة الواسعة التي لم ينته العمل فيها بعد، والتي تطل على هضاب الجليل الحجرية حول صفد .

رونن هو صديق تل إحدى بنات إميرام والتي لا يتجاوز عمرها السابعة عشرة. إنه واحد من العائلة .

« ثلاث فرق اتجهت نحو لبنان. الأولى سلكت طريق الساحل والثانية البقاع والثالثة التي كنت في عدادها سلكت طريق الوسط. في بداية الأمر كان كل شيء سهل . . . »

وضع رونن بندقيته التي لا تفارقه بالقرب من كرسيه. لا تظن أنه روى لي كل ذلك دفعة واحدة كما تروى القصص عادة. كانت جملة متقطعة وبالكاد مسموعة وبلغة إنكليزية ركيكة. تظاهرنا بأننا لم نلاحظ شيئاً غير عادي، حتى تل التي كانت تمسك بيده تحت الطاولة فعلت مثلنا : كان رونن يخيفنا ويثير شفقتنا في آن. كان شاحب اللون ومنهكاً جسدياً ونظرته الرمادية كانت ثابتة كأنه يرى أشياء روتينية وكريهة خلف الصحون التي يتصاعد منها الدخان وخلف وجوهنا الأليفة. حين فتحوا قنينة شمبانيا من صنع إسرائيل انتفض رونن كالمجنون .

«عندما وصلنا بالقرب من قرية تدعى عين زحلتا، علمنا بأن الفلسطينيين قد انسحبوا إلى المناطق المجاورة. فتشنا فلم نعثر على أحد. عند الفجر استعدّت الوحدة المصفحة للرحيل. فجأة هاجمتنا قوة سورية. كانت دبابات العدو تفوقنا عدداً ومواقعها أفضل من مواقعنا. حاولت وحدتنا الانسحاب بين هضبتين ولكن دبابة مُدمّرة كانت تسد الطريق. كانت القذائف تنفجر في كل مكان. قُتِلَ أحد رفاقي على الفور عندما حاول سحب عدة دبابة كانت تحترق. حاولنا أخذ بعض المواقع، لكن الوضع كان غامضاً. قُتِلَ وجُرِحَ العديد من الضباط. كنا نحن نحاول أن نضع الجرحى في أماكن آمنة كي يُصار إلى نقلهم فيما بعد. هكذا تعلّمنا. هذا ما كنّا نشعر به. وصل أحد الجنرالات وصرخ بصوت عالٍ : «أعرف، أعرف، ولكن لا أمل في إنقاذهم. انسحبوا بسرعة. بحياتنا لم نسمع كلاماً كهذا. كنت أصرخ لصديقي الموجود بالقرب مني كي يسمعني. كان يسمع، بعد دقيقتين مات. بعد فترة أجهشت بالبكاء، غشت الدموع عينيّ. توقفت عن البكاء كي أستطيع متابعة القتال.

ـ ألا تجد صعوبة في الكلام؟

ـ نعم. لا. أنا بحاجة إلى الكلام. يجب أنْ أخرج كل ذلك».

«فيما بعد تناقشنا بالوضع، وبكل ما كنّا نراه ونفعله. أثناء حرب الغفران كل شيء جرى بسرعة، لم يتسنَ لأحد أن يثرثر. ولكن حين نبقى مدة طويلة خارج حدودنا فالمسألة تختلف. الغالبية العظمى من الناس بدأت تطرح أسئلة خطرة. في إسرائيل لا أحد يذهب إلى الحرب من دون معرفة السبب. . . لقد رأينا أطفالاً ومسنّات عرب يسقطون تحت ضربات القذائف. ورفاقنا. إن وحداتنا تتألف من جنود وفي أعمار متقاربة ويسكنون في المكان ذاته. لقد كنّا في المدارس ذاتها وفي ذات الحي والكيبوتز، ضحكنا معاً وغازلنا الفتيات معاً. إن مقتل واحد من هؤلاء كان بمثابة فقدان لشخص من العائلة. لقد رأينا أشياء مخيفة بحيث لم يعد باستطاعتنا النوم ليلاً» .

«إن قصة الأربعين كيلو متراً التي سنحمي بها شمال الجليل هي قصة سخيفة، لا بل كذبة للاستهلاك الصحفي. كانت الخطة موضوعة سلفاً كي نصل إلى حيث وصلنا. وما سمي «بالضباط السيكولوجيين» المنوط بهم مناقشتنا فهم غير متفقين. البعض يقول يجب الوصول إلى بيروت لتصفية الإرهابيين والبعض الآخر يعتبر أن شد الطوق أكثر من ذلك ستكّون عواقبه وخيمة» .

«لم يتنبأ شارون إلى أي مستنقع ستتحول هذه الحرب. لم نكن مستعدين لذلك ولن نستعد أبداً» .

زبدي كوهن ليس النموذج اليهودي كرونن بالرغم من كونه من مواليد إسرائيل. إنه ابن برجوازي تونسي متطور. عاش فترة في باريس. فجأة تكتشف علاقات وحتى أصدقاء مشتركين في ما بينهما. والدته تعرف ألبير ميمي الذي ألّفت معه كتاباً منذ بضع سنوات. التقيت فيما بعد في تل أبيب السيدة جنفياف كوهن. إنها نموذج للأرجل السود(*) السابقة التي أصبحت في طريق الزوال.

تركت كريات شمونة شمال البلاد باتجاه القدس سالكاً الطريق الشرقية الرائعة التي تمتد على ضفاف نهر الأردن. الحدود كانت هادئة ولكن يبدو أنّ تسلل الفدائيين استوجب تحركات عسكرية ضخمة. كنّا نصادف في طريقنا بعض الدوريات. وكانت تكمن عند مفترق الطرق سيارات نصف مجنزرة مزودة برشاشات ثقيلة. عند أحد حواجز التفتيش، ما بين بيت شيّان وجرش صعد معي كوهن الذي كان يستند على دبابة بانتظار سيارة. فمن غير المستحسن في إسرائيل قيادة سيارة من دون أن تكون بحوزتك رخصة تسمح لك بالتنقل.

«بقيت خمسة أشهر في الحرب، كل الحرب في لبنان..».

زبدي كوهن ملازم في العشرين، قائد مصفحة، الشباب في إسرائيل يمضون ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية قبل أنْ يصبحوا من الاحتياطيين، ولا يُستثنى الطلاب من هذه الخدمة. «صحيح أن هذه الحرب لم تكن دائماً مرحة ونضرة، ولكن عندما أقرأ كل ما كُتب وما قيل عنا في فرنسا مثلاً، فإنني أشمئز كثيراً. كانت الأوامر المعطاة لنا تُشدد على احترام الأشخاص والمدنيين قدر الإمكان. ولكن ذلك لم يكن سهلاً؛ لا بل أحياناً كانت تعرّض حياتنا للخطر. وبالرغم من ذلك فقد طبقناها. كنت أزيح بدبابتي خلال الدوريات كي لا أتلف أحد البساتين».

كان الموضوع ذاته يتكرر في كل مرة كنت أتكلم مع الجنود. «بالرغم من هذه الحرب التي لا يمكن التكفير عنها فلم ننسَ أنْ نبقى إنسانيين» أو «كما ترى إن فضيلة إسرائيل ظلت فوق الشبهات».

«حين كنّا في بيروت مررت بالقرب من صحافيين فرنسيين. قال أحدهما وهو ينظر إليّ: «أنظر إلى هذا المجرم» لن أنسى هذا الوغد أبداً. فالمسألة ليست بسيطة، أعرف ذلك، ولكننا لم ندخل إلى لبنان كمجرمين. كان لا بد من الدخول وتدمير كل ما يملكه

(*) الأرجل السود : اسم يطلق على المستوطنين الفرنسيين الذين كانوا في الجزائر.

الإرهابيون ومن ثم نرجع إلى بيوتنا. إنني أكره بيغن وما يمثله بيغن ولكنني أكره أكثر الإرهابيين. فتصرفهم لا يحكمه أي مثال. يجب أنْ نفاوض ولا بد من إعطاء العرب قسماً من الأراضي ولكن ليس للإرهابي عرفات.

ـ التفاوض مع من إذا لم يكن مع اعدائك ؟

ـ لا أعرف. أتمنى أنْ يحل السلام ولكن لا يمكنني أنْ أتصور التفاوض مع مجرمي منظمة التحرير الفلسطينية. أنا من مؤيدي رابين، فهو الوحيد الذي أثق به. إنه يفتش عن تسوية مع إدراكه أنه لا يمكن الوثوق بالعرب.

ـ إن ما فعلتموه في لبنان لا يحتمل؟

ـ لا يمكنني أنْ أتكلم عن ذلك. فلم يحن الوقت بعد. لا يجوز لقائد مصفحة أن يبكي بالرغم من كل الذي حصل، وإلّا فلن يستطيع أن يقود مصفحته، أضف إلى ذلك إنه مسؤول عن أرواح رفاقه.

ـ هل الأصل التونسي يثير مشاكل للجندي؟

ـ كلا. ليس من يهود شرقيين وغربيين داخل الجيش. لا شيء يجب أنْ يصدع وحدة جيش الدفاع الإسرائيلي ووحدة إسرائيل. سأقول لك شيئاً: بعد اليوم لن ينتخب الجنود شارون. لقد كذب علينا كثيراً نحن الذين كنّا نرى الحقيقة أمام أعيننا. أما رفول فهو شريف. تكلم معنا خلال ساعات طويلة من دون أنْ يعلك كلماته ساعة كان الشك يزعجنا. كل الجنود يعبدونه».

رفول هو رفايل إيتان القائد السابق للجيش الذي اتهمه تقرير كاهان «بالإهمال» الذي سبق مجزرة صبرا وشاتيلا.

«يتكلم بيغن عن العداء للسامية الذي يزداد في العالم بأسره. الهدف هو تهجير اليهود إلى إسرائيل».

يرى زبدي أن هذا الأسلوب قابل للنقاش. لكنه لا يخفي احتقاره لليهود الذين يتكلمون بصوت عال خارج البلاد ولا يأتون إلى إسرائيل. عنده أقارب في باريس يعيشون في بحبوحة ويكتفون فقط بقضاء عطلة الصيف أحياناً في إسرائيل. أحدهم يملك فيللا في القيصرية. ومن جهتي أعرف محامياً يملك فيللا لا بأس بها وشقة في الحي اليهودي الذي أُعيد إعماره في القدس القديمة. وعندما يذهب زبدي كوهن إلى باريس لا يشعر بارتياح مع أقاربه الذين لا ينفكوا يتكلمون عن سياراتهم الجميلة وعن المطاعم الفخمة وعن تطلعاتهم ككادرات شابة. الشرخ هو في رأس زبدي.

إن أكثر ما يصدم الحمائم والمتعقلين ليس ضرب الماكينة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية. لقد تأكدت من هذه المسألة. إن ما حصل قد حصل. إن مبادرة بيغن ومخططه العسكري الوحشي كان بإمكانهما أنْ يفتحا باب التفاوض لو. . أن الأكثر خطورة هو تسخيف الحرب كوسيلة سياسية. «إن بيغن وشارون وإيتان هم أسيرو قوانين الحرب. سمعت ذلك أكثر من مرة. هل الاستراتيجية تقول بقصف بيروت؟ نقصف بيروت. فهذا أمر طبيعي في ما بين المتحاربين. هذا أمر جديد في إسرائيل». جديد وغير مسموح به بالنسبة لإفرام بورغ.

كان يجب إعطاء الكلام لإفرام بورغ بالوقت نفسه الذي تكلم فيه رجال الكتاب، كونه مؤمن ممارس، ويسعى جاهداً لأن يكون مواطناً يهودياً بحسب إيمانه. لكنه فوق كل ذلك فهو جندي. .

إن الشلل ضربه بنسبة ٥٥٪ على أثر حادث-وقع له أثناء هبوطه بالمظلة. لحق بورغ فرقته التي توجهت إلى لبنان. كان يريد أنْ يرى ويفهم. لقد فهم. عندما رجع حاول مع بعض رفاقه تحذير مناحيم بيغن من الفخ المنصوب له في لبنان ومن استعمال القوة. ولكن عبثاً. من هنا نشأت حركة «جنود ضد الصمت» التي جمعت بسرعة فائقة تواقيع عدة مئات من الضباط ومقاتلي الخطوط الأمامية. دعمت ألوية بكاملها إفرام بورغ ورفاقه.

«إن المظاهرة الكبيرة في تل أبيب بعد صبرا وشاتيلا كانت أكبر من توقعاتنا. إن حركة «جنود ضد الصمت» كانت إلى حد ما عامود النار الذي كان المرشد فيما مضى للشعب الإسرائيلي خلال عبور الصحراء».

بعد عدة أيام من لقائنا، جُرِحَ افرام بورغ في القدس بالقنبلة نفسها التي قتلت إميل غرونزويغ. كان يوسف بورغ من بين أعضاء الحكومة الذين كانوا يشاهدون من نوافذهم المعارك في الشوارع. يوسف بورغ هو والد إفرام.

تخصص إفرام أول ما تخصص في الدراسات الإفريقية ولكنه لم يلبث أنْ انخرط في الأعمال الصناعية. عمره ثمانٍ وعشرون سنة. عيناه زرقاوان. نظرته الحادة تنم عن أصول عريقة. يمكن التعرف عليه بسهولة في مترو في مدينة مرسيليا أو جالساً على مقعد في سان فرنسيسكو أو في وسط شاطىء في كوستا برافا في شهر آب. إن إفرام جميل للغاية.

«نعتقد نحن اليهود أن كل أرض إسرائيل هي ملك لنا. لا بد من ملاحظتين حول هذا الاعتقاد السائد. أولاً: ما من أحد يقول بأن حقنا في أرض الميعاد يجب أنْ يتحقق حالياً وفوراً. ما من شيء يمنعنا من انتظار ظروف أكثر ملاءمة. ثانياً: لا بد من الاعتراف

بوجود شعبين، الفلسطيني واليهودي، يطالبان بهذه الأرض بالاندفاع والحدّة نفسيّهما. كل فريق كان يتمنى أنْ تكون إسرائيل خالية من السكان. لكن الواقع هو غير ذلك. وكردة فعل ضدنا شكل الفلسطينيون حركة وطنية، وأصبح بالتالي الخيار سهلاً: سنظل نقاتل حتى يُدمر أحدنا الآخر؛ إما هم أو نحن، هذه طريقة متخلفة جداً لتبيان الحق. أو من الممكن أن نفتش عن تسوية مع العلم بأن هذا الحل ليس محبباً جداً».

داخل هذا المنطق الميكانيكي الشرس يوجد شيء تلمودي. تلمودي هو أيضاً مثل التاليت الذي يستشهد به إفرام بورغ. التاليت هو الشال المطرز الذي يضعه المصلّون على أكتافهم أثناء الصلاة. يجد رجل يهودي تاليت متروكاً على قارعة الطريق، يلتقطه. في هذه الأثناء يصل يهودي آخر ويطالب بالتاليت على أنه ملكه، ينشأ نتيجة ذلك خلاف بين الرجلين. أعطى حاخام القرية رأيه: «إن من يطالب بالنصف سيحصل على الربع ومن يطالب بالكل سيحصل على النصف». ولا تقول القصة ماذا فعل الحاخام بالجزء الرابع. .

«لا بأس من التفاوض بتشدد يُعلق إفرام بورغ. فالتشدد لا ينقصنا. ولكن يجب التوصل إلى القسمة. بيغن يمثل هذا الجزء من إسرائيل الذي يطالب بالكل مهما كان الثمن. رفاييل إيتان قائدنا السابق وجد حجة معبرة لتبرير اقتحام بيروت: «يجب الدخول إلى لبنان وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية وترسانتها العسكرية والقبض على زعمائها. هذا هو السبيل الوحيد لكي تبقى يهودا والسامرة من الأراضي الإسرائيلية». فقد كان من الأجدى إعطاء ضمانات للزعماء المحليين والمخاتير في الضفة الغربية لأنهم أكثر واقعية من الزعماء السياسيين الموجودين في المنفى. ولكن، اليمين يفتش ويجد في تاريخ إسرائيل سوابق تبرر اللجوء إلى العنف. إن حرب لبنان هي انتقام أشعيا الأشعر».

«أنت تعلم كيف سرق يعقوب من أخيه بركة إسحاق الأبوية. قال إسحاق لأشعيا «ستعيش بفضل سيفك». هذه البركة الملعونة لا تنفك تتسرب من الباب الخلفي. فهي تبرر الحرب وأنا كأحد أحفاد يعقوب أعيش بفضل السيف. أرادت الصهيونية أنْ تجعل منا أمة بين الأمم وأن تكون ساعدنا قوية. ولكن عندما تضيع المقاييس تضحي إسرائيل باليهودية على حساب الصهيونية مما يُعرضها لخسارة كل شيء بما في ذلك الصهيونية بالرغم من ساعدها القوية».

بالنسبة لإفرام بورغ ولبقية الإسرائيليين الذين تكلموا معنا عن التوراة علينا أنْ لا نقع في تفسيرات خاطئة سهلة. فالدولة موجودة منذ أقل من أربعين سنة، وحوالى نصف سكانها ولدوا في الخارج. تشكل التوراة مرجعاً القصد منه وطني أكثر منه أسطوري.

فبورغ هو على عكس المتعصب المتحجر تماماً ولكن بما أنه مؤمن فهو يستعمل التوراة كمرجع لتحديد خصوصية شعبه الذي يضع رسالته الأخلاقية في مكان عال جداً.

«باستطاعتنا أنْ نجد كل شيء في التوراة، حتى التبريرات لاستعمال القوة. لكن التلمود لا يميّز بشكل تلقائي بين الخير والشر وبين الصح والخطأ. فالإنسان حرّ في اختياره. إن دولة إسرائيل الفتية تنسى اليوم أن الذي أمّن لنا ديمومتنا هو كوننا مختلفين. فنحن أحفاد ستين جيلاً، انتشرت خلال العصور في ثلاثين ثقافة وتحاول جاهدة أنْ تلد حضارة جديدة. فكإسرائيليين لم نتجاوز سوى قليلاً الثلاثين سنة. ومنذ هذه الفترة ونحن في حالة حرب. نستعمل الجيش كأداة سياسية عادية وذلك على طريقة أشعيا وليس على طريقة يعقوب. صحيح أنّ إسرائيل تدّعي المحافظة على نظافة أسلحتها التي لم تُلطخ بدم النساء والأطفال، وهذا هو خبث الحرب بعينه. إن قداسة الأسلحة وطهارتها مسألة مشكوك بها. لم نتملك بعد استعمال الأدوات السياسية».

«إنه من الخطورة بمكان دمج السياسة والدين؛ اللهمّ إلّا في ما يساعد على الفهم بشكل أفضل وعلى التساءل بشكل أعمق. ليس الغرض من هذا الدمج الانقضاض على العدو شاهرين أسلحتنا».

إن موضوع الفصل بين الكنيس والدولة إذا ما سمحت لنفسي أن أعالج هذه المسألة بعقلية أوروبية، فللبر وفسور ليبوفيتز كلمة صريحة في هذا الموضوع.

«إن العودة للتوراة يضيف إفرام بورغ لقصف بيروت وضم الضفة الغربية بالقوة هي الوسيلة الأكيدة لتعميق الشرخ بين اليهود. إن صورة رجال الدين عند أنصار العلمانية في إسرائيل ليست صورة رائعة. إن المساومات السيئة لا تقدم أي حل ولا عناد بيغن يساعد الإسرائيليين على السير كما في زمن يوشاس. لا بد في يوم من الأيام من التعامل مع التعددية الدينية داخل اليهودية: متشددون، محافظون مجددون.. إذا كانت خدمة مشروع سياسي تتطلب تأجيج هذه القوى فستكون النتيجة انفجار كل شيء.

- إن تدخل رجال الدين المتعقلين والحركات مثل حركة «دروب السلام» ضد المتطرفين هي مسألة جديدة في إسرائيل. فهل يكفي هذا لمواجهة استعمال القوة؟

- في المدى المنظور أكيد أن هذا لا يكفي. لقد سبقنا الوقت. الضفة الغربية ضُمت بالقوة. إن ديماغوجية الليكود هي التي تسيطر حالياً. يلزمنا شخصية وطنية قوية تملك أفكاراً جديدة لتستطيع من خلالها تحويل هذه الانفعالات التي أصبح من الصعب إخمادها. يلزمنا ديغول.. يلزمنا رجل حكيم لم يتورط في هذا المأزق. إن رجلاً ماكراً يمكنه أنْ يُخرجنا من هذه الورطة شرط القبول بالتضحيات. في الحقيقة إن تغيير الرأي

العام مسألة سهلة جداً. أنظر. لقد قَتَلَ السادات أثناء الحرب من الشباب اليهودي أكثر مما كان يحلم أنْ يقتل عرفات بقنابله. أصبح الآن بطلاً في إسرائيل. سيصبح وزن رجال الدين المتعقلين على المدى البعيد أكبر. فالصقور لم تعد تستأثر بالتوراة والحرب المقدسة لم تعد بالنسبة للمؤمنين الحل الوحيد. إننا نساهم في جعل الأمل بالسلام مسألة شرعية حتى عند غير المتدينين».

إفرام بورغ لم يحدثنا سوى قليلاً عن الحرب في لبنان لكونه منشغلاً في فهم ما يجري حوله. إن ما قاله بشكل عرضي يلتقي مع ما سمعته من غيره إلّا في ما يتعلق بنقطة واحدة. كان إفرام يعتمر قبعته العسكرية ويحمل سلاحه عندما مَرّ في أحد الشوارع. رفع ولدٌ صغير عمره عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة يديه المفتوحتين.

«تذكرت صورة ولد آخر واقفاً أمام الجنود، أخذها أحد الجنود الألمان في بولونيا. المسألة هي فقط مسألة تشابه، ولا معنى لها إلّا في عقلي. ومع هذا خُفت. فجأة قلت للولد أن يُنزِل يديه».

من الممكن أن يكون الولد خبيراً باستعمال بندقية الكلاشينكوف..

«أيتها الطائرة العزيزة أنا بانتظارك
غطي في هذا الحقل
وخذينا بعيداً عن لبنان
حيث نحارب لشارون
سنعود إلى بيوتنا داخل نعش..».

هذه العدّية الصبيانية والمحزنة التي كان يُرددها بعض الجنود في إحدى قرى الشوف. سَمِعَتْ صداها آذان الإسرائيليين. سببت هذه العدّية مشاكل كبيرة لدان شماما المعلق التليفزيوني وابن أندريه شماما الذي كان لفترة طويلة مراسل جريدة الموند في القدس.

«بكل تأكيد هناك مشاكل سياسية في التليفزيون: فكل الحكومات لها مشاكل مع التليفزيون والعكس بالعكس. كان يوجد مشاكل أيام حزب العمل. فالعمال هم الذين منعوا برنامجاً نقدياً شهرياً ونعتونا نحن الصحافيين بالمتطرفين اليساريين. لكن في تلك الفترة كان المسؤولون عنا أشد حزماً ولا يقبلون الإهانة بسهولة. أتذكر الجنرال موتاغور إحدى الشخصيات الوطنية البارزة، كان عليه أنْ يقوم بمقابلة مباشرة على التليفزيون. عندما وصل إلى الأستديو طلب بأن يطلع على لائحة الأسئلة. مستحيل. تكهرب الجو.

«إذا كان الأمر كذلك سأنسحب.. إلى اللقاء ياموتا» أجابه المسؤول عن القناة. لم يعد هذا الأمر وارداً في الوقت الحاضر. فالليكود هو أكثر شدة. نتيجة ذلك ترك عدة صحافيين التليفزيون.

- هل هناك رقابة ذاتية؟

- كي نتقي شرهم، نتخلى بكل بساطة عن بعض الريبورتاجات. فمنذ ستة أشهر، لم يسمع أحد ريبورتاجاً ذا قيمة في الأراضي المحتلة، مع العلم بأنها قضية حيوية أليس كذلك؟ يسمح لنا فقط بتصوير المخاتير الفلسطينيين في الضفة الغربية من دون إجراء مقابلات معهم. «إنهم يؤيدون منظمة التحرير الفلسطينية ولن نعطي الكلام للذين يقتلون الأطفال يمنع منعاً باتاً التدخل في أمور خطيرة».

إن تضخيم الأمور ليس الأسلوب المفضل لدى شاماما، بل بالعكس. إن قضية المخاتير الذين يؤيدون المجرمين هي قضية أساسية. مما لا شك فيه أن السلطات المحلية في الضفة الغربية تتجذر وطنياً كلما اشتد الضغط عليها مع العلم أن اعتدالهم النسبي وانفتاحهم على الحوار مسألة معروفة.

«أنت تعلم بأن المحامي آمون زيشون قد قدم شكوى أمام المحكمة العليا، يطالب فيها: لماذا هو كمواطن إسرائيلي يعتبر غير راشد في معرفة المشاكل التي تعنيه مباشرة. أكيد أن المحكمة العليا ستعطيه حقاً. عندئذ يمكننا العمل وقول الحقيقة للناس.

- كنت أعتقد دائماً أن التليفزيون الإسرائيلي هو حرّ إذا ما قورن بالتليفزيون الفرنسي مثلاً!؟.

- ما همني من التليفزيون الفرنسي أو الغواتيمالي. أنا لا أقارن. لدي قناعاتي كمواطن وصحافي. حين اتصل بي عرفات في بيروت معلناً عن رغبته في إجراء مقابلة، كنت أعلم أنه عدونا وبالتالي لن أنجرّ لعمل كهذا. ليس المطلوب القيام بسبق صحفي. بالعكس عندما يقول عرفات اليوم بأنه يريد الكلام مع الإسرائيليين والأميركيين، عليّ أنْ أعرف ماذا سيقول. على الصحافيين أنْ يناقشوا ويقرروا. إذا كانوا غير جديرين بتحمل المسؤولية، فما الجدوى من استخدامهم في التليفزيون؟!».

«هل ثمة شيء أهم بالنسبة لنا وبالنسبة لمستقبلنا أكثر من الضفة الغربية؟ نحن نعيش في ظل ديمقراطية. أريد من والدتي أنْ تعي أبعاد مسؤوليتها عندما تقترع. فالمسكينة تتصور أن لا شيء يحصل في الضفة الغربية منذ ستة أشهر، لأن التليفزيون لا يغطي أخبار هذه المناطق».

«بعد صبرا وشاتيلا قال الكتائبي مخائيل أمام التليفزيون إنه أحد الذين نظموا

المجزرة. سرّ هذا الكلام حتماً أوري دان الناطق باسم شارون. حينها نظروا إليّ كصحافي مدهش والأخبار التي أنقلها هي أخبار جيدة. أما أغنية الطائرة والنعش فهذا عمل مشين لا يقوم به إلاّ صحافي رديء. هل يجب على الإعلام أنْ يكون منحازاً؟»

حول الظروف التي رافقت مسألة النعش، يظل شاماما غامضاً، وذلك لأسباب معروفة. أما رفاقه فلم يشعروا بنفس التحفظ، لذلك جاء كلامهم أكثر وضوحاً منه.

إن مهنة المراسل العسكري في لبنان أصبحت صعبة. يمنع منعاً باتاً إجراء مقابلات مع الجنود حول الشكوك التي تساورهم وحول رأيهم بالقيادة العسكرية. إنه أمر طبيعي في كل مكان أثناء الحرب. لكن في إسرائيل، العادات مختلفة لأن إجماع المقاتلين المؤمنين بصوابية حقوقهم ظل حتى اليوم لا تشوبه شائبة.

وصل شاماما إذن مع مجموعته إلى تلك القرية في الشوف حيث يتقاتل الدروز والكتائب. في الوسط كان جيش الدفاع الإسرائيلي. ليس بوسع أحد أن يدّعي أو ادعى أن شاماما قد «ابتز» الجنود لصالح قضيته وهو يصورهم: فالصوت والصورة لم يكونا حتى متزامنين. ولكن ما الفرق طالما الأغنية قد سجلت على الهواء؟!. في القدس لم يعلق المراقبون العسكريون الذين يدققون بالأخبار قبل خمس دقائق من إذاعتها. فأغنية الطائرة تنشد في جميع روضات إسرائيل.. ولكن من دون ذكر شارون والنعش. ربما كان على المراقبين أنْ يكونوا أكثر حذراً.

بعد نقاشات طويلة وحادة عُوقب شاماما بشكل رمزي لكونه حاول التملص لبضع دقائق من إلحاح الضابط الصحافي المسؤول عنه. فتهمة التعرض للجيش أثناء الحرب لا يمكن السكوت عليها في إسرائيل..

لم ينزلق دان إلى إطلاق التصاريح في الصحف التي فتحت صفحاتها له. فأقصى ما كان يمكن أنْ يحصل عليه هو ضجة لا تلبث أنْ تتلاشى بعد فترة. إنه يفضل متابعة عمله كما يتصوره، أي بكل جدية. فأحد الريبورتاجات الأخيرة التي كتبها أثار ضجة كبيرة: نشاهد شيخاً درزياً في طريقه إلى البنك لسحب بعض الأموال برفقة دبابتين إسرائيليتين لحمايته.

«الخروج من لبنان فوراً؟ أعتقد أنه مطلب انفعالي إلى حد بعيد. أنا شخصياً لم أوافق على الدخول إلى لبنان. أما الآن وقد وقعت الواقعة، فمن الصعب محو أثارها بإرجاع عقارب الكرونومتر إلى الصفر. إضافة إلى ذلك لا أحد يدري ماذا ستكون نتيجة كل ذلك. لقد وقعنا في ورطة كبيرة».

بالرغم وبسبب «غلطته» دان شاماما هو من أكثر المراسلين العسكريين شعبية في

إسرائيل. فكلامه الذي سنورده بعد لحظة قاله قبل تنحية آرييل شارون النسبية عن وزارة الدفاع.

«لم يعد أحد يؤمن بشارون. لقد انتهى. كذب كثيراً. حين كنت أشاهد ـ ولم أكن الوحيد ـ فرقنا العسكرية تتقدم نحو الشمال، كانت الإذاعة تعلن على الملأ أن هناك وقفاً لإطلاق النار. لم نتعود كغيرنا أنْ ننخدع من رؤسائنا. غابت الثقة كلياً. فهي كل؛ فإما أن تكون أو لا تكون. لم يصدق الضباط كيف أن التلاعب بهم ذهب إلى هذا الحد من الوقاحة. بعد الشهادات التي أدلى بها شارون أمام لجنة كاهان، عمّ الخوف داخل الجيش. إنها المرة الأولى التي يحاول بها قائد أنْ يتهرب من مسؤوليته والتخفي وراء مرؤوسيه. يطالب الضباط حالياً بأن تكون الأوامر خطية والمستندات موقعة قبل القيام بأي عمل. يرسل الضباط البرقيات إلى القيادة: «إحذروا من الممكن أنْ تحصل مشاكل في هذه القرية» ويحتفظون بنسخة عن البرقية. لا أحد يعرف كيف تنقلب الأمور. إن كابوس وقوع صبرا وشاتيلا جديدتين لا يزال عالقاً في أذهان الجميع. أعرف، بعض الضباط الذين يستشيرون محامييهم عندما يأخذون مأذونية. إن قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي فقدت مصداقيتها التي كانت في أساس قوتها».

قُتل لنا حوالى ٥٠٠ جندي بالإضافة إلى الضحايا المدنيين. ويضاف إلى ذلك استقالة إيلي جيفا وتزعزع معنويات الجيش... من حقنا أنْ نتساءل: فهل بالفعل كان مصير إسرائيل على المحك؟ وهل يحق للحكومة المُنتخبة أنْ تُوصلنا إلى ما وصلنا إليه؟ حلت فكرة التصفية مكان فكرة التسوية. إن الذي حصل هو بالفعل تبدل أخلاقي كبير. إن كل ما فعله شارون كان لأغراض شخصية كي يدخل التاريخ ولم يفعله من أجل سلامتنا الحالية أو المستقبلية. في خضم الهجوم صوّرنا شباناً لبنانيين يتشمسون على الشواطىء. فهل من أجل هؤلاء يُقتل شبابنا؟ الناس تتساءل هل ذهاب جنودنا إلى لبنان كان الغرض منه مساعدة الكتائب بالدخول إلى صبرا..؟

ـ خلال الريبورتاجات التي قمت بها هل رأيت الجنود؟ كيف كان تصرفهم؟

ـ مثل الشهداء، إنهم شبان رائعون. لقد تلقوا الأوامر بعدم إطلاق النار على المدنيين. لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى تلك الأوامر فهي محفورة في قلوبهم»..

«شاهدت بالقرب من صيدا ستة جنود بالقرب من عربة مجنزرة. كان القصف يطال كل الأمكنة. ثم وصلت إلى المكان سيارة مرسيدس كانت تسير ببطء. صوّب الجنود بنادقهم نحوها؛ حين رأوا امرأتين داخل السيارة لم يطلقوا النار. فجأة فتح شاب كان يختبىء وراء الامرأتين النار. قُتِلَ الجنود الستة. شاهدت أيضاً مظليين تتراوح أعمارهم ما

بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة يتقدمون بعد قتال عدة أيام من غير مؤونة أو قوت. كانوا يطلقون النار، ينامون قليلاً ثم يطلقون النار من جديد. حاولت أن أكلمهم. كانوا شبه غائبين عن الوعي. «هل قتلت أحداً؟ أتركني، أتركني..» كان بينهم شاب رائع من فرقة الكومندوس متخصص في استكشاف الخطوط الأمامية. كان يسير وحده أمام الدورية. حاولت جاهداً أنّ أكلمه ولكن عبثاً. لم يكن بين هؤلاء الجنود أي واحد حاول التبجح ببطولته أو إظهارها».

بالرغم من كل ذلك، لا أعتقد بأن الصحافة الإسرائيلية على العموم لم تكن منصفة تجاه شارون. لقد كانت متحيزة بشكل دائم ومستعدة لاستغلال كل شيء باتجاه واحد. لم أكن أوافق على ذلك. علينا أنْ لا نخلط بين الإعلام والمعارك السياسية».

يذكرني أومير بارليف بإفرام بورغ بثياب البلوجينز التي يرتديها في شقته الصغيرة في دوف هوز في تل أبيب. جميل وعيناه تلمعان. بارليف ليس بعسكري ولا بسياسي كإفرام. فهو خجول لا يبوح بكل ما يعرفه. هل المسألة هي مسألة عقلية؟ إنه نقيب من فرقة المظليين وقد مضى عليه في الخدمة العسكرية خمس سنوات، خاض حرب لبنان.

عندما يُحرض افرام بورغ «جنود من أجل السلام» أو عندما يتكلم في التليفزيون، أو عندما يتظاهر ضد شارون فلا ينزعج لكون والده وزيراً للداخلية في حكومة بيغن. فلا يتوقف كثيراً عند المسائل الشخصية بالرغم مما تتناقله الألسنة الخبيثة ويتابع طريقه التي لا يحيد عنها. أما أومير فهو ابن أبيه الشخصية المرموقة: إنه صديقي القديم الجنرال حاييم بارليف قائد القوات الإسرائيلية والوزير السابق والسكرتير العام الحالي لحزب العمل. لم يتجاوز أومير الخامسة والعشرين. وينتمي ووالده إلى الاتجاه نفسه، كل بحسب طريقته الخاصة. لديه نقاوة المقاتلين وصعوبة البوح عن كل ما لا يمكن وصفه والذي كلمنا عنه شماما.

«كانوا يملكون ترسانة تعج بالأسلحة. لكن هل كان علينا الذهاب حتى النهاية؟ هل كان يجب أن نقصف المدنيين وأن نموت من أجل بيروت؟ كنا نتساءل هل كان أمن إسرائيل على المحك فعلاً أم أن المسألة تخضع لأغراض سياسية فقط؟ فضّل الأصغر سنّا عدم الخوض في هذا الموضوع. بدأنا نشكك بكل شيء وذهب بنا الشك إلى اعتبار دولة إسرائيل غلطة من الأساس كان يمكن الاستغناء عنها.

ـ هل عرفت شيئاً عن فلسطيني منظمة التحرير أثناء الحرب؟

ـ إنهم مشبعون بالروح الوطنية. أحياناً كانوا يهربون من أمامنا وأحياناً أخرى

يقاتلون بشراسة لا توصف، حسب الظروف.

- هل جميعهم من الإرهابيين؟ أو أن هناك جنوداً مثلك؟

- إنهم إرهابيون عندما يتسنى لهم ذلك. يعتقدون أنهم على حق. من الممكن أنْ لا يكونوا جميعاً من الإرهابيين. إرهابيون أو غير إرهابيين، فالمسألة هي محض سياسية وطريقة قتالهم تختلف عن طريقتنا، وظروفهم هي غير ظروفنا. . . هذا كل ما أعرفه.

- هل كان تصرف اليهود الشرقيين متميزاً؟

- لا أعرف، اليهود الشرقيون هم أقلية في الوحدات المظلية. أكثر ما أدهشني هو ردة فعل رجال الدين. عندما تسمع جندياً وهو يعتمر الكيبا (قلنسوة) يتساءل عن شرعية القتال الذي يخوضه اليهود ولا ينسى أنْ يعترف بحقوق الفلسطينيين على هذا الجزء أو ذاك من الأرض الإسرائيلية. حين تسمع ذلك لا تصدق أذنيك.

- ما مدى تأثير صبرا وشاتيلا على المظليين؟

- كالصاعقة. كثيرون منا فتحوا فجأة أعينهم وأدركوا أن هذه المجازر هي النتيجة المنطقية لدخولنا إلى لبنان. ليس من السهل بالنسبة لنا أن نشفق على الفلسطينيين ولكن هذه المرة يبدو أن الأمر كان مخططاً له. يجب أنْ لا نتوهم: إن القنابل والمتفجرات الإسرائيلية قتلت من النساء والأطفال أكثر بكثير مما قتل الكتائب في صبرا. ما الفرق؟ إن النقاشات داخل الجيش تشبه النقاشات التي يقوم بها المدنيون مع الفرق بأننا من جهتنا كنّا نتناقش في المواقع الأمامية. إنها مسألة خطرة: إن الجندي الإسرائيلي الذي لا يعرف أسباب اشتراكه في المعركة بشكل واضح كل الوضوح هو جندي معدم. لكن في خضم الحرب لا مجال لمناقشة الأفكار العامة؛ أسئلتنا كانت أبسط بكثير وأحياناً صبيانية. عند مرورنا بالقرب من بستان ليمون ونحن عطشى فهل يحق لنا بقطف ليمونة؟ في إسرائيل هذا مسموح. ولكن هناك لا ندري. هل تعتبر سرقة أكل هذين الفرّوجين الضائعين بين خرائب إحدى القرى؟ عادة في حال الشك نفضل تجنب هذه الأمور».

«كنا نخاف جداً من أن نصبح جنوداً عاديين».

«هل كان أومير في موقع المدافع برأيك؟ لا، والسبب لا يعود إلى الخجل أو إلى كونه لا يريد أنْ يحشر والده. لقد أثرت أحداث لبنان فيه بشكل كبير. ويجد صعوبة كبرى في التعبير عن جميع أفكاره أمام شخص غريب لأن هذه الأفكار متطرفة جداً. إن البوح بكل شيء بالنسبة إليه هو بمثابة تقديم الذخائر لإطلاق النار على إسرائيل. فالحياء يلجمه. يناضل في حركة «لكل شيء حد» التي تضم العديد من الضباط والجنود الذين

يعارضون الحرب في لبنان كما يعارضون اللجوء إلى السلاح كحل وحيد. ألم يقل لك ذلك؟

لا لم يقل لي ذلك. .

تامار امرأة شابة تتميز بسحر برّاق لا يظهر بسهولة. لا يؤثر عليها الخجل كابنها. . بل بالعكس، إن الغضب هو الذي يخنق زوجة الجنرال بارليف التي قلما تتأثر بالتقاليد الديبلوماسية. لم تنسَ تامار أنها أثناء حرب الاستقلال، حاربت في البلماح (فصيل يساري في الهاغانا) هناك تعرفت على زوجها.

حين تغضب تامار أو تشعر بالألم فلا تخفي ذلك أبداً. إن صراحتها معروفة في إسرائيل كما هو معروف اعتدال الجنرال الذي يتكلم في جميع اللغات ببطء متناهٍ. خلال المؤتمر الأخير للأممية الاشتراكية الذي عقد في لندن والذي مثل فيه حاييم حزب العمل الإسرائيلي، قامت تامار بعمل لا يمكن أنْ يُنسى. في الكواليس كانت تردد لكل من أراد سماعها أن أعضاء حزب العمل هم من الانحلال لدرجة لا يمكنهم القيام بهجوم جريء على ديماغوجية الليكود. كان حاييم يرفع عينيه إلى السماء ولكنه يتركها تسترسل.

«هل تتذكر يوم أطلق مجنون النار على ساحة جامع الأقصى في القدس وقتل على أثرها عربيين؟ كنت أتكلم عن هذه الحادثة بعد عدة أيام مع امرأة من أصل عراقي كانت من تلميذاتي السابقات، فتاة مهذبة. قالت لي: للأسف إنه لم يقتل سوى اثنين. .» لم أنتهِ بعد. منذ ثلاثة أشهر قمت بدعوة الأطباء في قسم الجراحة حيث عُولج حاييم بعد حادث الحصان الذي تعرض له. نعرف هؤلاء الأطباء منذ مدة طويلة. أحدهم كان معنا في البالماخ. جميعهم يقترعون لحزب العمل. لا أتذكر كيف جرّنا الحديث للكلام عن الرأي العام في إسرائيل. ذكرت أمامهم ردة فعل تلميذتي القديمة. الغريب أن الأطباء الثلاثة كانوا يتفقون معها في الرأي. أحدهم، الذي كان معنا في البالماخ تفوّه بهذه القذارة التي تدور في رؤوس كثيرة ولا يجروء سوى القليلين على البوح بها: «إن العربي الطيب هو العربي الميت. .» طردت الأطباء. لن تطأ أقدامهم بيتي بعد اليوم».

«ليس هذا تفكير جميع الناس في إسرائيل. ولكن علينا أنْ نعترف بأن الأفكار اليمينية تشق طريقها لأنه لا يوجد شيء يحل محلها. إن الهوة بين الناس تتعمق، فهي تطال جماعة البالماخ وحزب العمل والهستدروت والليكود أيضاً».

«لبنان هو الذي عمّق الهوّة. يكفي أن تفكر قليلاً حتى تدرك أن اغتيال الدبلوماسي الإسرائيلي في لندن لم يكن سوى ذريعة للهجوم. إن هؤلاء الأغبياء في منظمة التحرير الفلسطينية وقعوا مرة أخرى في الشرك. شارون يشبه هتلر بتهديداته المجنونة والمجرمة.

يمكنك تسجيل كل شيء مع ذكر اسمي. نحن نعرف شارون منذ مدة طويلة في أوساط الجيش. إذا كان الشباب أمثال أومير يرفضون الكلام فنحن نعرف السبب. هناك أشياء كثيرة يجب قولها. كموت الكثيرين من رفاق أومير بالقرب منه..

«إن الذين لا يجرؤون على الوقوف بوجه ما يحصل، يتشددون، يهربون إلى الأمام كي لا يُخالجهم الشك كالأطباء الذين أسلفت ذكرهم. والباقون. فالوضع محزن. الأكثر شجاعة يقاتلون مثلما يفعل بورغ وجيفا وميرون بنفنيستي ومثل الذين تعرفهم. إن غالبية الذين يعانون من الوضع القائم الذي خلفه بيغن لم يعتزلوا كلياً. إنهم كما يقال بانتظار مجيء المسيح. عندما اندلعت الحرب كان شاب أعرفه في لندن. من الطبيعي والحالة هذه أنْ يعود في أول طائرة. لكنه لم يفعل. بقي في لندن. هناك عطب ما. من يعيد إلينا إسرائيل التي يدمرها بيغن والمجانين الذين يبتزهم؟».

تُعتبر تامار باروليف نموذجاً إسرائيلياً مؤتمناً على قيم الصهيونية العالمية، لكنها في الوقت نفسه تتساءل عمّا إذا كانت لا تزال إسرائيل وطنها.

في جامعة رامات أبيب قال لي بيريز إلى أي حد عمّقت الحرب الخصومات، وكيف أن أنصار الأكثرية الحكومية شدّدوا مواقفهم بوجه الانتقادات الراديكالية التي تخطت البُنى البرلمانية. الأحداث تخطت جميع الأحزاب: تحولت البلاد والجيش إلى حلبة مصارعة. كل التحاليل كانت تصب في الاتجاه نفسه.

في بيت سوكولوف في تل أبيب حيث المركز الصحفي يمكن اللقاء بجميع الناس. هناك التقيت بآموس كنان وصديقه بن بورات. شاهد الاثنان أموراً كثيرة، وكتبا عن أمور كثيرة؛ بحيث لم يعد الوهم يركبهما. حماستي لدراسة الشرخ في إسرائيل أضحكتهما وبالوقت نفسه أنعشتهما. فهما داخل الشرخ بحيث يعتبرانه كعملية فصل تهكمية على طريقة الجراحين المُسنّين الذين سئموا كل شيء ولم يبقَ لهم سوى ضميرهم المهني.

«قلما يهتم أصحاب المحلات بلجنة كاهان، فالذي يشغلهم هي البورصة. يجب أنْ تكتب كتاباً عن البورصة..».

يشرب كنان جرعة من الويسكي: «الكتائب يقتلون الفلسطينيين؟ أمر جميل. الصهيونية كانت دائماً غير عادلة، أحياناً أكثر، أحياناً أقل.. القوة لا تُحتمل!».

«لبيغن شعبية واسعة لأنه يقدم للإسرائيليين فرصة تحقيق حلم البرجوازية الصغيرة على الصعيد العالمي: تملّك بيتاً في الريف بسعر معقول. أن يكون البيت في الأراضي المحتلة، فهذا تفصيل لا أهمية له. صاحب الأرض غير راضٍ؟ الضفة الغربية في حالة غليان مستمرة؟ ما همّ، لا يزال جيشنا قوياً».

ينهي البروفسور شاوول فريدلندر محاضرته حول السلام في الشرق الأوسط التي أقيمت في فندق موريـاح في تل أبيب: «الصهيونية تريد أنْ تكون براغماتية. وبعض البراغماتيين ميولهم متطرفة والبعض الآخر معتدلة. إننا نشهد حالياً مواقف متطرفة في ما يتعلق بالأهداف والوسائل. من سيربح؟». شاوول فريدلندر ليس مقتنعاً بأن الرياح مؤاتية لأنصار المساومة. فكلمة مساومة رمادية وفاترة بالكاد تسمع حين تعلو الضوضاء في الشارع.

٢

قلوب طيبة ورؤوس يابسة

مَثَلُ التاليت(*)

الموسيقية الشقـراء. هذا أيضـاً لقاء من اللقـاءات العديـدة التي كنت أقوم بهـا بين موعد وآخر.

تعرفت في الفندق على شخص من مقاتـلي ١٩٤٨ يثير الشفقـة. جاء من ألمـانيا إلى بلده الذي أصبح غريباً عنه. نال عدة شارات من الهاغانا والبالماخ. محاربنا القـديم كان شيوعياً ويعتقد أنه لا يزال. في منهايم تعـرف على الفتـاة الشقراء هـيفـزيبـا التي جـاءت لتتـابع الـدروس على الفلوت(**). ومن وقت لآخـر كانت تعمـل كدليـل لهـذا المتقـاعـد العجوز في تل أبيب. بعد جهد تكلمنا.

«لم تتجاوز أختي الصغيرة السادسة عشرة. لو كان عمرها يسمح لها لكـانت أنتخبت غولا كـوهن وحزب تحيـا».

إن حـزب تحيا من أصغـر الأحزاب التي تقف عـلى يمين الليكـود؛ اليمين القـومي المتجانس القوي الـذي يتكون من أكثـرية شـرقية والـذي يعرف مـاذا يريـد ويقول رأيـه بصراحة متناهية. إنهم الصقور التي تطير عالياً.

«إنهم صادقون في حزب تحيـا وليسـوا سياسيـين. أنا معجبـة بهم. في ١٩٨١ حين اقترعت لأول مرة فضلت حيروت حزب بيغن لفعاليته. كثيرون من اليهود الغربيين فعلوا مثلي؛ غالبية أصدقائي: غولا كـوهن ونعـمـان همـا على حق. لقـد خيّب اليسار آمـالي.

(*) شال من الصوف.

(**) آلة موسيقية تشبه الناي.

أنظر إلى عملية السلام مع مصر التي من أجلها قدمنا تضحيات كثيرة؛ أنظر كيف تتراجع».

هل من الضروري التذكير بأن بيغن شاء أم أبى هو الذي قبل بانفتاح السادات، والتخلي عن سيناء!؟ ليس هذا هو المهم. كل تنازل هو يساري بالمعنى الميتافيزيقي.

«فشيمون بيريز يبدو لطيفاً هكذا. ولكن كل ذلك كي يظهر بمظهر لائق في الخارج، يظن بأنه إذا تملّق للأميركيين يمكنه بمساعدتهم استعادة مركز رئاسة الوزراء. من الأساس أنا معجبة ببيغن. إنه وجه وطني كبير.

- على أي صعيد؟

- نزيه ومستقيم ونبيل، بالإضافة إلى كونه كان قائد والدتي في الأرغون أثناء حرب الاستقلال».

الأرغون هو تنظيم يميني متطرف شبه عسكري، لم يتردد كالشتيرن باللجوء إلى الإرهاب ضد البريطانيين والعرب. الأرغون الذي كان يقوده مناحيم بيغن هو المسؤول بشكل مباشر عن العمليات الدموية التي شُنت ضد دير ياسين القرية العربية. في أكثر من مرة كادت الحرب الأهلية أنْ تقع بين الأرغون والهاغانا التي كان يتزعمها بن غوريون.

«إن أعضاء حزب العمل لا يفكرون إلّا بالحفاظ على مقاعدهم النيابية. لا مثال يحتذى لديهم. لقد فقدوا الحمية بعد عدة سنوات في الحكم. غالباً ما تقترع الناس لفلان وذلك لمعاقبة علان. من جهتي أريد أنْ أُبدل، أنْ أحاول شيئاً آخر، إلى أنْ تتوضح كل الأمور. ولا تنسى، يجب أنْ ندافع عن أرض إسرائيل».

- لماذا الأرض؟ إسرائيل موجودة..

- لأسباب أمنية. هذا تراثنا. أبي وكثيرون غيره قدموا دماءهم في يهودا والسامرة. إن التنازل عن الأراضي هو رهان مستقبلي خطر. في الحقيقة أنا أؤيد التفاوض كي نضع حداً للكراهية والحرب. ولكن حين أُفكر ملياً بهذا الأمر أخاف خوفاً شديداً.

- ألا تخافين من أنْ يؤدي فقدان الأمل عند الفلسطينيين إلى المزيد من الإرهاب؟ وبالتالي أنْ يتحول أولادكم في المستقبل إلى شرطي دائم؟

- شرطي قمعي لا أظن. فهذا مناهض لعقليتنا. لا أحد في إسرائيل يتمنى أن يصبح هكذا. ولكن إذا كان الأمر ضرورياً لبقائنا فيجب.. خلال خدمتي العسكرية، كنت مُكلفة بالإضافة إلى فتيات أخريات، مراقبة العرب الذين يقطعون نهر الأردن على جسر أللنبي. إننا نحب الطلاب العرب كثيراً ونساعدهم عند الحاجة. لكن السياسة يجب أنْ لا تتوقف عند العلاقات الشخصية ولا تؤخذ بالعواطف».

«درست خلال سنة بكاملها الموسيقى في ألمانيا في منهايم. أثناء وجودي هناك دُعيت إلى مظاهرة دعم للشعب الفلسطيني كما يدّعون. نعتني الطلاب العرب وبعض الألمان بأنني نازية. انزعجت جداً وكنت خائفة. إن سوء التفاهم مع أوروبا أضحى سوء تفاهم كامل. علينا أنْ لا نعتمد إلّا على أنفسنا.

- وعندما ينعت بيغن المقاتلين الفلسطينيين بـ«الحيوانات التي تسير على قائمتين» فهل هذا يعني أنه بالإمكان إبادتهم دون أي شعور بالذنب؟.

- أنا أوافق على ذلك. ليس لديهم ضمير. تصرفهم تصرف حيواني. إطلاق النار ببرودة أعصاب على الأبرياء. إذا فاوضنا المجرمين نعطي شرعية للإرهاب. بيغن على حق حين ينعت العرب بالوحوش؛ على الأقل الذين يقاتلوننا وليس المسالمين منهم. لم يكن الإنكليز أكثر ليونة مع أعدائهم في الفوكلند، أليس كذلك؟

هيغزيبا فتاة شابة لطيفة. ليست ذكية ولا مثقفة لكنها تحاول أنْ تستعمل عقلها حين تفكر. إنها شابة برجوازية من عائلة ألمانية مرموقة كما هو حال عشرات الآلاف. كل طموحها أنْ تصبح عازفة فلوت في الأوركسترا الوطنية الإسرائيلية ويبدو أن الحظ سيحالفها عاجلاً.

«كنت أعتقد أن بيغن سيكون أكثر صرامة؛ لقد خيّب إلى حد ما آمالي. لقد أعطى سيناء بكل سهولة. لو أننا استوطنا مباشرة بالعشرات والآلاف لكنّا احتفظنا بسيناء. أعتقد أن بيغن مرهق. يبدو أنه يتناول الكثير من الأدوية...

- ألا تخشين أنْ يُشجع موقف إسرائيل المتصلب العداء للسامية في العالم؟

- نعم، والمثل على ذلك تلك القنبلة في سيدني. ولكن نعم الحدث.. على اليهود العيش في إسرائيل. ماذا ينتظرون ليفهموا أن لا مستقبل لهم في النهاية عند الأجانب؟».

بعد أن التقينا بالفتاة الغربية جاء دور الشرقية. هذه الأخيرة ليست من البرجوازية الكبيرة. لا صلة لها بالبرجوازية لا من قريب ولا من بعيد.

أنا في وسط هذا الشيء الكبير والقبيح الذي يُسمى لامارينا في تل أبيب. إنه يقع بين الشاطىء وشارع حايركون بالقرب من منطقة الفنادق الكبرى. الناس تشرب عصير الليمون الطازج على الأرصفة. شخص جسيم في غاية الأناقة يتحدث بالعبرية مع فتاة شديدة السمرة والرقة، ترتدي بنطلوناً وقميصاً من الصوف، أسود اللون؛ تبدو وكأنها فأر في الفندق. الرجل الجسيم يُحرك يديه في كل الاتجاهات ثم لا يلبث أنْ يذهب. تتجه الفتاة السمراء نحو الطاولة حيث أجلس. للحظة تصورت أنها تحاول اصطيادي ولكن

الأمر كان عكس ذلك.

«هل تتصور؟ اقترح هذا الشخص مالاً عليّ كي ينام معي. حقير. قلت له بأن المال ليس كل شيء وبأنني لست سلعة وبأن. . .».

جوديتا الصغيرة بحاجة لشخص تتكلم معه. أهلها من الفلاحين المغاربة المهاجرين. تعيش إلى حد ما على الهامش؛ وتبدو مجنونة نوعاً ما. تتابع جوديتا دراسة الرسم. تركض في المقهى كي تريني أولى محاولاتها. مسألة مذهلة. ومن موضوع لآخر تطرقنا لقضايا الساعة المهمة.

«حين تمر فترة طويلة من دون حرب يزداد عدد الناس وتقل فرص العمل كما تقل إمكانية توفير الأكل لجميع الناس. الحروب تتكرر دائماً والاعتقاد السائد هو أنْ الناس تحب الكراهية. . ستقع حرب عالمية: من يعرف متى ستقع؟ نحن اليهود لأننا خضنا حروباً أكثر من جميع الناس. لقد قدمنا الكثير. هذا يكفي».

«إعلم أنّ العديد من الشرقيين هم ضد السلام: لأنهم لا يذهبون إلى المدرسة. هذا كل ما في الأمر».

يبدو أن جوديتا لم تذهب هي أيضاً كفاية إلى المدرسة. إنها طائشة إلى حدٍ بعيد. وبعيدة كل البعد عمّا يدور حولها بحيث لم تتأثر بالموجة القومية العارمة.

«الحياة قصيرة، وعلينا أنْ نتفق كي نعيش معاً. نحن في إسرائيل حصلنا على أرضنا، فلماذا لا نترك أرضاً للعرب كي يتخلوا شيئاً فشيئاً عن الحقد؟ لماذا لا نقول لهم إننا نتفهم مصيرهم الذي يشبه مصيرنا قبل إنشاء بلدنا؟ لم يفت الأوان. الحقد يخضع للتربية؛ فتربية مغايرة تحل المشكلة. العرب وحوش؟ ممكن ولكن علينا مساعدتهم وتعليمهم كي يصبحوا عقلاء. بدلا من ذلك شارون يقتلهم. إنه عمل مشين. أنا أقترع لصالح شولاميت آلوني».

آلوني هي التي تُحرك الجناح اليساري في المعارضة العمالية. أجريت معها مقابلة. إنها من الحمائم المتحمسين ولكنها تظل أكثر اعتدالاً من ماتي بيليد، النائب في حركة شيلي. أثار بيليد مؤخراً فضيحة في الأوساط التي تنادي بالسلام وذلك بتهجمه على ران كوهن أحد أعضاء الحركة المذكورة لأنه لم يستقل من مسؤولياته في حرب لبنان. «إن جميع الذين سمحوا بقصف بيروت هم من مجرمي الحرب يقول بيليد؛ لم يعد يحق لهم الانتماء إلى حركة تناضل من أجل السلام».

لا تكترث جوديتا بكل هذه الحيثيات، فهي ذات نزعة أخلاقية خاصة. «يجب أن ندعو الجميع. بيغن وعرفات ومبارك، الجميع، ما عدا الشيوعيين الذين يقفون ضد كل

ما يساعد على الحل، ونفرض عليهم أنْ يجتمعوا حول طاولة ويشربون معاً القهوة إلى أنْ يجدوا الحل الأمثل لترسيخ السلام».

حين كنت أستمع إلى جوديتا، تذكرت قصة رواها لي فيكتور سيجيلمن ليفسر لي أفكار الحاسيديم (الرجال الأتقياء) هؤلاء اليهود المتصوفة الذين يلعبون على الكمان ويشربون الخمر بلا ماء ويخدمون الله في الفرح. كان الفريسيون يصلون في الهيكل بحسب الأصول. يطبقون النصوص والطقوس. إلى أنْ جاء راع لا يعرف الكتابة ولا الصلاة. بدأ يدق أمام الهيكل لحناً بسيطاً على زمارته. ثارت ثائرة الفرنسيين لكن الراعي وجد الطريق إلى السماء. أغرورقت عينا صديقي فيكتور البعيد كل البعد عن التعصب بالدموع وهو يروي هذه الرواية من التلمود.

لا يوجد زمارة في المؤتمر اليهودي العالمي الذي كان يُشرف على نهايته حين وصلت إلى القدس. الجو داخل المؤتمر كان خليطاً من الأصوات المتنافرة.

كانت الصحافة والرأي العام قاسيين تجاه المؤتمر الذي يضم ثلاثة الآف مندوب من إسرائيل ومن جميع جاليات الدياسبورا. شُبّه المؤتمر بالسيرك. حين دخلت إلى القاعة الفسيحة كانت الضجة في أعلى درجاتها. كان الجميع تقريباً يقفون بين صفوف المقاعد وهم يصرخون. في الممر الرئيسي كان بعض الرجال يتضاربون. حاولت هيئة المؤتمر أنْ توقفهم. سألت الذين بقربي عن سبب الضوضاء: السبب كان إقرار ما إذا كان المكتب الطلابي هو الذي سيهتم بالنشاطات المتعلقة بشيء لم أعد أذكر ما هو أو بنشاطات. تذكرت إحدى مقررات الأمم المتحدة الشهيرة التي أدت إلى أروع التباس عرفه التاريخ: هل على إسرائيل أنْ تعيد «الأراضي» أو أراضي».

وَقَعَتْ قبل يوم حادثة لم تكن على الأرجح طارئة، أثارت الابتهاج أكثر مما أثارت السخط. فعلى شاشات التليفزيون التي كانت تنقل وقائع المناقشات للخارج وضعت يد خفية فيلماً بورنوغرافياً. إنها طريقة مهذبة للدلالة على أن هذا المستودع الذي هو أعلى سلطة للعالم اليهودي المناضل يقدم في هذه الساعة العصيبة مسرحية ولا أوقح.

ولأسباب غالباً ما تكون سخيفة اتخذ اليسار واليمين من هذا المؤتمر مناسبة للهجوم على بعضهم البعض. هذان هما طرفا الشرخ. كنت جالساً بالصدفة في وسط مجموعة من مؤيدي بيغن وكان بالقرب مني شاب مُلتحٍ يصرخ. طرحت عليه بعض الأسئلة بصوت عالٍ. كانت مهمة أحد مندوبي الوكالة اليهودية في باريس تشجيع عودة اليهود الفرنسيين إلى إسرائيل. «هل يحق لنا بيهودا والسامرة. إن الخليل وبيت لحم عزيزتان على قلبي أكثر

من حيفا. نحن مستعدون للتنازلات من أجل السلام، ولكن هناك من المستحيل أنْ نتنازل؛ إن هذه المناطق هي مناطقنا؛ وإلّا فالأفضل البقاء في باريس مرتاحاً. . .».

في الأماكن الأخرى كان جو الحمائم هو السائد. اختلط الحابل بالنابل. «الخلافات السياسية تُعرّض سمعة أهدافنا للشبهة؛ هذه الأهداف هي الهجرة إلى إسرائيل، قال أحد الخطباء بصوت يسمع بالكاد. إن الشبيبة اليهودية تبتعد عن الصهيونية». لا أدري لمن يُحمل مسؤولية هذه الخلافات. أللصقور أم للحمائم؟.

أخيراً صعد مناحيم بيغن إلى المنصة. جئت خصيصاً كي أسمعه. على الميكروفون حيا أحد المندوبين جهود رئيس الدولة التي يبذلها من أجل سلامة إسرائيل ومن أجل السلام. نصف الحضور ـ هل النصف فعلاً ـ صفق طويلاً وقوفاً. أما النصف الباقي بقي جالساً بصمت عملاً بالاتفاق الذي تم في وقت سابق. لم يسخر أنصار بيغن قبل أيام من شيمون بيريز.

«يجب الدفاع عن إسرائيل ضد أعدائها. من الصعب التوصل إلى هدنة. . .».

سجلت سريعاً بعض الجمل. لا شك أن هذا الرجل القصير والجاف ذا المظهر المراوغ يملك قوة هائلة وإرادة لا تتزحزح.

«يظن البعض أننا إذا ما تخلينا جزئياً عن حقوقنا يمكننا أنْ نفوز بالسلام. هذا وهم. أقول لكم أنتم أيها الصهاينة، لنأخذ العبر من حرب لبنان. كان الإرهابيون يسرحون ويمرحون هناك. مضى عليهم ثلاث عشرة سنة وهم يجمعون الأسلحة ويهددون أولادنا. لو تركناهم على سبيلهم لكانوا ركزوا أسلحتهم الفتاكة على الجبال».

«ليس هناك من خطر ديمغرافي يتهددنا. لن يستطيع العرب أنْ يبتلعونا في الأراضي المحررة. إن عددهم يتضاءل. إنهم يهاجرون. يضاف إلى ذلك أن ثلثي اليهود في أرض إسرائيل مسألة لا يُستهان بها. نعم، يجب حل مشكلة العرب ولكن ليس على حساب أمننا وأرضنا. لنعطي العرب كل شيء ما عدا هذين الشيئين. فباسم ملايين اليهود الذين سيعودون في يوم من الأيام إلى وطنهم، يحق لإسرائيل أنْ تقيم حيثما شاءت على أرض أجدادها: في يهودا والسامرة وغزة. من اليوم فصاعداً لن يهدر دم الأطفال اليهود في الجليل ليأتي إلى هنا يهود العالم بأسره. فالعودة إلى إسرائيل تُخلصهم من الزواج من غير اليهود ومن خطر الانصهار».

آشير بيريز أستاذ مادة الفيزياء في تكنيون في حيفا إحدى أشهر مدارس البوليتكنيك في العالم. اقترح أشير ترشيح بيغن لجائزة نوبل في استكهولم. وقد أوحى آشير أن رئيس الوزراء سينال جائزة. . الفيزياء. «لما لا؟ يتساءل بيريز. لقد نال جائزة نوبل للسلام».

نقلت الصحف هذه القصة التي أثارت ضجة. اعترض رئيس التكنيون بحجة أن آشير بيريز قد خطّ رسالته على ورق عليه اسم المؤسسة. «حاول الفيزيائي الظهور بمظهر المستغرب. كنت أتصور أن جميع الناس قد فهموا أنها مزحة».

إن المعنى الرمزي والغاية التلمودية لمزحة آشير بيريز لم يفهمها سوى بعض الآلاف على الأكثر. بيريز لا يمكنه النظر إلى رجل يمني من كفار شالم إلّا نظرة اتنوغرافية، أي غريبة. فيصبح ما يسمى بالقاسم اليهودي المشترك واهياً وغير مادي. فبين واحد من جماعة غوش إيمونيم من أصل أميركي وطبيب أسنان هادىء من مواليد اللد يسعى لأن يبني منزلاً في الجهة المقابلة من «الخط الأخضر» يمكن أنْ يوجد نوع من التوافق وليس من التماثل. لقد أصبحت أرض الميعاد مجموعة من الموزاييك. وبالرغم من ذلك فقد أثّر خطاب بيغن في المؤتمر الصهيوني بثلثي إسرائيل.

إن تشعبات الشرخ لا تطال فقط المستوى الأفقي بل الأصول الأتنية والموقع والثقافة والميل العاطفي لكل شخص؛ وإلّا كيف يمكن تفسير موقف الأستاذ شاوول فريدلندر ويوفال نعمان المتعارض في عالم يجب ويمكن أنْ يكون مشتركاً فيما بينهما. إن الموقف السياسي لكل شخص يُبنى انطلاقاً من مواد غير متجانسة وغالباً ما تكون متناقضة.

إن مشروعي الأساسي كما قلت هو سماع «ناس» إسرائيليين وليس سماع المعلقين أو الذين يتحدثون باسم فلان أو علاّن. ولكن بدا لي بسرعة أن هذا التصنيف كان اعتباطياً. فانطلاقاً من الوزير وصولاً لعمال الأرصفة في مرفأ أشدود الشرخ يتغير فقط شكلاً. البعض يعيشون الشرخ في درجاته الأولى والبعض الآخر يتلاعبون به. وهناك آخرون يحاولون جاهدين الابتعاد نوعاً ما كي يتسنى لهم تحليل الظاهرة. ولكن ليس هناك من فرق في النهاية. فالشرخ يطال الجميع. لم يكن إذن التوجه إلى المثقفين والكتّاب الذين يحاولون التفكير اغتصاباً للواقع؛ فهم على الأقل من المشككين ومن الذين لا تُحركهم الانتماءات الغرائزية ويقفون ضد اليأس الذي يؤدي ولا بد من لطم الرأس بالحائط.

تبدو الجامعات في إسرائيل للزائر كملجأ للنظافة.

الحرم الجامعي في رامات أبيب يشبه إلى حد ما الحرم الجامعي في أميركا ممزوج بنكهة أوروبية. الأبنية الفخمة تبرع بإنشائها السيد والسيدة ليفي ديبيتزبورغ أو السيد كوهن من سيدني. يخبرونك عن ذلك بكل فخر. الحشيش الذي يُغطي الأرض خالٍ من أي عيب والكافتريات العديدة تُدار بشكل جيد.

إيلي عازار بن رفايل أستاذ مادة علم الاجتماع في رامات أبيب يحاول أنْ يفك المحركات السياسية لماكينة بيغن. إنها ماكينة تعمل بأقصى سرعة.

«لا تملك المعارضة العمالية أي شيء ملموس تقترحه. فالأحداث تسبقها. الليكود هو المنتصر في جميع المجالات الفلسطينيون يتنازلون؟ لأننا ضربناهم بقوة. لا يفهمون إلاّ لغة العنف. عاش بيغن. الفلسطينيون يتشددون بمواقفهم المتصلبة؟ علينا أنْ نضربهم بشكل أقوى. عاش بيغن».

«حين دمر الطيران الإسرائيلي في عملية قرصنة احترازية جريئة المفاعل النووي العراقي، تظاهرت الحمائم احتجاجاً. لكن جميع الناس في الحقيقة كانت فرحة هنا وفي الخارج. يبدو أن سياسة بيغن هي التي تربح على صعيد الواقع إن لم نقل إيديولوجياً. إن الحرب في لبنان وطدت بشكل غير مباشر تحالف البلدان العربية المعتدلة التي يقض مضجعها الخميني وقلصت نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية. في ظل حكم بيغن شهدنا أيضاً خروج مصر من حلبة الصراع. أما الأردن، فلا يزال يتغنج. لم تنفع صواريخ سام ٥ التي وضعها الاتحاد السوفياتي في سوريا. فالاتحاد السوفياتي لم يعد باستطاعته المشاركة في اللعبة الدبلوماسية في الشرق الأوسط منذ أنْ قطع علاقاته مع إسرائيل. إن الاستراتيجية الأميركية هي المسيطرة. مختصر مفيد، كل شيء يسير نحو الأحسن. فالثمن لا يقلق بيغن الذي يهمه أنْ يبقى في التاريخ كالموحد الأكبر للأرض اليهودية».

«أنا شخصياً مع قيام دولة فلسطينية: ولكن إذا تم في يوم من الأيام أي اتفاق مع الأردن دون عرفات ستكون الخسارة التي لا يمكن تعويضها بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية. أما إذا أخذت منظمة التحرير المبادرة في عملية التفاوض ستحرج بيغن. على كل حال، فالتنازل عن سيناء قد أثر بالإسرائيليين أكثر مما نتصور. ليس فقط بسبب النفط ولا بسبب التوراة، وإنما أيضاً بسبب الرغبة الكبيرة في زرع الصحراء. لقد تركنا كل شيء. إذا كان لا بد من التنازل، وإذا كان الأميركيون يدعمون طروحات عربية معقولة فيجب على بيغن أنْ يتخلى عن يهودا والسامرة أو عن جزء منها. مبدئياً هذا ممكن. إن الأقل جنوناً من زعماء منظمة التحرير، بمن فيهم عرفات، يعرف أن الوقت ليس لصالحهم. لقد مضى زمن كانت فيه منظمة التحرير بيدقاً لإضعاف المعسكر الغربي في المنطقة. إن العرب يخافون كثيراً من مُسلميهم، إنهم يلعبون ورقة الغرب».

استشهد بن رفايل بمثل التاليت الذي وجد على الطريق: «إذا طالبت بالكل ستحصل على النصف».

«إن بيغن الذي يريد الكل هو أكثر مصداقية من شيمون بيريز الذي يطالب بالنصف، شرط أنْ يتوقف في اللحظة المناسبة وأن يضع في جيبه كل أرباح المتطرفين. ولكن الأصوات الانتخابية المؤيدة لليكود تحمست أكثر من اللازم، بحيث غدت الوسيلة

غاية في ذاتها. صحيح أن هناك شرقيين أقل تطرفاً من العديد من اليهود الغربيين، إنهم قبل كل شيء ضد حزب العمل. لا شيء واضحا. القومية المتشددة تتلاءم أكثر مع اليهود الشرقيين من الديمقراطية الاشتراكية الغربية التي تظل لغزاً بالنسبة إليهم. تقول شرخاً؟ إنه أكثر من ذلك. إن الذين يصرخون «شارون ملك إسرائيل» والأربعمائة ألف متظاهر بعد صبرا يعيشون في كوكبين مختلفين».

«إن مناحيم بيغن مقتنع بأن لولا وجود منظمة التحرير فلا مجال للمعتدلين أي أمل في فرض كلمتهم. هل كلما أضعفنا عرفات نُسهل إمكانية الحل العادل؟ ولكن شرط أنْ نريد فعلاً الحل، وبيغن لا يريد أي حل»..

سؤال: ما هو التحليل الواضح للوضع في إسرائيل؟ جواب: إنه تسليط الضوء على التناقضات التي تجعل الإسرائيليين يقفون بوجه بعضهم البعض. يقال بأنه كلما كان التحليل واضحاً كلما استعصى حل التناقضات. إذا كان هذا الكلام صحيحاً فالأستاذ شاوول فريدلندر كان كلامه أوضح من بن رفايل.

إن الصدمة التي أحدثتها المأساة المذهلة، دفعت إلى شوارع تل أبيب بما يقارب النصف مليون نسمة وذلك من أصل ثلاثة ملايين. إنه انجاز رائع. ولكن ماذا بعد؟ فكم عدد الذين يؤيدون فعلاً هذا الاتجاه السياسي؟ خمسون ألفاً، مائة ألف... الحياة سهلة والرحلات إلى الخارج تزداد، نلعب بالبورصة ومن الممكن شراء سيارات بأسعار معقولة: الجيش لم يكن أقوى أبداً ممّا هو عليه الآن. بالإضافة إلى ذلك فأخلاق شعبنا ومستقبل الصهيونية وحتى المستقبل بشكل عام، لم يعد يشكل همّا. هذه الأمور ليست سوى تأملات مثقفين..».

«إن أعضاء حزب العمل منقسمون على أنفسهم من أقصى اليسار إلى الاتجاه البيغي المضمر. فمن الصعب القبول بالدروس التي أفرزها الشرخ».

«لأول مرة، يرفض قسم لا يُستهان به من الناس أنْ يتأقلم مع ما يسمى المجهود الحربي. لم تعد الوحدة المقدسة فعالة. عام ٥٦ و٦٧ و٧٣، كنا نذهب إلى الحرب بطيبة خاطر. هذه المرة هناك شعور عند الناس أنهم ألعوبة. إن مصطلح الدفاع المقدس عن البلاد أضحى أمراً مشكوكاً به».

«إن مقاتلي الوحدات الخاصة المؤلفة من أكثرية يهودية غربية أرسلوا كتاباً إلى بيغن يرفضون فيه مبدأ هذه الحرب. إيلي جيفا انسحب. شارون يحاول أنْ يضاعف رهانه: «هذه الفرقة ليست مضمونة، فلن نرسلها إلى الجبهة». أنْ يقول وزير دفاع هذا

الكلام . . . » .

«أما بالنسبة للشرقيين فهي المرة الأولى التي يشتركون فيها في المعارك بشكل كثيف. لقد وقع منهم قتلى أكثر من حرب الغفران. ولكن الصدمة لم تَطُلْ . إن لجنة كاهان حركت الجو نوعاً ما، ولكن - باستثناء البعض - لا يزال اليهود الشرقيون يقدسون بيغن الذي يزعجه المثقفين اليهودِ الغربيين الذين يغالون في التدقيق ويناضلون لعرقلة مشاريعه على الصعيد الوطني» .

«لا يزال الأميركيون يعطوننا دروساً في الأخلاق ولكنهم بالمقابل يسددون جميع التزاماتهم نحونا. العدو العربي ضُرب وأهين. إذن فالشرخ أصبح هامشياً. الفئة الشريفة والأكثر وضوحاً رأت نفسها مدفوعة نحو المنفى داخل البلاد. لم تعد تعرف إسرائيل أو أصبحت تشعر أنها غريبة. بعض هذه الفئات تُهاجر خاصة الشباب. إنها مأساة بالنسبة إليهم. لقد حلموا وقاتلوا واشتغلوا كي يبنوا هذا البلد. إنها مأساة بالنسبة للمثاليين الذين ولدوا في الكيبوتز.

- وبعد بماذا يفكر الإسرائيليون؟

- بالعيش أفضل ولو لمرة واحدة. نريد شقة وسيارة. نصرف ألوف الدولارات. نستدين ونتخطى الخط الأحمر في البنك. . يبدو الاقتصاد الإسرائيلي من الخارج بحالة جيدة. الحكومة الأميركية والدياسبورا تساعداننا بعدة مليارات من الدولارات كل سنة. إذا ما قمنا بتقسيم هذا المبلغ ينال كل إسرائيلي أكثر من شخص عاطل عن العمل في ديترويت. كل شيء يُقاس بالنسبة للدولار. لدينا تكنولوجيا متطورة. إننا من أكبر مصدري الأسلحة. لا يوجد بطالة عندنا. الناس تتدبر أمرها. الحاذقون يحصلون على عدة رواتب. . . »

«العمال والسكريتاريات والطلاب يلعبون بالبورصة. منذ الصباح تتوقف جميع الخطوط الهاتفية بسبب حركة البيع والشراء» .

شاوول فريدلندر يتكلم في مرحلة تسبق انفجار المرارة كما يقال. عبثاً حاول علماء الاقتصاد القول بأنها مرحلة عابرة: لا أحد أراد أنْ يسمع. فمنذ. . .

«منذ عشر سنوات كانت كل عائلة من أصل عشر تملك سيارة. أما اليوم فواحدة من أصل ثلاث. تبدو الصهيونية وكأنهافولكلورلا معنى له» .

«كلاسيكياً، ترتكز الصهيونية على محاور ثلاثة لكل منها أهدافها: أولاً حل مشكلة إقامة اليهود في أرض إسرائيل، ثانياً تحقيق الهجرة إلى إسرائيل وتحقيق الاستيطان وثالثاً الدفاع عن الوطن. الهدف الأول تحقق منذ فترة طويلة. الهدف الثاني تعرقل: الهجرة إلى

الخارج تفوق العودة إلى الوطن. إن همّ الرفاهية والاتجاه القومي الفجّ حلاّ مكان المحرك الأخلاقي. لماذا «الصعود» إلى إسرائيل ما دامت الثمرة مهترئة وفي حين تنعم بحياة جميلة في الدياسبورا؟ يلعب بيغن ورقة العداء للسامية في الخارج. بحسب رأيه الأغراب يلاحقون اليهود في شوارع باريس ولندن. هذا كلام مُضخّم. أما في ما يتعلق بالاستيطان فقد تحول هذا الأخير إلى استعمار. وثالثاً، وأخيراً إن استعمال العنف بشكل دائم يأخذ مكان الدفاع المشروع. ماذا أصبحت الصهيونية كما يفهمها بيغن وشارون؟» .

«لم يعد هناك من صهيونية في الجهة الأخرى من الشرخ. لقد انتهت ولم تعد كما كانت. لا يريد بيغن أنْ يفهم ذلك. كل ما يهمه هو استرجاع أرض إسرائيل بكاملها. فالذي يحكم قراره هي المذابح الجماعية. يعتقد أنه بطل مسادا» .

كانت مسادا قلعة معلقة فوق بحر الميت. بعد غزو القدس من قبل تيتوس، اختار المقاتلون اليهود الذين ظلوا على قيد الحياة الموت في مسادا بدل الوقوع بين أيدي الغزاة.

«أثناء الحرب كان بيغن في فرصوفيا أحد المسؤولين الأساسيين في بيتار «حركة ضد الاشتراكية» أسسها معلمه الفكري جابوتنسكي . التحق بيغن بجيش أندرز في انكلترا تاركاً وراءه أعضاء الحركة. ماتوا جميعاً بمن فيهم زوجته. يقال بأن بيغن يخوض اليوم المعركة التي هرب منها بالأمس. عرفات هو هتلر. وكل مقاتل فلسطيني هو S. S.(*)» .

«الآخرون كانوا متوحشين معنا؟ فما علينا إلاّ أنْ نكون متوحشين مع الآخرين. هكذا يتكلم بيغن، والجماهير تحب هذا النوع من الكلام البسيط والمعبر. إذا ظل الفلسطينيون من دون أرض فهذا شأنهم؛ ويعود بالخير لنا. وألف سلام على الصهيونية» .

حدثني شاوول فريدلندر عن مسرحية تُعرض في أفضل قاعات البلد: عنوان هذه المسرحية «الوطني» لمؤلفها حانوش لفين. ترسم المسرحية صورة كاريكاتورية عن الشخص الوطني المثالي؛ نوعاً ما شارون. يتكلم هذا الشخص دائماً عن المبادىء الكبيرة وفي الوقت نفسه يحلم بالهجرة إلى الولايات المتحدة. للحصول على ما يريده يبصق بوجه والدته. في النهاية يصعد إلى السماء ليخلع الله عن عرشه. لم يعكر أحد صفو عروض مسرحية «الوطني» كما لم يهاجم أحد قاعات السينما التي تعرض فيلم «خمسين». مرة صرخ أحد المشاهدين ولم يعد يحتمل: «لا. لا ليست المسرحية ولا عنفها. . ولكن هذا لا» . يقصد المشاهد حين يطلق أحد أعضاء غوش إيمونيم على فتى عربي؛ الفتى الذي يضع على رأسه قبعة واسعة، رفع يديه الصغيرتين تماماً كما فعل قبله فتى آخر في الصورة الشهيرة أمام

(*) الـ S . S هو البوليس السياسي النازي في ألمانيا هتلر .

جنود .S. S، الصورة ذاتها التي هزت إفرام بورغ في لبنان. الشرخ يوقظ الأشباح. . . بالرغم من ذلك تعرضت مسرحية «الوطني» لمشاكل مع الرقابة ووقف الإسرائيليون بالرغم من النقمة على المضمون التحريضي للمسرحية ضد منعها. .

حين يتكلم فريدلندر عن المعارضين الهامشيين، فإنه يشير إلى هؤلاء الذين يدينون بشكل قاطع سياسة القوة عند الليكود. حتى عند الأكثر تمرداً نلاحظ بعض التردد حين يتعلق الأمر باقتراح حلول ملموسة. أما أصحاب الحلول فمنحاهم أخلاقي وغالباً غير مسؤول. الشرخ موجود أيضاً عند الذين يقفون في الجهة «المتشددة». من المستحيل التحليق في وسط الشرخ. . داخل التيار المتطرف هناك اتجاهات متعددة. وليس مريحاً أنْ تكون في وضع متوازن عند حدود الفراغ، مثل نائومي.

نائومي عقيد عمرها ثلاثون سنة. شقراء ممتلئة، إنها إحدى أهم المسؤولين عن دائرة الارتباط التابعة للقيادة العامة. تلتقي نائومي بشخصيات مرموقة وتعرف معرفة دقيقة ماذا يجري في كل من لبنان والضفة الغربية.

«إن أمن إسرائيل يأتي في المقام الأول. . ».

الأمن بالعبرية بيتاحون وتلفظ بيطرحون. إذا كان هناك من كلمة تعلمتها خلال رحلتي، فهي هذه الكلمة. .

«ولكن من أين تمر دروب الأمن؟ وما هي تشعباتها؟ إن فكري ليس بأسود ولا بأبيض، إنه رمادي. فهو يشبه لعبة البازل التي لا أنفك أُبدّل حجارتها. فكل تنسيق له ما يبرره. إن أصدقاءنا وأعداءنا يتغيرون بتغير الظروف. لا شيء ثابتاً. إنني أرى باللحظة نفسها وجوه المكعب الستة».

ترسم نائومي المكعب على مكتبها المغطى بمستندات عسكرية.

«إنني أعمل حساباً لخوفي ولآمالي. علينا أنْ نتوصل إلى تسوية وإن كان البلد يخصّنا من الناحية القانونية. كل شيء ما عدا القدس. الباقي؟ قليل؟ كثير؟ ما الأفضل لتشجيع الهجرة إلى إسرائيل؟ من المستحسن أنْ يكون الشخص حذراً وبراغماتيكياً».

«ربما لكوني في الجيش فأنا أؤمن بحدود آمنة استراتيجياً. لا يحق لأي حكومة يهودية المجازفة في هذا المجال. بكيت حين تنازلنا عن سيناء التي استرجعناها في حرب ١٩٦٧. على الصعيد الدبلوماسي على إسرائيل أنْ تكون تاجراً مهماً ولا تخاف المساومات. لقد تنازلنا عن سيناء بسهولة. كم سَيُراقُ من الدم في حال وقوع حرب أخرى؟ يجب أنْ لا ننام على حرير ولا أنْ تُسكرنا نشوة السلام كما يُسكر العنف البعض. ولكن إذا ما احتفظنا بكل شيء فهذا عين الخطورة. لا أريد فلسطينيين في بلادي. هذه هي المرة

الأولى التي يحصل فيها انقسام في إسرائيل. لم نعد ندري ماذا نريد».

«الحل الأردني له جوانبه الإيجابية. لكنني لا أتصور أي تعايش بين منظمة التحرير والملك حسين. لنتذكر أيلول الأسود. ماذا سيحصل في ما لو استولت منظمة التحرير على الأردن والأراضي التي ستتنازل عنها؟ يكفي أنْ تضل طائرة طريقها أو يقع حادث بسيط لتقع الحرب. أنظر: المصريون يشبهوننا بالنازيين. إن التفاهم يتطلب وقتاً طويلاً، طويلاً جداً. أنا خائفة. إننا نفتح جامعاتنا للشباب العرب، ألا نبني أوكاراً للحيّات بعملنا هذا؟ لديهم مجانين ثائرين. يجب تعليمهم كالأطفال إلى أنْ تترسخ عندهم فكرة التعايش: بانتظار الانتهاء من هذا العمل، علينا أنْ نظل أقوياء متيقظين ضمن استراتيجية لا تتهاون مع أي خلل».

«أتكلم كجندي وبالوقت ذاته لا أستطيع أنْ أتحمل لغة الإرهاب حتى بشكلها العسكري. العنف دائماً العنف. أكثر فأكثر أصبح العنف جزءاً منا ولم تعد حدود ما هو شرعي وغير شرعي واضحة. إنها مسألة خطيرة جداً. حتى ولو ضاعف العرب من إرهابهم علينا أنْ لا نقع في فخ الإرهاب المضاد. علينا بالأحرى أنْ نبني قواعد التعايش بروية. . نعم ولكن من جهة أخرى، فإن إسرائيل تحكم على نفسها بالموت إذا ما تساهلت جداً. إذن علينا دعم العرب المعتدلين و«روابط القرى» الذين لا يؤيدون منظمة التحرير الفلسطينية».

إن فلسطينيي «روابط القرى» الذين يدعمون الجيش الإسرائيلي في عملياته البوليسية هم كجنود الحركي (متطوع في الجيش الفرنسي في شمالي أفريقيا قديماً) لا أكثر ولا أقل. نائومي بحالة ضياع.

«أكره إرهاب عرفات ولا أقبل التهديد والابتزاز. لن نتراجع أبداً، فالإرهابيون يستحقون التصفية. بالوقت نفسه، يجب تشجيع العرب المعتدلين لإنشاء سلطة أخرى. كيف؟ لا أدري. من الصعب امتطاء حصانين دفعة واحدة».

سوف نلاحظ فيما بعد أنه بالنسبة للبعض فإن هذين الحصانين المتناقضين سيتحولان إلى قطارين ولكي تستطيع الركوب فيهما عليك أنْ تنشطر إلى شخصين. وهذا مستحيل.

«بعد فترة يساعد مثلنا هذا العرب على النضوج. .

- تقصفهم؟!

- هذا لا يمنع المحادثات. لم تُصلّب حرب لبنان مواقف منظمة التحرير الفلسطينية، بل بالعكس. عادة في وضع كهذا، الغير منتظر يصبح حقيقة».

«مات أهلي ضحية الإرهاب الجماعي. حين يتعلق الأمر بإسرائيل لا أستطيع أنْ أفكر ببرودة أعصاب. إنني بانتظار شيء. سوف نرى. القضية شبيهة بحياتي: مُتزوجة، غير مُتزوجة، أنا قدرية. إن الذي سيحدث لا بد له من أنْ يحدث».

٣

يهودا والسامرة

باب الأمل

أنا على موعد مع سبيرو في أحد مكاتب وكالة صغيرة تعج بالناس بالقرب من شارع ديزانغوف في تل أبيب. باطن الغرف خيرٌ من ظاهرها، والأعمال تبدو مزدهرة.

يتجمع حول السيد سبيرو حوالى عشرة إسرائيليين عاديين ممن يرغبون مثلي في بناء منزل في الجهة الأخرى من «الخط الأخضر» مجموعهم لا يشكل أكثر من أربع عائلات أو على الأكثر خمس لأن الزوجة والأولاد الذين يمسكون أيدي بعضهم كانوا جميعاً هنا. «تعال الثلاثاء، قال لي السيد سبيرو على الهاتف؛ إنه نهار الزيارات الجماعية».

الثلاثاء الماضي كان عدد الزبائن كبيراً جداً بحيث وكالة رخاسيم استأجرت أوتوكاراً لنقلهم إلى حيث الأرض المفرزة. كنا نحن نتبعهم بسياراتنا.

المسافة ليست بعيدة. يمكن الوصول إلى السامرة بأقل من ثلاثة أرباع الساعة انطلاقاً من وسط تل أبيب شرقي كفار سابا أكبر الضواحي. . غالبية الذين رافقوني سيعملون في المدينة حين يسكنون فيما بعد في هذه المنطقة. بعضهم يفكر بمنزل ثانٍ. أنا أعيش في فرنسا ولكنني أتحرّق شوقاً في توظيف مدخراتي في بناء منزل في أرض الأجداد. من الممكن أنْ تكون هذه العملية الخطوة الأولى نحو الهجرة النهائية إلى إسرائيل. السيد سبيرو يعتقد أنني على حق.

ها نحن في نهاية رحلتنا عند مدخل الورشة. أعمدة الباطون تُشاد بفرحة على هضبة صخرية حيث ترعى الماعز العربية. يافطات من التنك تحمل أسماء شركات البناء. بعض هذه اليافطات خُربشت باللون الأسود «ملغى لأنه يشكل عثرة في وجه السلام». إن مناضلي حركة «السلام الآن» مروا من هنا. السيد سبيرو بقلبه الطيب يرفع كتفيه غير

مكتـرث. في النهاية هو الذي سينتصر. «في الحقيقة إنهم أناس طيبون، لكنهم تظاهروا مع الشيوعيين والعرب، لا، هذا لا يجوز». قيل لي بإن اليافـطات المطليـة بالأسـود تُسيء إلى المشروع. ومن الأفضل وضـع يافـطات عليها شـروحات سياسية، فهـذا أشرف وأكـثر إسرائيلية. لأ أحد ينظر إلى الهدم والتخريب بعين الرضى.

في تل أبيب والقدس هناك العديد من المؤسسات الخاصة كوكالـة رخاسيم تشتـري أراضي في الأراضي المحتلة. إنها عملية شرعية. أثناء وجـود حزب العمـل في الحكم أقام كيبوتزات زراعية على طول نهر الأردن. أحياناً كانوا يصادرون الأراضي العـربية الجيـدة، وأحياناً أخرى يتلف الجيش حرقاً المحصولات الزراعية لإقناع أصحاب الرؤوس اليابسة. بيغن أكثر حذاقة؛ الاستيطان يهمه أكثر من الزراعة. لذلك نراه يشجع بنـاء المدن التي لا تُستعمل إلّا للنوم والتي تتلاءم تماماً مع طبيعة الأرض الجدباء. التقنية بسيـطة جداً: تمتـد حول المدن العربية أراضٍ شاسعة صحراوية هي بحسب القانون العثماني أراض أميرية. الفلاحون يتركون مواشيهم عليها حسب العرف. ندفـع لهم ثمناً عـالياً؛ يبيعـونها خاصـة وانهم لا يملكـون حقيقة هـذه الأراضي، وهم مقتنعون بـأنها ستُصادر في يـوم من الأيام. تُسجل المعاملات في سجلات رام الله العقارية مما يطمئن المشترين. بعد لحـظة سيحدثنـا ميرون بنفنيستي مطولاً عن الاستيطان في الضفة الغربية لنهر الأردن.

يدلنا السيد سبيرو على المنظر الطبيعي المحيط بنا: «لدينا خمسة مشاريع في المنطقة، وكل مشروع يضم من سبع مائة إلى ألفـي وحدة سكنية. بدأنا بتنفيذ القسم الأكبر منهـا. أكثرية الأراضي بيعت ولم يبقَ إلّا بعض القطع في شعاري تيخفا. إنها تُباع كالخبز».

شعاري تيحفا! منطقتي تُسمى «باب الأمـل» يشعر السيـد سبيرو وزبـائنه بـالشرخ جيداً، فقد اختاروا بشكل مُسالم معسكرهم. فتحاليل شاوول فريدلندر ووسواس نائـومي لا يمنعانهم من النوم.

كل من يشتري قطعة أرض مساحتها ٦٠٠ متر مربع يتعهد ببناء منزل أو اثنـين إذا أراد في مهلة مدتها ثلاث سنوات. إن كلفة بناء منزل مريح مساحتـه ١٢٠ متراً مربعاً هي ٦٠٠٠٠ دولار. يمكن الحصول على سُلفات بفائدة مُخفضة تساوي ٥٪. في «باب الأمـل» بيع ما يقارب ٦٠٠ قطعة أرض. عند العودة رافقت السيد سبيـرو في سيارتـه؛ ونحن في الـطريق همس في أذني: «كـان عليـك أنْ تشتـري في الكـلاجيم في الجهـة الأخـرى من الهضبة؛ إنها أقرب إلى الطريق. لقد اشترى هناك متعهد خمس عشرة قـطعة سَيبني عليهـا منازل للبيع. بدأ المضاربون العقاريون يتهافتون على المكان؛ يجب الاستفادة من ذلك».

الثلاثاء الماضي كان عيد هانوكا. أشعل أحد المتدينـين الشمـوع على أرض المنـطقة

المُفرزة على الهضبـة المقدسـة. فالسكن في السـامرة بـالنسبة لـه هو بمثـابة ميتـزفا (العمـل الصالح حسب التوراة). إنه عمـل من أصل ٦١٣ عمـلاً صالحـاً على كل يهودي القيام به خلال حياته. وذلك ليس لكي يربح السـماء وإنما ليحقق يَهُـودِيته بشكـل كامـل. شلومو غورين كبير حاخامات إسرائيل وأحد الصقور الصداميين، قال بإن حرب لبنـان هي أيضاً بمثابة ميتزفا. المتدينون يشكلون استثناء في «باب الأمـل» يتواجـدون مع غـوش إيمونيم في المعابد التوراتية.

بالقرب منا توجد قرية عربية كبيرة تُدعى كفر قاسم. عام ١٩٥٦ وأثناء معركـة مع الجيش الإسرائيلي قُتِلَ ٤٥ من أبنائهـا. كفر قـاسم اليوم مـزدهرة. السيـد سبيرو شخص يُطمئن: «إنهم لطفاء ويعملون جميعاً في إسرائيل». بالفعل إن الظروف المادية التي توصـل إليها عرب الضفة الغربيـة هي أفضل بكثـير من السابق؛ أي في ظـل النظام الأردني. إن قواعد التعايش مع الإسـرائيليين هي أبسط مـا نتصور: إن الحيـاة الهادئـة والوديـة تختلط بالانتفاضات العنيفة ضد المحتل.

«إن أكثرية عمال البناء هم من العرب يقول السيد سبيرو. حارس القرية الجديـدة هو عربي أيضاً؛ إنه الحل الأمثل.

ـ لماذا؟

ـ إن لم يكن حـارساً سيسـرق. إنه يعـرف أنه في حـال وقوع سـرقـة سيكـون أول المتهمين». إنه حل رائع، نوع من الجبرا التلمودية.

وتنهال الأسئلة على السيد سبيرو.

«هل تنوون مد أسلاك شائكة حول القرية؟

ـ أبداً. إن الذين سيضعون أسلاكاً عمّا قريب حول كفر قاسم هم العرب.

ـ والمنافذ؟

ـ ستكون بعيدة جداً عن القرية العربية

ـ والمياه والكهرباء؟

ـ ستكـون شبكاتنـا منفصلة عن شبكات القـرى العربيـة، وكذلـك الهـاتف الـذي سيُوصل بالمركز الرئيسي في تل أبيب».

يمر فلاح بكوفيته الحمـراء والبيضاء عـلى الطريق العـربية جـاثماً عـلى حماره ويـرعى بعض الشباب الغنم. تمر سيارات الأجرة المرسيدس وكُلها من العرب: كم «من الحيوانات على قائمتين» بينهم؟ لا أحد يُعيرهم أي انتباه».

«إذا تصرف عرفات كالسادات، هل سنتنـازل للعرب عن يهـودا والسامـرة؟ تطرح

السؤال امرأة. «ماذا سيحل بأملاكنا؟ .

ـ اطمئني! هذا لن يحصل أبداً. ما من حكومة يهودية ستتنازل عن يهودا والسامرة، إنها أرض إسرائيل. تـذكري يـاميت والبلبلة التي حدثت لألفين وخمس مائـة من السكان حين تنازلنا عن سيناء للسادات. أما في حال تنازلنا لا سمح الله، تشتري منزلين عوضاً عن منزل واحد بالإضافة إلى التعويضات».

أفرات منطقة راقية، بعيدة كل البعد عن المدن. العنابر المُعِدّة لصغار المدخرين من سكان ضواحي تل أبيب.

أمشي بين بيت لحم والخليل حيث المناظر الـطبيعية الخـلابة للتفتيش والتعـرف على جماعة الغوش إيمونيم. لم أسمع سابقاً بأفرات. السماء زرقـاء والهضاب المستـديرة تتـلاقى كتلك التي في صورة الجوكوندا. فجأة تنعطف طـريق نحو الجهـة الأعلى حيث تتـراءى لنا واجهات بيوت مبنية من حجارة من مقالع الجليل، هذه الحجارة الذهبية الفخمة التي تشاد بها الأحياء الجديدة في القدس. لنرى.

الجرافات متوقفة عن العمـل. حين وصلنـا كان العمـل قد انتهى ولم يبقَ أحـد من البنائين. بدا لي «باب الأمل» الذي شاهدته البارحـة قبيحاً غـير مُنسّق. أما أفـرات فتبدو من خلال التصاميم التي وضعت لها منسقة ومنـظمة. لم ينتـهِ العمل بعـد في أفرات ولكن يمكننـا أنْ نتصـور كيف ستكـون عنـد انتهـاء العمـل: العشب يمتـد بـين المنـازل الجميلة والتناغم بين الصخور والبنايـات. على الهضـاب الأخرى حـول أفرات لاحـظنا جـرافات أخرى ومدن قيد الإنشاء. إسرائيل تقيم في أرضها.

دست على وحل الورشة. المكان خالٍ. فجـأة رأيت رجلاً وامـرأة وطفلتين ينـزلون على الدرج الذي لم ينشف بعد. إنها عائلة أسترالية من المهاجرين. الرجل طبيب أسنان. عمره أربعون سنة.

«أريـد منزلاً محتـرماً كي أسكن في إسـرائيل. كـان من الصعب جداً الحصـول على منزل كهذا في الجهة الأخرى من «الخط الأخضر». إطار للحياة شبيه... الاستيلاء عـلى يهودا ليس همي الأساسي، هذا لا يعني أنني ضد...

ـ يبدو أن منزلك سيكون جميلاً جداً.

ـ أنظر، هنا ستشاد المدرسـة والحوض والـروضة، هنـاك سيوضـع المحرك الهـوائي والألواح الشمسية للشوفاج؛ هنالك سيُشَاد الموتيل والكنيس. الأشجار سوف تملأ المكـان كله.

ـ هل تتوقعون مجيء الكثير من المتدينين؟

ـ لا. لكنني أتوقع.

ـ هل السعر مرتفع؟

ـ نسبياً لا. حوالى ٨٥ ألف دولار. أكـثر من النصف مُوّل بـديون خـاصة بفـوائد مخفضة. الحكومة تقدم قطعة الأرض. منذ ثمانية أشهر، كانت المنطقة هنا كالصحراء.

ـ وفي ما لو تنازلتم للعرب عن يهودا في يوم من الأيام ثمناً للسلام؟

ـ يهودا ليست للمتاجرة. هل تعطي أباك وأمك للعدو كي تنال السلام؟ التنازل لا يجدي نفعاً. فالعرب يقبلون بالسلام حين يقتنعون أن لا أمل لهم في النصر. أثناء حـرب الغفران، أرادوا تصفيتنا. ماذا نفعنا الاستسلام؟ التصفية الجمـاعية. يجب عـلى إسرائيـل أنْ تكون قوية وليعلم العالم بأسره هذا».

الكلمـات تخون طبيب الأسنـان في أفرات. إنـه معتدل، لكن لهجتـه قويـة. ينـظر بفـرح إلى هبوط الشمس عـلى الهضاب. أزعجتـه قليلاً بـأسئلتي بينما هـو يستمتع بـالحلم الريفي الذي سيتحقق غداً. الفتاتان الصغيرتان تسيران بـالقرب منـا على امتـداد البيوت المتشابهة والمختلفة. رئيس الورشة العربي يرافقنا فرحاً. طاف بنا باعتزاز عـلى أرجاء هـذا المكان الذي يعتبر نفسه مسؤولاً عنـه والذي بفضله تم بناؤه. الطبيب وعـائلته سيكـونان سعداء في أفرات.

«أنـا، قالت الأم، أفضل العرب على الأستراليـين. لن أنزعـج أبداً من العيش معهم».

بعـد عدة أيـام قامت تـظاهـرة لحـركـة «السـلام الآن» في ورشـة أفـرات وتـطواف بالمشاعل. لم يتدخل الجيش. تكلم افرام بـورغ. قال بـإن الاحتلال هـو من بذور الشر: «على اليهود أنْ يتذكروا أنهم خضعوا خلال تاريخهم لشعوب أخرى..». كان يوجد بـين الثـلاثة الآف إسـرائيلي الكثـير من اليهود الشـرقيين من الـذين أدركـوا أن الاستيـطان لا يساهم بتحسين مصيرهم.

قدموا لي كيبا (قبعة) كي أضعها على مؤخرة رأسي. حاولت أنْ أرفض ولكن عبثاً. بعـد ذلك، كـما هو الحـال دائماً مـع جماعـة غوش إيمونيم. كنت في الوقت نفسـه منفعلاً ومذعوراً كزائر تائه في قلب قارة بعيدة يشارك بطقوس قديمة عنيفة ومتوحشة.

الشقة الصغيرة بسيطة وبيضاء. يوسي تشعل الشمعات الواحدة تلو الأخرى.

وضعت الشمعـات السبعة الـرفيعة والشمعـة الثامنـة الطويلة عـلى النافـذة الشبيهة بـالنوافـذ المحاذيـة. زُين الشمعدان بسـرعة بـرصـاصـات رشـاش عيـار ١٢,٧. وصـل الأصحاب. بينهم شخص أشقر يجيـد الإنكليزيـة. قرأ كتـابي الذي ألفتـه عن ١٩٦٧ مع

أريك رولو والأخوين لاكوتور والذي تُرجم إلى العبرية. لجماعة الغوش مراجعهم.

غنّى الجميع بشكل رائع أغنية خاصة بـ هانوكا، وبدت لي هذه الأغنية إسرائيلية جداً ويهودية جداً. شيء جميل. تسمرت في مكاني احتراماً ومحبة وخوفاً. لقد قرأت مقالات عدة عن الغوش إيمونيم وعن كتلة الإيمان. المقالات كانت تبسيطية ومُحرّفة. إنهم ملح الأرض أو هكذا يجب أنْ يكونوا. إنهم أفضل بكثير. . . إنهم أخطر ألف مرة من الصورة الكاريكاتورية المُعطاة عنهم.

قبل الوصول إلى كريات أربا تساءلت بسذاجة: كيف أستطيع الاتصال بالغوش؟. الطريق التي تؤدي إلى الخليل تمر بضواحٍ عربية مكتظة. تقع كريات أربا على هضبة تطل على المدينة.

كان الوقت ليلاً حين وصلت إلى الحاجز. رفع الجنود العوائق. بمحاذاة الشارع تغطي جانبيه الأشجار والمساكن الشعبية. رأيت رجلاً شاباً يمشي شاهراً رشاشه. يفهم على الأكثر كلمتين أو ثلاث من الفرنسية. يركب معي في السيارة ليرشدني. دخلنا إلى الشقة الصغيرة البيضاء. عرفت أنني عند يوسي وإيلانا. يوسي عمره اثنتان وعشرون سنة وإيلانا واحد وعشرون. إنه من مواليد إسرائيل، مغربي الأصل. أما هي فقد أتت من الجزائر، وكانت لا تزال طفلة. تتكلم الفرنسية جيداً.

يجب أن أُعرفكم على إيلانا ويوسي. . .

سنتحدث كثيراً عن الغوش في هذا الكتاب. يجب أنْ لا نضخم حجمهم. الكثير من الإسرائيليين ينظرون إليهم كما ننظر في فرنسا للهاراكريشنا(*) أو جماعة المطران لوفيفر. ولكن بحكم كونهم أقلية تتحرك بشكل مجنون فإنهم يعبرون بصورة جلية عن جوهر رغبة إسرائيل التوتاليتارية. لا يعرفون الشك ولا التكتم. لا شيء يضاهي صحة قناعاتهم: لذا يسمون كتلة الايمان. . . إن الغوش أيمونيم يذهبون بقناعاتهم حتى النهاية في حين أن الآخرين يترددون. من الصعب التعامل معهم. إنهم انتحاريون. يشكلون النزعة الأكثر وجدانية وقلقاً عند الشعب اليهودي.

ينتمي يوسي إلى ياشيفا حاسدير في كريات أربا. إن جماعة ياشيفا هم مؤسسة طريفة تسمح لرجال الدين المبتدئين بدراسة التلمود أثناء متابعتهم الخدمة العسكرية. إيلانا زوجة يوسي، مدرسة للأطفال المعاقين؛ أتصور أنها تمارس مهنتها بمحبة كبيرة. إيلانا هي التي تتكلم وذلك لأسباب لغوية، ولكن غالباً ما تستشير يوسي بالعبرية.

(*) جماعة أوروبية اعتنقت مذهباً دينياً بوذياً ترجع أصوله الى التيبت.

قريباً سيترك يوسي وإيلانا ـ اللذان ينتظران مولوداً ـ كريات أربا للانخراط في موشاف شيتوفي، أي القرية الزراعية الدينية التي تقع بالقرب من أراد في صحراء النجف. الحياة ستكون قاسية والعمل شاق. ما أبعدنا هنا عن الحسابات البرجوازية الصغيرة في «باب الأمل».

قدّمت لنا إيلانا القهوة والفاكهة. إنها جميلة بحركاتها البطيئة. لا أثر للمكياج. وشاح أزرق يُغطي شعرها.

«الجميع ليسوا متدينين في كريات أربا. لنقل إنهم جميعاً من اليهود بالمعنى العميق للكلمة. إن تسعة أعشار المستوطنين أتوا إلى هنا ليعيشوا وسط عشرات الألوف من العرب لأنهم يعتقدون أن هذا العمل هو صالح ومهم. إننا عصبة بكل معنى الكلمة؛ نتعاون في كل شيء. مثلنا الأعلى هو الحاخام لوفينجر الذي يعيش وسط الخليل.

أحاول أنْ أعمق معلوماتي عن اليهودية كما تقدمها جماعة الغوش. لِمَ هذه الثياب المتقشفة وهذه السعادة المجبولة بالوقار؟

«حاولت المحافظة على التواضع الذي يلائم المرأة اليهودية: الرأس مغطى والبنطلون ممنوع والأكمام طويلة. الرجال والنساء يستحمون في أحواض منفصلة. من الممكن أنْ يأتي المسيح في كل يوم وفي كل لحظة. علينا أنْ نعيش حسب الوصايا ـ يصبح الموت أسهل حين يكون مسألة يومية» يقول يوسي.

يتكلم يوسي وإيلانا بهدوء ولا يخرج اللهب من أعينهما. إنهما يحاولان توضيح واقعهما لي من دون الاستخفاف به أبداً ومن دون هديه للدين. أتذكر هؤلاء الكاثوليك الذين تكلم عنهم موريس كلافل، يثبتون النعمة بواسطة التميز؛ كلافل كان سيعجب بالغوش. إنهم متميزون. يشبهون نوعاً ما آيات الله.

تبتسم إيلانا بتلبك: «حين تنزف المرأة، تحمل بياضها إلى الحاخام كي يقرر بعد فحصه إذا ما كانت انتهت من حيضها وإذا كانت نقية. الذين يتوسوسون كثيراً يذهبون كل شهر إلى عند الحاخام. أما أنا فلا، ليس لدي مشاكل من هذا النوع.

ـ ما هي شعاراتكم السياسية؟

هذا ليس سياسة. هذا لا يناقش. إنه إيماننا. هناك ثلاثة واجبات: التوراة والشعب اليهودي وأرض إسرائيل».

يتحدث يوسي مع زوجته بالعبرية التي توافق وتترجم: «ينتقدوننا في الخارج. إن رأي الغرباء لا يهمنا. نناقش العرب؟ هذا ما نتمناه، شرط أنْ لا تطرح مسألة الاستقلال والحكم الذاتي. نعم للتعايش ولكن شرط أنْ يحترم العرب القانون الإسرائيلي وفي حال

عدم احترامهم لهذا القانون لدينا وسائلنا لترويضهم. يجب أنْ لا نقتل إلاّ في حال الدفاع عن النفس وفي حال مخالفة القانون. .».

فهمت فجأة أن يوسي الناعم الذي فتح لي بيته وقلبه ورفاقه اللطفاء الذين تخفي أكوام الليمون على الطاولة بنادقهم هم بالضبط الذين يسرحون في الليل للقيام بمهمات دنيئة في الخليل حين يحاول الشباب العرب رفع رؤوسهم. حين كنت في كريات أربا لم تكن وقعت بعد أية ضحية يهودية، كل ما في الأمر وقوع مظاهرات وهجوم بالحجارة على أوتوبيس. قالت السلطات العسكرية إن المستوطنين المسلحين حتى أسنانهم يجب أنْ لا يتحملوا هم مسؤولية تطبيق القانون وأن هذا الأمر هو من مهمة الشرطة: لا يوافق الغوش على هذا الرأي. العين بالعين. ما هم في ما لو تصاعدت موجة العنف، المهم أن هناك مخالفة للقانون.

من جهتنا تضيف إيلانا: «لقد وُعدنا بهذه الأرض، فهي أرضنا. على اليهودي أنْ يموت دفاعاً عن أي سنتمتر مربع من أرض إسرائيل». ولا شيء يمنعه من قتل غيره.

علمت أن يوسي هو واحد من الذين اعترضوا بالقوة على إعادة ياميت المستوطنة اليهودية الصغيرة في سيناء. إن أرض إسرائيل ليست للمتاجرة، فهي أرض مقدسة، أما الباقي فلا أهمية له بالنسبة لانتحاريي التوراة.

«إن أهلي، تضيف إيلانا، سيقيمون هنا عمّا قريب. لماذا يأتون إن لم يكن بسببنا؟» كان قد هبط الليل منذ فترة طويلة. فقد وعدت إيلانا ويوسي بالعودة قريباً للقاء المرشدين الفكريين لهذه العصبة. إنهم جميعاً تقريباً من اليهود الشرقيين، ولكن هذه المسألة لا أهمية لها عند الغوش.

رافقني شلومو أحد أصدقائي وميريام خطيبته الشابة الشقراء الجميلة في طريقي إلى تل أبيب. (ذهبنا أولاً نحو أشكلون. إنها أقرب. مصابيح الشاحنات الضخمة تُبهرني عند المنعطفات التي لا أعرفها. كنت بالرغم من ذلك أسمع حديث الطلاب في الجامعة العبرية في بار اللان. شلومو اشترك في حرب لبنان.

«في الوحدة التي كنت أنتمي إليها، كانت الآراء منقسمة جداً. من جهتي أقنعت نفسي بأن هذه المعركة هي معركة صحيحة. لم نطلق النار أبداً على النساء والأطفال. . .

ـ ليس عن قرب بالبنادق والقنابل ولكن من بعيد بالمدافع؟

ـ هذه هي الحرب. كان بإمكاننا تدمير كل البيوت، ولكننا لم نطلق النار إلاّ على الإرهابيين، وهذا أمر طبيعي.

ـ ما هو الإرهابي؟

ـ كل عرب منظمة التحرير الذين يقفون ضدنا ويهاجموننا.

ـ جميع المقاتلين؟

ـ نعم.

ـ إنهم في الحقيقة بشر مثلنا (ميريام هي التي تتكلم) لكنهم يريدون ذبحنا.

ـ ألا يفتش الفلسطينيون عن وطن كما كان حال اليهود؟

ـ لا وجود للفلسطينيين (شلومو) هناك عرب إسرائيليون وآخرون عرب. صحيح إنهم يريدون وطناً، لكن هذا وطننا. لا مكان للاثنين.

ـ إذن يجب قتلهم؟

ـ إن الذين لا يريدون العيش في ظل القانون الإسرائيلي ولا الذهاب إلى بلد عربي آخر عند أهلهم فهذه غلطتهم. إن الذين يقاومون. . . ما أنْ تسنح لهم الفرص حتى يهاجموننا.

ـ هل هذه الشراسة هي في دم العرب؟

ـ لا. ولكنها مسألة تتخطى الظروف. فهي أبدية. إنها لعنة مكتوبة في التوراة.

ـ ولكن الفلسطينيين يتألمون كاليهود من تشردهم.

ـ لا يمكن تشبيه الحالتين. اليهودي مميز.

ـ لماذا؟

ـ هذه إرادة الله. علينا أنْ نؤمن بها».

في المؤتمر الخاص بالسلام في الشرق الأوسط، عدد ميرون بنفنيستي، الاختصاصي في شؤون «الأراضي» حوالى ستة أسباب تسمح بالاستيطان الشرعي. لقد قلنا سابقاً على سبيل المثال إن الفلاحين في الضفة الغربية يحق لهم بحكم القانون العثماني الاستفادة من الأراضي الصحراوية المحيطة بقراهم؛ ولكن الأرض تعتبر «موات» عند الحدود التي لا يتخطاها الصوت. يعتبر الفلاحون أن بيع هذه الأراضي بأسعار رمزية أفضل من وضع اليد عليها من قبل الحكومة. لقد ورث بيغن السلطان.

في حال النزاع حول قطعة أرض على المالك إثبات ملكيته. وفي ٩٠٪ من الحالات، لا وجود لأوراق ثبوتية. إذن كل أرض غير مزروعة وملكيتها غير رسمية هي مبدئياً قابلة لوضع اليد عليها. القوانين والمراسيم مكتوبة بالعبرية. لا يفهم الفلاحون منها شيئاً. في جميع الأحوال، إن الذين يجلسون في المحاكم هم الضباط الإسرائيليون.

«التبدل الأساسي الذي طرأ منذ وصول الليكود إلى السلطة يقول ميرون هو وضع

اليد بشكل منتظم على جميع الأراضي القاحلة وخاصة تلك التي تقع على الهضاب القريبة من القدس وتل أبيب. كان حزب العمل يطمح بالأراضي الصالحة للزراعة كي يبني فوقها كيبوتز ونهال أي وحدات عسكرية زراعية. كان عدد المستوطنين الراغبين بالقيام بهذه التجربة محدوداً. أما بيغن فقد استبدل الغزو الرائد بالرفاهية وربح البرجوازيين الصغار. فبفضل الرهونات بفوائد مُخففة يزداد الطلب. ومن المتوقع بناء ما يقارب ١٥ ألفاً إلى ٢٠ ألف شقة من هنا إلى خمس سنوات في منطقة القدس وحدها».

«يستفيد الليكود من تعصب الغوش إيمونيم الديني ومن الرغبة الدفينة بالحصول على أرض عند الرواد ومن الحلم الريفي لدى الطبقات الوسطى. كل ذلك لا معنى له في غياب مشروع ضم نهائي مدروس. ولكن من العيب البوح بذلك عالياً».

«تؤكد الحكومة أنها تنوي بناء ستة آلاف شقة كل سنة في الجهة الأخرى من «الخط الأخضر». إنه أمر مبالغ به. من الملاحظ أن لا أحد يحاول أنْ يُقلل من أهمية هذه الأشياء بالرغم من اتفاقيات كامب ديفيد التي تنص على «تجميد» عمليات الاستيطان. إن سياسة الأمر الواقع تمارس بشكل مفضوح».

«هناك خمسة وعشرون ألف إسرائيلي يسكنون في يهودا والسامرة كما يقال رسمياً لتغطية الفرق بين الأمر الواقع والتصرف القانوني. سيصل العدد حسب التصاميم إلى مائة ألف بعد خمس سنوات. إن هؤلاء سوف يشكلون جماعة ضاغطة تقف بوجه سياسة الانسحاب والسلام العادل. هذا أقصى ما يتمناه بيغن».

«إن خرافة الحكم الذاتي في ما يتعلق بالعرب هي عنصر من عناصر هذا المشروع. فكل شيء مزدوج: الإدارة والتجهيزات والتمويل. نقيم بحسب المعايير الإسرائيلية وعلى العرب أنْ يتدبروا أمرهم. فبين المدن الجديدة والمدن ـ العنابر تتحول المعسكرات والمستوطنات الدينية والمستعمرات الزراعية والمناطق العربية المتخلفة إلى غيتو. ويكفي تشكيل قوة رادعة منظمة حتى يطرد الذين لا يخضعون من العرب. ولقد بدأت تظهر بوادر ذلك».

الرهان ضخم. إن إقامة عائلة واحدة في هذه الأراضي يُكلف مليون فرنك فرنسي. وهكذا نرى أن التوظيفات في القطاعات الحيوية تهمل واليهود الشرقيون الذين يتضررون أكثر من غيرهم من هذا النزيف الاقتصادي نراهم بالرغم من ذلك، أكثر المتحمسين لبيغن. هل الوضع يتدهور في الضفة الغربية؟ لا فرق. كي يوازي عدد اليهود عدد العرب، يجب بحسب المنظمة الصهيونية العالمية تثبيت ١٤٠ ألف يهودي في يهودا والسامرة من هنا حتى سنة ٢٠٠٠. موشي أرينز وزير الدفاع الجديد، الذي حل محل

شارون هو ـ وإن كان أهدأ من سلفه ـ من الأنصار المتحمسين للاستيطان النهائي. إن هاجس الأمن والتوراة يلتقيان بحيث أن مركز إسرائيل الحيوي ينتقل من الشاطىء نحو المهد التاريخي لليهودية، أي نحو يهودا والسامرة.

إن سياسة القضم المنتظمة على طول الضفة اليُمنى من نهر الأردن هي بمثابة الخط الفاصل في الشرخ أكثر من الغزو للبنان الذي يعتبر ذا طابع مرحلي بالنسبة للجميع، إذا استثنينا قلة مجنونة غير مسؤولة. هنا بالضبط يتقرر مصير إسرائيل. إنه حديث الساعة بالنسبة لكل الذين تحدثنا معهم. إن أحلامهم وهواجسهم والسلام والحرب تدور كلها حول الضفة الغربية. وقبل التدقيق بشكل أعمق في النفوس المتناقضة سأقدم لكم شريحة أخرى من الغوش إيمونيم والتي لن تكون الأخيرة. إن الغوش يجسدون هذه الفكرة بكل نقاوتها، إنهم أسنان إسرائيل في سعيها المفترس.

وقوعنا على غوش إيمونيم من أصل شرقي كان مجرد صدفة. يوسي وإيلانا هما من اليهود الشرقيين. بهذا المعنى فهما لا يمثلان وضع اليهود الشرقيين. قليلاً ما تجد رواداً من بين هؤلاء. بالعكس فتقشف الضفة الغربية المزعج يتلاءم أكثر مع قناعات اليهود الغربيين خاصة المهاجرين الأميركيين الذين يصرون على ممارسة دينهم بكل حذافيره. هذا هو وضع المجمع السكني بورتنوا بين الخليل ونابلس.

لم أجد ضرورة في الذهاب إلى تكوا المستوطنة اليهودية الصغيرة التي تقع جنوب بيت لحم على بعد ربع ساعة بالسيارة من القدس. بعض الأميركيين والروس والأرجنتينيين والفرنسيين شيدوا هناك مستعمرة في وسط منطقة تغص بالعرب.

أخذاً من اسمه حجّة قام أموز أوز أشهر كتاب إسرائيل بتحقيق في تلك البقعة. بالفعل فقد عاش أموس أحد «صغار الأنبياء» في تكوا في القرن التاسع قبل الميلاد. فمن تكوا لعن الراعي المُلهم آثام الشعب اليهودي وتشرده.

صادف أموز أوز صعوبة في الحوار في بادىء الأمر؛ فهو مشهور كأحد الحمائم. أخيراً تكلم بعض المستوطنين. أولاً مناحيم وزوجته هارييت والعامل الكردي الذي يعمل عنده؛ سوف نعود إليهم في فصل آخر. لقد قالوا كلاماً شديد اللهجة. ثانياً تكلم أميركي لن نذكر اسمه شارحاً بالاستناد إلى النصوص لماذا وجوده في تكوا هو وجود شرعي.

نشر أموز أوز ريبورتاجاً في صحيفة دافار اليومية. لنسمع ما قاله الأميركي:

«في الغيتو بفرصوفيا قاتلنا بعد فوات الأوان. لم يبقَ منا سوى خمسين ألفاً. الجميع صُفّوا. من هنا علينا أن لا ننتظر قتلنا بل علينا بالقتل أولاً. من يدري ربما أرسل الله

العرب ليجربنا».

«إذا كنّا متصلبين وأقوياء، يمكننا التغلب على الآلام التي تبشر بمجيء المسيح. فأموز نبي إسرائيل قال هذا في هذا المكان بالذات حيث نقف. كان الله يتكلم بلسانه: «أعد أولاً الأسرى من شعب إسرائيل الذين سيزرعون الكرمة ويشربون النبيذ. أقمهم على أرضهم ولن يُقتلعوا من الأرض التي أعطيهم قال يهوه ربك». لقد جاء وقت تحقيق النبوءة. زرعنا الكرمة. أعمي كل من لا يرى أنها بداية الخلاص».

بعد حرب الأيام الستة مباشرة، قال أحد رجال الدين المتعصبين والمقربين من رئيس الوزراء ليفي أشكول: «علينا الإقامة بسرعة في الأراضي المحتلة. الملك حسين لا يريد السلام. هذه إرادة الله. بعون الله وبالاتكال على حنكتنا سنطرد العرب من نابلس والخليل كما طردناهم من حيفا». هزّ العجوز رأسه: «إذا كانت هذه هي إرادة الله في خوض تلك الحروب فهي أيضاً في الاضطهاد الذي عاناه اليهود». ثم دمدم بالعبري: «لست مطمئناً أبداً. . .».

عندما مررنا برام الله في طريقنا إلى تل أبيب توقف أموز أوز فترة بالقرب من ثلاثة من العرب يتمشون بالقرن من حائط؛ عجوزان وشاب.

«نعم قال الشاب، إننا نعمل عند اليهود فما الضير في ذلك؟

ـ لا تقل يهود، هذا كان قبل قيام الدولة، صحح أحد العجائز. حينذاك كان اليهودي فقيراً، ولكن كان يملك الذكاء. كان لا يجرؤ على قتل قط. الآن ربح الإسرائيليون القوة وخسروا الذكاء.

ـ قبل ١٩٤٨، يضيف العجوز الثاني، كان اليهودي يقول أريد زاوية لأعيش فيها. كنا نحن القوة فرفضنا. اليوم اليهودي يملك القوة والعرب يريدون زاوية يعيشون فيها، ربما استرجع العرب القوة مرة ثانية. . .»

«إنني متعب. أشخص سرطاناً ولا دواء لدي. . لم أعد أحتمل الكلام».

ميرون يتكلم كسد انفتح، ولأن لديه الكثير ليقوله ولأن من الصعب أنْ يكون نبياً في بلده ولأن الأجانب ربما يفهمون. أعرف ميرون منذ مدة طويلة ولكنني لم أر في حياتي ميرون الضخم في هذه الحالة من الغضب الشديد ومن الوضوح العاجز حواجبه الكثيفة كانت تعلو وتهبط. وفمه يتمدد. بدا كالجاموس. إنه نبي إسرائيل.

الشيء المهم عند ميرون أنه يبتعد عن العواطف. فحدته ليست سوى إطار تفكيره الرصين. ميرون بنفنيستي الذي كان مساعداً لرئيس بلدية القدس تيدي كوليك عمل عدة

سنوات مع نظرائه العرب في الضفة الغربية. كانوا يكنّون الاحترام لبعضهم البعض. جل ما يستطيعه ميرون اليوم هو التبشير في الصحراء.

على الحائط في منزله في أبو تور بالقرب من محطة القدس توجد خارطة كبيرة «للأراضي». إنها الخريطة الكاملة التي يمكن مراجعتها. تشير العلامات الحمر إلى الاستيطان الفعلي والعلامات الوردية اللون إلى الاستيطان المعتزم.

«منذ عدة أيام دُعيت للتحدث أمام ضباط احتياطيين من الحمائم. بعد أن انتهيت من الكلام قالوا لي: «طيب. إذا كان الأمر كذلك، فماذا تقترح؟» لا أعرف. . «إذن ما الفائدة من كلامك؟». في المؤتمر الخاص بالسلام وعند جماعة «السلام الآن» لا أحد يريد ميرون، لم يعد بناءً بما فيه الكفاية. إنهم في الحقيقة من البرجوازيين الصغار الذين يهتمون بنظافة أيديهم بين الغذاء وقيلولة السبت. إننا ندقق في الوقائع الصغيرة وليس في النتائج. خمسون منزلاً في أفرات؟ لكثرة ما عددت من الأشجار أرى الغابة».

«بيغن يعرف ماذا يريد. لديه رسالة وهو يُبعد عن طريقه كل من يعرقله. ولكن استعمار الضفة الغربية شبيه إلى حد ما بارتفاع الضغط. في البداية تشعر بانزعاج بسيط غير مؤلم ولكن بعد عشر سنوات تفرط».

«الإسرائيليون لا يفكرون إلّا بالمنازل والسيارات والتليفزيونات وبجميع الأشياء التي حرموا منها. يقولون لي: «لأنك تحب العرب، أنت أدرى الناس بهم يا ميرون. إنهم كالأطفال الانطوائيين، لا شيء ينفع معهم. نحن لا يحدث لنا شيء لأننا يهود. . من يجرؤ على تعليمنا ما هو أخلاقي وغير أخلاقي في حين العالم غارق في الفساد؟». جوابي هو أن تصرف أمتنا في الظرف الراهن الانتصار النهائي للنازيين. يجعلون منا أيخمن. إذا فعلت كعرفات أصبح عرفات».

يجب أنْ أتدخل هنا. أخاف من أنْ يُفهم ميرون خطأً ومن أنْ يُؤول بغير معنى. إن ميرون هو مواطن إسرائيلي صعب المزاج، لا يمر بباله ولو لحظة واحدة تشبيه شعبه بالنازيين، حتى حين يقصف جيش الدفاع الإسرائيلي بيروت أو يفرض النظام في الخليل. . كل ما يطالب به وما يصرخ من أجله هو «الخطر الأخلاقي الذي تُلحقه بالأمة السياسة التي تعتبر أن الغاية تبرر الوسيلة. هل ميرون على حق أم على خطأ: لكن أسلوبه واضح.

«يقال إن العالم عندما ينظر إليه من هنا يبدو منقسماً إلى قسمين: لم يعد يوجد قيم وطنية. العالم كله ضدنا؟ بالتأكيد وعلينا أن نخاف، والخوف هو مستشار سيىء».

«علينا إلغاء الصبغة اليهودية والعربية عن أزمة الشرق الأوسط. نحن أمام مشكلة

سياسية من الخطأ اعتبارها فريدة. إنها مشكلة عالمية. إذا بيرون أو لا؟ ديغول أو لا؟ الجزائر، أفريقيا الجنوبية؟ ولبنان هل هو فيتنام؟ أكنا على خطأ أم على صواب فالمقارنة مسموحة. وضعنا ليس وحيداً. لا تسمح لأحد بأن يقول لك: «أنت لا تعيش هنا ولا تستطيع أنْ تفهم ما يجري. إننا من هذا العالم».

«في الأصل، كانت الحركة الصهيونية غير تاريخية. ولكن حين تجسدت هذه الحركة أصبحت جزءاً من التاريخ. مرتان وليس مرة واحدة. لا ينفع الصراخ ولا التلويح بألواح الوصايا. أمامنا مهمة علينا القيام بها وهذه المهمة ليست ملائكية ولا شيطانية. لا يمكننا أنْ ننخرط في التاريخ لكوننا يهوداً وإسرائيليين في الوقت نفسه. إذا كانت اليهودية مزاجاً عقلياً من الأفضل إذن عدم المجيء إلى إسرائيل لصنع التاريخ. أنظر لقد أضحت عبقريتنا عبقرية مسلحة.. باشفي سنجر وشاوول يبللو لا يعملان هنا. ليس من الصدفة أنْ تزدهر العبقرية في الخارج».

«إن المثل الذي أعطيته عن الحصانين اللذين لا يمكن ركوبهما دفعة واحدة أو القطارين هو مثل بسيط جداً. إن قطار بيغن يتجه بشكل مستقيم نحو الحرب. أما الثاني.. أنا حائر. أتمنى وجود لجنة استقبال عند نقطة الوصول. يوحي العقلاء أنهم سيظلون على الرصيف، إنها صورة مخيفة».

«هل تحتفظون بالأراضي؟ ماذا ستفعلون بالعرب؟ هل هم غرباء على أرضهم أو مهاجرون بالرغم عنهم؟ من الصعب والمستحسن أنْ يقرر الإنسان ولكن بيغن يوحي كأنه عرضة للقدر «أنا لا أفعل شيئاً، الآخرون هم الأشرار وهم الذين يجبروني للدفاع عن نفسي..». من الصعب بهذه الطريقة البت بالأمر. فنحن عادة تكون ردة فعلنا أمام تقلبات التاريخ «الطبيعي» بوطنية ذات حق إلهي، أكل الدهر عليها في أوروبا وشرب. هل نضع إسرائيليين في المعابد اليهودية القديمة؟ لما لا؟ ولكن علينا أنْ نحاول غداً بعد السلام وليس قبله، ليس حين تكون كفة الميزان تميل لصالحنا وحين نستعمر أعداءنا بالقوة».

«لا نزال نظاماً ديمقراطياً على الطريقة الغربية. يوجد انتخابات. كيف يمكن استبدال الخيارات وتحويل الغرائز القوميّة؟ بتقديم حل آخر للرأي العام؟ يمكن لعرفات أنْ يُساعدنا كما يمكننا مساعدته. هناك أكثرية في إسرائيل لا تمانع في إعطاء بعض الأراضي مقابل سلام بكل ما في الكلمة من معنى. ولكن لا نزال نتمسك بأسطورة؛ العرب سيرفضون بقوة.. بالرغم من ياميت وحين اقترح السادات السلام مقابل سيناء صوّت الكنيست بأكثرية ٨٤٪ مع المشروع مما اضطر بيغن للإذعان. هذا ممكن مع عرفات شرط أن نتكلم كلانا بوضوح. لذلك تعلن جماعة الغوش إيمونيم بأن السلام مع

مصر ليس سلاماً حقيقياً؛ وإلّا يفقدون مبرر وجودهم».

«إن تحقيق السلام هو أصعب بين فرنسا مثلاً وألمانيا: باريس وبرلين موجودتان في القدس. إنها حكمة سليمان التي تقول بأنه يجب قطع المولود من دون قتله إلى قطعتين لا يمكن الاستغناء عن أي منهما. إذا تقدم عرفات باقتراح ورفضت إسرائيل أو بالعكس، تتوضح الأمور على الأقل. الطابة تكون في المعسكرين عكس ما يدعي البعض».

«حين أعود إلى القدس القديمة لا أشعر بالذنب بل بالحزن. نحن والفلسطينيون، كلانا على حق. المسألة ليست فيلم كوي بوي بين الأخيار والأشرار. بالرغم من ذلك، فحين تقع الواقعة سيكون هناك مذنبون من كلا الطرفين. الشرخ هنا، لأن إسرائيل بالرغم من قوتها ستكون الخاسرة في لعبة الانتظار، خاصة حين يكون الاستيطان في الضفة الغربية بمثابة الأمر الواقع».

ميرون مؤرخ متخصص بالعهود الصليبية. فهو مدرك لما يقوله.

«العرب ليسوا مستعجلين مثلنا. أنظر إلى الصليبيين والجزائر. شعورهم بأن الوقت يمر لصالحهم والمسألة لا تتوقف عند جيل واحد. أما نحن كغربيين فصبرنا ينفد بسرعة. بيغن غربي جداً من هذه الناحية واليهود الشرقيون هم على خطأ حين يتصورونه عكس ذلك؛ اللهم إلّا إذا كانوا ينظرون إلى البعيد. يمكن لسيطرتنا التي لا تقهر أنْ تستمر. إسرائيل قوية مادياً إنْ لم نقل سياسياً والسكان العرب في يهودا والسامرة يتأقلمون مع الوجود اليهودي. ولكن الاستيطان سيؤدي إلى موجة قومية ودينية رجعية في إسرائيل سيظهر فيها الليكود يساري متطرف إذا ما قيس بغيره...».

«الشرقيون يشعرون بحاجة لأن يكون العرب أدنى منهم. إذا كانت أصوات اليهود الشرقيين تشكل قوة بيغن الرئيسية فهذا يرجع بجزء منه على الأقل إلى كون بيغن متشدد مع العرب. إنها قضية انتقام. بيغن يفتدي الشرقيين من خطيئة مشاركتهم في الحضارة العربية. الشرقيون لا يشاهدون الأفلام العربية في السينما بل على التليفزيون في بيوتهم. يفضلون البرامج العربية. هناك انجذاب ونفور في آن. إنها ثقافة لا يستطيع اليهود الشرقيون طمسها. إنها جزء منهم. لقد حاول حزب العمل تغريبهم. وصل بيغن، وبالرغم من كونه يهودياً غربياً فهو «نظيف» لأنه كان في المعارضة، كما هو «نظيف» الجنرال موتا غور الذي كان في واشنطن صدفة أثناء حرب الغفران والذي استطاع بعد عودته أنْ يصبح على رأس القيادة العامة».

«لا يوجد حل اليوم. حزب العمل يريد أنْ يرد الفلسطينيين إلى عند حسين كي يقضي عليهم أو يقضون عليه. عندئذ تتولى إسرائيل دور الحكم وتغسل يديها من دم ما

يجري. لا أحد يريد أنْ يدفع الثمن. الجميع يخافون من ناخبيهم. بيغن شريف لأنه لا يقترح شيئاً».

ميرون متشائم حتى الموت.

«ما العمل؟ علينا أن نعلن على الأقل رغبتنا في الحوار. علينا أنْ لا نقول هذا «السعر الأخير» قبل أنْ يحين الوقت. إشترِ شريحة اللحم المثلجة بكذا ولا تدفع أي قرش زيادة. مر أمام الواجهة وأعطِ الانطباعَ بأنك مهتم كي يتسنى للنظرات أنْ تلتقي؛ لا تستعجل الأمور. . . كل يوم وكل مستوطنة جديدة تعمق الهوة. . .»

في نهاية القرن التاسع عشر كان يوجد في فيينا شاب غريب الأطوار، مجنون، يعيش في حالة من الهذيان المطلق التناقض بين الشتاتيتل (غيتو حيث يعيش اليهود الغربيون) والانفجار الفكري للحركة الصهيونية.

ولد أوتو ويننغر عام ١٨٨٠، وانتحر عن عمر يناهز الثالثة والعشرين. كان مهتماً كثيراً بغليان اليهود الذين كانوا أثناء انفتاحهم على العالم المعاصر يقلبون صورة هذا العالم بقوة عبقريتهم: زفايج، كوكوشكا، وتيودور هرتزل وآخرون كثر. ويننغر شبيه بكافكا مع فارق بسيط وهو أنه أقل تعقلاً. وبسبب تمزقه بين التأقلم وثقل يهوديته اعتنق البروتستنتينية قبل أنْ يترك المسرح باكراً من باب الموت.

لا يجوز تلخيص فكر ويننغر الانتحاري الذي عبر عن البوادر الأولى لعلم النفس التحليلي بهذا الشكل. في قمة هذيانه كان الكاتب يهتم بثوابت العداء للسامية إلى درجة التنكر المضحك لهذه الثوابت. اليهودي أنثى تنقصه الشجاعة والرجولة. أما الأري فبالعكس نبيل وقوي. يعرف كيف يتصرف وكيف يقاتل؛ هذا جوهر طبيعته. الآري إذن يحتقر عن حق اليهودي العاجز. إن ويننغر من وجهة نظر عالم النفس سيقع بكل طيبة خاطر في الهاوية الأوديبية لشعوره بالذنب. فالعداء للسامية هو على حق حين يعاقب اليهودي. إذا كان قليل التماسك فعليه أنْ يرضى لا بل أن يطالب بالذل الذي يحقق جوهر شخصيته. عليه أنْ يلعب بمهارة خوفاً من فقدان ذاته في دوره كضحية.

إنطلاقاً من هذه الترسيمة، يبدو أن المكان الطبيعي لليهودي هو في الدياسبورا. حين ينفصل اليهودي عن الآري يفقد وجوده. ويننغر كان إذن مقتنعاً أن مساعي هرتزل كانت سيئة ولا فائدة منها. أكثر شيء يناهض طبيعة اليهودي هي الصهيونية المناضلة؛ وإذا ظل هرتزل متمسكاً بمواجهة الطابع الأنثوي العبري فسينتج عن ذلك كوارث بالضرورة.

هل هذا الكلام هو مجموعة اضطرابات حقيرة؟ من كل بد. والدليل على ذلك أن ويننغر نفسه لم يجرؤ على تحمل تناقضاته المازوشية. بالرغم من كل ذلك لا يزال لكلام ويننغر أصداء في الأعماق غير الواعية لإسرائيل وتشكل هذه الأصداء مادة للنكات.

في بيت سوكولوف استعمل آموس كنان وبن بورات لهجة ويننغرية كي يصفا لي بضحكتها الصفراوية العلاقات «غير الطبيعية» التي تربط بيغن بأرييل شارون: العجوز الذي خرج من الغيتو والعملاق الأشقر الذي ولد في إسرائيل. صحيح أن بيغن قوي ولا يبكي ولكن أليست قساوته وسيلة لطرد أشباح الغيتو التي تتراقص حين وصول الكوزاك العطشى للبوغروم (استئصال اليهود من روسيا). تخيل بيغن متنكراً بزي حاخام خائفاً، وشارون بزي جندي في فرقة اس. اس. «في الحقيقة بيغن يخاف جداً من شارون، وفي الوقت نفسه معجب جداً به. إنه كتوأمه الغويم (اسم يطلقه اليهود على الشعوب غير اليهودية وبخاصة على المسيحيين) ومحاربه الذي لا يقهر. أما الآخر الآري الأشقر يخاف من بيغن. إنهما ثنائي رائع».

ويننغر يهاجم الصهاينة: «ماذا ستفعلون في فلسطين؟ دولة؟ لستم من هذه الطينة. لن تنجحوا سوى في بناء كاريكاتور عن الآرية؛ وستفلتون الحقد من عقاله».

أوتو ويننغر الذي يعرقل المسيرة الملحمية التي بدأت ظل غير معروف. . ها هو يعود من جديد كأن ساعته قد دنت. .

لست أنا من نبش الشاب الذي ولد في فيينا، ولم أكن لأجرؤ على ذلك. قبل وصولي إلى إسرائيل كنت أجهل حتى وجوده. المسؤولية تقع على الكاتب المسرحي يوشوا سوبول الذي جعل من ويننغر بطلاً لمسرحيته «روح يهودي» التي نالت نجاحاً كبيراً في حابيما في تل أبيب وفي المسرح البلدي في حيفا والقدس وفي كل الأمكنة التي عُرضت فيها. هاجم المتدينون المسرحية لأنها تتعرض حسب رأيهم للقيم الصهيونية. لا أظن أن يوشوا قد تهجم على أحد. فالكاتب الشاب والعضو الفعّال في حركة الحمائم العسكرية «لكل شيء حد» لا يشير أبداً أنه كان على اليهود أنْ يظلوا متمسكين بـ«طبيعتهم» في غيتوات الدياسبورا. ولكن ربما الثنائي بيغن وشارون قد عملا جاهدين لتخطي ويننغر وتحقيق الانصهار بين اليهودي والآري كما هو موجود فيهما».

«منذ انتصارات حرب الأيام الستة، يقول سوبول، بدأت رغبة التملك تأخذ مكان الرغبة الثقافية والإصلاح والإبداع؛ نتمسك أكثر فأكثر بالخيرات المادية بينما في السابق كان العمل والهم الروحي يستحوذان على اهتمامات الناس؛ إن المحتل هو مستعمر أكثر منه رائد. هذا هو الانقلاب في القيم الصهيونية. هذا مكتوب على قفا تنبوءات أوتو

وينينغر».

سوبول لطيف جداً؛ زوجته رائعة وولداه فاتنان. شقته الصغيرة في شارع ملشيت في تل أبيب شبيهة بشقق المثقفين الباريسيين.

«الكثير من أصحاب الرواتب الشهرية يضاعفون رواتبهم بالبورصة».

سوبول يتكلم قبل الانهيار الاقتصادي وخيبات الأمل..

«لشراء منزل في الضفة الغربية بواسطة سلفات تسمح اللعب بالبورصة بالأموال التي نحصل عليها ببيع الشقة القديمة في لود أو في بيتا تخفا، فإننا نطمس كل حس سياسي سليم. إن الشرقيين يعتقدون أن بيغن هو من أصل مغربي وأن حابيما هو مسرح يهودي شرقي وكذلك متحف روبنشتين وبأن كل هذه الألاعيب قد أُخترعت خصيصاً من أجل إهانتهم. وتشير الإحصائيات أن تأثير اليمين المتطرف يزداد في أوساط الشبيبة: لحزب تحيا ثلاثة نواب في الكنيست ويجمع في انتخابات الثانويات ٢٥٪ من الأصوات و٣٦٪ في مدرسة أعرفها في تل أبيب. إن الجيل الذي ولد بعد حرب الأيام الستة تعود على «إسرائيل كبرى» ولا يستطيع أنْ يستوعب التنازل عن قسم من يهودا أو غزة».

«لا يزال هناك سيارات قديمة قد تم إصلاحها. أثناء زحمة السير يمضي سائقو التاكسي وقتهم بتعداد ماركة السيارات ونوعها: «هذه ٨٢ وتلك ٨٣. رأيت من فترة في شارع ديزانغوف شاباً يركب في سيارة بورش ٩١١ سوداء اللون لها رفراف لماع جديد؛ تساوي ما بين ٣٠٠ و٤٠٠ ألف فرنك. كيف حصل عليها هذا الشاب؟ تبدو عليه علائم البحبوحة. ما من أحد إلاّ ويسحب فوق حسابه من البنك؛ الناس تهزأ من الذين لم يتخطوا حسابهم. العادات تتسيب، لا أقصد الأخلاق، بل التربية الوطنية؛ كل واحد يا ربي، الجو أصبح موبوءاً».

«أحد أصدقائي القدامى قال لي إنه عرف من قبل أزمة كهذه ضمن مجموعة يهودية؛ نوع من الرقص على البركان. كان ذلك عام ١٩٤٢ في غيتو فيلنا. قام اليهود والله أعلم لماذا، بنوع من الاستراحة خلال مسعاهم الآري في تنظيف كل شيء. لم تعد الناس تفكر سوى باللهو. ربما سأكتب مسرحية حول غيتو فيلنا».

دومينيك عاشت في فرنسا حيث ولدت حتى عمر الخامسة والثلاثين. اختارت أن تعيش في إسرائيل منذ عشرين سنة لأسباب لم تلعب الصهيونية فيها دوراً كبيراً: الرغبة في الاندماج بمجموعة مميزة هي التي حكمت تصرفها. الحلم في التجانس.. لا تزال تحب إسرائيل، لكن الحلم تلقى عدة ضربات. دومينيك منزعجة من الشرخ.

«بدأت المسألة شيئاً فشيئاً. لم يكن ثمة مشكلة مع الشرقيين في البداية. لم أكنْ أدري أن هناك مشكلة؛ ربما لأنه بدا لي طبيعياً أن جموع المهاجرين الجدد ستأقلم رويداً رويداً.. معنا. وكنت أرى أن اليهود الشرقيين هم أكثر حيوية ومرحاً من الأوروبيين؛ نوعاً ما مثل أبناء المستعمرات في فرنسا».

«اليوم ينعت الشرقيون اليهود الغربيين ـ ما عدا بيغن ـ باليساريين المفاوضين غير الوطنيين. بهذه الطريقة ننقسم على بعضنا. أثناء أحد النقاشات تكلمت عن قلقي بعد صبرا وشاتيلا ومنظر النساء العربيات اللواتي رأيتهن على التليفزيون يتخبطن تحت المطر بالوحل في أحد المخيمات. أجابني شاب مغربي بتهكم: هل تفضلين أنْ يأتوا ويغتصبوا ابنتك؟».

دومينيك هي أستاذة تاريخ الفن في جامعة القدس.

«يجب الاعتراف بأنه لا يوجد طلاب جيدون من أصل شرقي في المادة التي أعطيها. لماذا هم أقل نجاحاً من فرنسا أو كندا؟ الظروف أو ربما، الهجرة العشوائية، ربما يعيشون هنا عقدة تجاه الغربيين. لم أرَ أهل الطلاب الشرقيين في إسرائيل لوحة لجيوتو بينما الغربيون يعرفون ما هي».

«جلّ زملائي في الجامعة من الحمائم. لكنهم لا يتكلمون، ما النفع؟ وفي حال وضع الليكود يده بشكل جدّي على التعليم؟ تصبح المسألة عندئذ صعبة والجو خانقاً. لا أحد يدري كيف تنقلب الأمور. أما الطلاب فلا يتحركون. كلما صغر سنهم كلما اعتقدوا أنّ الضفة الغربية كانت دائماً لنا وبالتالي لا مبرر للتفاوض حولها. لم أعد أحتمل، خاصة عندما أسمع مثقفين أذكياء يدافعون عن مبدأ الضم بالقوة؛ من نوع يوفال نعمان...».

«لن أتكلم بعد اليوم إلاّ مع أصحابي الحميمين».

ـ و«السلام الآن»؟

ـ لا أؤمن بها كثيراً. في النهاية لا أدري..

«أعرف عدة عائلات اشترت منازل في معال أدوميم على طريق أريحا. يؤجرون شققهم في القدس بأغلى مما يدفعون فائدة لمنازلهم الجديدة. أحدهم اشترى سيارة جديدة لزوجته بالأموال التي ربحها بالبورصة. البستانيون والبناءون وعمال البلدية والعمال الزراعيون الذين يعملون عندنا كلهم من العرب. صحيح إنهم يكسبون قوتهم ولكنهم يعيشون مثل المهاجرين في بلدهم. يصلحون الأشياء العتيقة التي نرميها في سلة المهملات لكي يستعملونها من جديد. ألهذا أتيتُ إلى إسرائيل؟».

هكذا يتكلم الحمائم المتنورون الذين يصرون، قليلاً أو كثيراً، على عدم الذهاب إلى الحرب. إنه لأمر مزعج ومؤلم إلى درجة أنه يصبح وسواساً في النهاية. ستسمع أصواتاً مختلفة جذرياً. ولكن قبل ذلك سأسمعكم صوت صديقي جورام تل.

جورام وزوجته وبناته كأنهم من البرجوازية الكلاسيكية المثقفة. عندهم شقة فخمة تطل على جبل سيون، وعلى كنيسة العذراء وعلى المدينة القديمة. إنهم ميسورون ويحبون الكتب والموسيقى. ولكن في إسرائيل المسألة مختلفة، ليس دائماً.

محام عالمي لامع، يعيش جورام حياة سعيدة. زوجته نيكول من عائلة صهيونية عريقة من الجزائر، تدير مكتب نادي البحر الأبيض المتوسط في تل أبيب. في أحد الأيام تركت العائلة كل شيء وأقامت في كيبوتز مسكاف عام على الحدود اللبنانية. لقد كانوا هناك عندما دخل إرهابيون إلى الكيبوتز وأخذوا عدة أطفال كرهائن. وقع عدة قتلى. بعد خمس سنوات من قطف التفاح رجعت العائلة إلى المدينة لتبدأ حياة ثالثة، ستكون ولا شك حياة سعيدة لولا الشرخ.

إن عنف جورام آلمني. لقد أصبحت فكاهته لاذعة ومُرّة.

«منذ صبرا وشاتيلا طفح الكيل. لم أعد أعرف اسمي. أعيش في كابوس. صحيح إننا كنّا ٤٠٠ ألف في المظاهرة، أو ٥٠٠ ألف ناخب بالإضافة إلى الأصحاب. بالنسبة لمليونين ونيف... ماذا ينتظر أصحاب القلوب الطيبة لتنظيم معارضة بناءة وفعالة، فلم يمر الوقت بعد؟ «السلام الآن»؟ إذا كان الهدف هو تحريكي، فأفضل أن أفعل هذا في البيت».

«أصبح هذا الشعب أكثر فأكثر بيغيني وسخيف. غداً إذا وقعت اعتداءات جدية للإرهابيين في الضفة الغربية المحتلة، وأكيد أنها ستقع، سيذهب الجيش لتصفية القواعد المفترض أنْ يكونوا من «الحيوانات على قائمتين» في سوريا والأردن. لقد قمنا بهذا العمل في لبنان أكثر من مرة. الحرب الوقائية أصبحت عادة. فكيف يحق لنا أنْ نلوم القذافي على ملاحقة أعدائه السياسيين في الخارج؟

ـ على كل حال ليس هناك من خطر فاشي أو انقلابي كما كان الأمر عندنا أيام O.A.S.

ـ انتظر لحظة، الهجرة تهبط للصفر أو ما شابه؟ إنها غلطة بيريز. التضخم يرتفع؟ إنها غلطة بيريز. الفلسطينيون يتحركون في الخليل؟ إنها غلطة بيريز. مع هذا فغالبية الناس لا تكره العرب بل تتجاهلهم».

«سألوا الأطفال في المدرسة: «من هم اللاجئون؟ ـ يأتون من لبنان، ويوجدون في

مخيمات في لبنان» من يتذكر أن هؤلاء اللاجئين يأتون من عندنا؟ من جهتهم فاللاجئون لا ينسون أبداً».

«إنك تتوهم. لا تزال إسرائيل نسبياً كما جرت العادة ديمقراطية ومتسامحة، لكن أصبح من الصعب كالسابق مصادقة أناس من المعارضين، فجأة الجو يصبح حامياً».

«في كريات شمونة المستوطنة التي تقع بالقرب من الكيبوتز الذي كنا نعيش فيه سابقاً، لم يستطع بيريز أنْ يلقي كلمته، وطُرد مرة أخرى من المشاركة في عيد مغربي. أما بيغن فيستقبل أحسن الاستقبال. إنه يهودي شرقي بولوني، يحب الكوسكوس كما يدعي الشرقيون. إنه من عندنا، يشتم الأميركيين. ليس اليهود الشرقيون من يدفع بيغن بل العكس فهو الذي يدفعهم. إذا مات بيغن على الأقل ننتهي من هذا المنحى التبسيطي. حسن أم لا ؟».

«لم نعد نتحمل العيش في هذا القدر الحامي. حروب وتمزق وحقائق ملتوية وتخريب منتظم لأثمن شيء عندنا؟ لا، الوضع لا يُحتمل، تلزمنا عدة سنوات في اليابان لتغيير الجو...».

٤

أصحاب اليقين

البطل اليهودي

تغيّر في السلوك. إننا نقفز فوق الشرخ للجهة الأخرى من إسرائيل. من الوجوم إلى اللعنة ومن الشك إلى اليقين. هذا اليقين الأكيد الذي يجعلنا نتساءل، إذا. . .

لكل أسلوبه، ليس جماعة غوش إيمونيم هم وحدهم المؤمنين ولا اليهود الشرقيون في كريات شمونة أو كفار شالم.

«بقيت تسعا وعشرين سنة بالقرب منه. لقد أسعدني الحظ بمرافقة قائد يهودي عبر الصحراء ومحارب عظيم من أمتنا. أمضى أجدادنا أربعين سنة ليقطعوا الصحراء. أما هو، وإن كان يسير بسرعة، ما همّ، فلديه الوقت. لذلك فهو قوي جداً في هذا العالم المنحط المليء بالنيون والبلاستيك وبروح التخريب. فبرفقة قائد مثله أحبه مثل أخ أكبر نسير نحو سلام دائم، هل تسمع، سلام دائم لإسرائيل وليس سلام مؤقت ينذر بالموت».

«بالرغم من العداء الذي يكنه له أخوته فلا شيء يثنيه عن العمل، يكمل طريقه ويتجاوز العقبات. ليس معقداً ولا صلفاً. يحب الحياة والناس، إنه تماماً عكس دراكولا، الصورة التي يضعها محترفو العلاقات العامة داخل عالمهم النذل والحقير والذي لا دين له! عالمهم الممتلىء بالكرتون والنيون والبلاستيك. إنهم غير مسؤولين هؤلاء الذين يسرقون الانتصارات. أقول لك بكل صراحة: لا أحاول أنْ أكون موضوعي مع القدر، مع مأساة شعبي».

إن محارب أمتنا العظيم هو من دون أدنى شك، الجنرال أرييل شارون وزير دفاع

دولة إسرائيل. أما الذي يُهاجم هكذا النيون والبلاستيك ليس نبياً في أحد الأحياء؛ إنه أوري دان الصحافي السابق والكاتب المشهور والناطق الرسمي واليد اليمنى للجنرال. يتكلم ويجلجل هكذا قبل نشر تقرير كاهان وخسوف «القائد» الجزئي. ماذا يقول أوري اليوم؟ الشيء نفسه.

لا لسنا في خمارة يملؤها الدخان في ضاحية سكانها من اليهود الشرقيين، ولا في مغارة للنُسّاك مغطاة بمقاطع من ألواح الوصايا وببعر ابن آوى. أعتذر عن تفخيم أسلوبي فحمى أوري معدية. مكتب الناطق الرسمي في وزارة الدفاع واسع. جنديات شابات تُقدّمن لنا السندويش والكوكاكولا. من النافذة تبدو الأنتانات الرائعة والرادارات المتحركة للنظام العسكري الإسرائيلي للمواصلات؛ أحد أهم الأنظمة في العالم. أوري دان البهي الطلعة لا يلبس عباءة صُنعت من جلد الماعز ودرع مثلمة. لونه برونزي ويلبس بلوزون جميلة منحطة جداً.

«يجب أن ننتهي من اعتبار اليهود مخلوقات ثانوية، بالكاد يمكن اعتبارها مخلوقات إنسانية، تعيش تحت رحمة الآخرين. نعامل كأبناء الشيطان، كأعداء الله. إننا نمثل الكراهية. يجب أن يتغير كل ذلك».

يلوح أوري بسبابته ويعلو بصوته..

«إن اليهودي كأريك(*) ليس إنساناً خارقاً، بل إنساناً حقيقياً وطبيعياً وشرساً، كهرتزل وبن غوريون وبيغن. هناك مؤامرة في الصحافة بما فيها صحافتنا تحاول أن تجعل من أريك مجرماً وجزاراً. إنها دعاية كدعايات غوبلز(**). أين الرأي العام؟ يلزمني ساعات لا بل أيام كي أفسر لك. الصحافيون في إسرائيل هدامون، نعم يهدمون ذاتهم، لا يدركون بأنهم سيدفعون هم وغيرهم ثمن القذارات التي يخترعونها كل يوم على التليفزيون».

هذا الكلام هو إشارة إلى دان شماما وإلى أغنية الطائرة والنعش.

«كأن هذه المازوشية هي من طبيعتنا، تظهر تاريخياً أثناء المعارك الكبيرة في إسرائيل. إن انهيار «الهيكل الثاني» كان نتيجة صراعاتنا في القدس؛ كان أخوتنا يمزقون بعضهم بعضاً في حين تقتحم الألوية الرومانية أسوارنا. واليوم تتكرر المسألة من جديد، فالقدس مطوقة بالألوية العربية والأميركية والروسية والفرنسية. ولكن بفضل الدولار يكفي تلكس أو اقتراع في الأمم المتحدة، لكي يقطعوا عنا المعونات؛ بل لا يعود هناك من

(*) أرييل شارون.

(**) وزير الدعاية في ألمانيا الهتلرية.

حاجة لإرسال قوات تعسكر تحت أشعة الشمس والرياح الخمسينية».

«صحيح أن هنالك جنوداً يفكرون بهذا وذاك. كل شخص لا يعرف من هو أبوه يطرح نفسه ملكاً. كل شيء قابل للنقاش. لدينا عدالة خارقة وكذلك ديمقراطية. من كان تجرأ على فرض تحقيق كهذا غير القضاة الإسرائيليين؟ أين هي لجنة التحقيق عن الكتائب الفيتنامية التي تعتبر أعمالها أسوأ بألف مرة، قل لي، أين هي؟».

خذ نفساً، سأعطي الكلام لأوري دان؛ ليس لأنه مضحك؛ فغالباً ما يكون جدياً. من الصعب علي أن أنحت في حديثه؛ كل شيء له معنى. إنه كجماعة الغوش يعبر عن هاجس إسرائيل. الكثير ممن يوشوشون هم في الحقيقة صدى لصراخه، يضاف إلى ذلك أن أوري دان هو ذو شأن. معلمه تراجع، ولكنه سيشفى إذا ما عادت الأمور إلى نصابها غداً. مهما كان فشارون هو الذي اختار أوري دان وهذا الأخير رافقه وكان ممثلاً له لعدة سنوات.

«هل تعتقد أن شارون يخاف من الصحافة والتليفزيون؟ لا. أين تجد بلداً بهذه الحرية حيث يتكلم القائد العسكري للشعب بكل هذا الوضوح؟ لن تجد. لا الديمقراطية ولا المازوشية يبرران الأكاذيب التي ترد في أكثرية الصحف».

الحمد لله أن أكثرية الشرقيين والمهاجرين الجدد لا تقرأ الصحف أبداً. فاللغة العبرية صعبة بالنسبة إليهم. لقد مضى على دومينيك عشرون سنة في إسرائيل ولا تزال تكتب محاضراتها في تاريخ الفن باللغة الإنكليزية لكي لا تُخطىء في القراءة. شاوول فريدلندر يعترف أن شعيرات الكتابة العبرية لا تزال تزعجه. ماذا تقول في هذا المجال عن المغاربة من الجيل الأول..

«بيغن وشارون يتحملان مسؤوليتهما. يُطرد الإرهابيون من لبنان، يصعدون إلى الباخرة وبعدها وداعاً. إنه عمل فريد في هذا العالم الذي يتحالف مع الإرهاب. أعطوهم كذا وكذا يمكن أن يصبحوا لطفاء. شارون يعمل من أجل سلامة العالم كله ضد الإرهابيين والمتعصبين والمخربين. رغم كل ذلك يسمح الصحافيون لنفسهم بالانتقاد. ليس لديهم أي حس مهني؛ يكتبون ما يحلو لهم».

«منذ خمسين سنة، أي قبل إنشاء دولة إسرائيل بفترة طويلة، ارتبطت المؤسسة الصحفية بسلطة حزب العمل التي حكمت دائماً الأمة. إني أعرف الخبثاء فيما بينهم عن ظهر قلب».

«أنا أعرف الحقيقة. شارون ليس جنرالاً أجنبياً بل يهودياً، أجبر الإرهابيين على دفع ثمن الدم. وبيغن هو صديق له».

«في ١٩٧٧ قبل الانتخابات، هل من صحيفة واحدة ساعدت بيغن؟ لا. كانت الصحف تخفي الوقائع وتشوه كل شيء. لا بل ساعدت بيريز وبادين. والنتيجة هي انتصار بيغن. أصيبت الصحافة والقوى العمالية والكيبوتز والمثقفون بالدهشة. «انتبهوا فنحن ضمير الشعب، أما الآخر فهو الحرب، هو ديير ياسين» ترددت هذه الأكاذيب في الخارج ثم ما لبثت أن ارتدت إلينا. هذه هي الصحافة التي تنصب نفسها الوكيل والشرطي لفضائل إسرائيل».

يمسح أوري مكتبه بكفه ويرمي في الهواء نُتفاً من أوراق الجرائد التي تتساقط ببطء.

«يزعمون أن بيغن يقف عثرة بوجه السلام بسبب المستوطنات في يهودا والسامرة، بينما نحن في طريق تغيير خارطة العالم. وليس من يقوم بهذا العمل سالان أو جوهود بل جنرالاً يهودياً. أنظر، تركب سيارتك وتصعد إلى قمة هضبة في يهودا وتتأمل الأفق حولك، هنا تُشاد قرية وهناك مدينة وهنالك منزلاً لأولادي على أرض إسرائيل. رائع. إننا أقوياء وعادلون ولن توقفنا عن سعينا النمائم ولا حتى تجار الهيكل الذين يصرخون «يقتلون جنودنا». حاول أنْ تجد عشرة رجال من الصالحين في سادوم الرأي العام. من الصعب جداً. للتخلص من شارون فهم مستعدون «بحرطقاتهم» السياسية للقضاء على إسرائيل نفسها».

«خذ صحيفة ها آرتس: «إذا كانت معاهدة السلام في لبنان ستقوي موقع شارون فإن هذا الربح سيكون خسارة «ما القضية إذن؟ من الأفضل أن تبقى منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان لقتل أطفالنا، إذا كان رحيلها سيستفيد منه شارون ؟ يفضلون أنْ يُقضى عليهم من أن يعترفوا بقيمة شارون. وذلك ليحققوا أرباحاً ببيعهم برادات لكندا، نعم لبيعهم البلد».

مرّت فكرة خبيثة برأسي وأنا أستمع: لو لم يكن أوري يهودياً لكان صفّى حساباته مع هؤلاء الرعاع الأثرياء من اليهود البلاشفة.

«البركة تحمي شارون، وإلاّ لكان قُتِلَ من قبل العرب منذ فترة طويلة ولكان صُفّي سياسياً من قبل غيرة أخوانه العمياء. ولكن ها نحن نفقد السلام مع مصر ولبنان، ونقيم نهائياً في يهودا والسامرة. تدمير المفاعل النووي العراقي؟ زعموا أنه مستحيل. دَمّر أوزيراك وأخطأ الخبراء. طَرْدُ منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت؟ مستحيل. طردهم. شارون هو المنقذ عام ١٩٦٧، هو الذي عزّز الوضع حين كنّا مطوقين وهو الذي كسر الجيش المصري، إنه رجل القدر على قناة السويس سنة ١٩٧٣... طرده الآخرون من الجيش لأنه الأفضل. أليس من غيرة بيننا نحن اليهود؟ من يقول هذا؟ بالنسبة

للصحافيين شارون كاذب وحقير وجزار. إنه الشيطان بعينه».

«عمر شارون هو أربع وخمسون سنة. والدته التي يُقدر عمرها باثنتين وتسعين سنة لا تزال تزرع الأفوكا في الموشاف الذي تقيم فيه. إذن لا يزال أمامه متسع من الوقت ويمكنه أن يخلف بيغن. لكن الآخرين يعارضون ذلك: «لا. لا نريده، سيقضي على امتيازاتنا نحن الذين نحب أن نسافر كثيراً إلى نيويورك في الدرجة الأولى ونفتخر بلقاء رؤوساء الدول» تأخذ الصحافة عليه كلامه القاسي وهو الذي أعطى شبابه وكل حياته للجيش. إنه يختلف عن هؤلاء المهرة الذين يتكلمون عدة لغات أصحاب الكلام الفارغ المنمّق، فحين كان آبا إيبان في أوكسفورد أو هارفرد عام ١٩٤٨ كان شارون يعرض حياته للخطر على طريق اللطرون. إن كل انتصار لشارون هو هزيمة للمخضرمين من رجالات السياسة. ومن الطبيعي أنْ لا يغفروا له ذلك».

«بالنسبة للصحافيين، يُعتبر الوقوف ضد شارون مُربحاً. كل واحد من أبناء البرجوازية اليهود يريد أنْ يصبح صحافيا لفضح ووترغيت. إنها موضة كالبلوجينز. «شارون الكاو ـ بوي» يقولون: كل ما يستطيعون عمله هو تلطيخ سمعة أعدائهم طالما يخافونهم. ولكن شارون ليس غبياً، ويخطط على المدى البعيد. سوف ترى!

ـ كيف يتفق بيغن وشارون؟ إنهما مختلفان..

ـ نعم إنهما ثنائي غريب. بيغن هو نبي كبير، ولكن شارون يملك القوة لتحقيق غاياته. إنه متمهل، عسكري ورجل دولة وما من إسرائيلي حي له تجربته. إنه دائماً في المقدمة، يريد أنْ يضطلع على الأوضاع وراء هضاب السامرة. شيء جميل هذه الدراما الشكسبيرية وهذه التراجيديا اليونانية. شارون شخص مأساوي ككل الأبطال. إنه من طينة هؤلاء القادة الذين يُقلقهم مصير شعبهم... فهو يخاف كثيراً قبل أنْ يقرر. لا يرغب الآخرون في معرفة ذلك. الصحافة تُعذبه».

يقف أوري دان ويشير بأصبعه إلى السقف كأنه المسيح.

«لا لن يصلبوه، أربعة مسامير هي غير مؤلة. سيدقون مسماراً في رأسه وآخر في قلبه. سيُنجمونه، سيضعون مسماراً في كل طرف من أطراف نجمة داوود رمز الشعب اليهودي. هذا ما يستحقه، هذا ما يستحقه أبطالهم القوميون».

«إن خطة آلون وأصوات أصحاب الحد الأدنى والحد الأقصى واليمين واليسار وقسم شؤون الدولة في وزارة الخارجية الأميركية وكي دورساي في وزارة الخارجية الفرنسية، إن شارون هو فوق كل هذا. ويهزأ بالذين يلتقون المجرمين ويقبلونهم».

المقصود هنا هو يوسي ساريد النائب اليساري استقبله ياسر عرفات.

«لن نضم يهودا والسامرة. ولن نسمح لغيرنا بضمها، هذا كل ما في الأمر. اليهود يبنون المدن في تلك المنطقة ولكنهم لا يقولون بأنها بلدنا. لنترك الوقت يفعل فعله؛ والعرب يتدبرون أمرهم مع حسين. في حال تنازل حسين نفاوض الفلسطينيين، ولما لا ولكن من الجهة الأخرى من نهر الأردن. علينا أن لا ننتظر اعترافهم بإسرائيل لكي نفاوض. فهذا الحق ننتزعه وقد انتزعناه. ليس من مشكلة على هذا الصعيد. حزب العمل على استعداد للتخلي عن القدس وتل أبيب. إن خطة آلون هي مساومة ترتكز على القلق اليهودي وعلى اللذة في تدمير الذات. شارون هو يهودي من صنف آخر».

أوري دان يتكلم منذ ساعتين. أصبح رأسي كالطبل؛ لم أعد أحتمل. سأرحل. لا شيء أقل إسرائيلياً كما أظن من هذا الاعتراف الغنائي الذي كنت أود تصويره. لم يسألني أوري ماذا جئت أفعل في إسرائيل، إذا كنت أعد كتاباً أو مقالاً. لقد فتح سكور المجارير... في مكتبه الكبير، كانت حركاته ولهجته كموسوليني مخاطباً الجمهور من على شرفة قصره.

وبينما أنا أتراجع كان أوري دان يبث فيّ حمية الثقة.

«سأرتب الأمر. يجب أنْ تقابل أريك (أريك هو مصغر اسم أرييل شارون) ستروي لأحفادك أنك قابلت بطلاً يهودياً كبيراً».

سوف نرى. شكراً

قاعة الأكل في الملك داوود في القدس. إنه من أفخم فنادق إسرائيل. في عام ١٩٤٦ فجرت الأرغون المنظمة اليهودية الإرهابية اليمينية المتطرفة بقيادة بيغن فندق الملك داوود. أسفر الانفجار عن مقتل حوالى مئة شخص من الإنكليز والعرب واليهود.

يوفال نعمان يأخذ فطوره وحده. القاعدة تسمح للنواب الإسرائيليين بالإقامة في الفندق على حساب الدولة إذا كانوا يقيمون خارج القدس. لنعمان غرفة محجوزة دائمة في الملك داوود. إنه لا يتباخل على نفسه، فهو من الطبقة الراقية. للوهلة الأولى يوحي بأن باطنه أفضل من ظاهره. إنه في الستينات من العمر. لم أعد أتذكر ما إذا كان ممتلئاً أو لا، ولكن يبدو أنه قصير القامة، خفيف الشعر.

الجميع نصحني بمقابلة يوفال نعمان إن من جهة الحمائم أو الصقور. إنه عيار مختلف عن أوري دان.

رأيت من بعيد وزير الأبحاث العلمية في إسرائيل وهو يلوك البيض المخفوق. كنا على موعد ولكنه لا يعرفني. نعمان مؤسس حزب تحيا الذي هو على يمين الليكود رجل

عبقري. فيزيائي ذرّي مرشح لجائزة نوبل، وأحد المحاربين القدامى في الاستخبارات الإسرائيلية، حامل شهادة من مدرسة الحرب الفرنسية العليا، واضع خطط القيادة العسكرية للحربين الأخيرتين والمسؤول عن نظام تعبئة الاحتياط الذي يشكل قوة إسرائيل وأخيراً رئيس مشروع قناة بحر الميت ـ وبحر الأبيض المتوسط.

«أنا متفائل جداً، ولكنني لا أحلم».

«تقيم عائلتي هنا منذ أكثر من قرنين. أنا أعرف أن الشرق الأوسط ليس اسكندينافيا، الاختلاف هو في المكان والزمان».

«المكان: منذ أربع سنوات تتعرض أفغانستان لهجوم بالحديد والنار. ثلاث سنوات من الحرب بين إيران والعراق؛ تصفية عدة رؤساء جمهورية والقتل والوحشية يعمان العالم. العراق يظن أن إيران ضعيفة، يهاجمها بالرغم من معاهدات السلام التي بينهما. يبدو كل هذا طبيعياً وروتينياً. خمس مائة قتيل وهدم مدينة في سوريا بعد انتفاضة. كل ذلك يعتبر من الحوادث البسيطة. المتعصبون المسلمون الأشرار يجاهدون ضد الأنظمة العسكرية الشريرة. أكيد أنا لا أستهين بما حصل في صبرا وشاتيلا ولكن قياساً على المذابح «الطبيعية» في لبنان (تل الزعتر وما شابه) فهي لا تعدو كونها طارئاً. في العربية السعودية يقاتلون بعضهم داخل مكة. اليمن الجنوبية تغتال رئيس جمهورية اليمن الشمالية. واليمن الشمالية تغتال رئيس جمهورية اليمن الجنوبية. في مصر لم يطل الحداد على أنور السادات. أما في الجهة الغربية فهناك القذافي والجزائر والبوليساريو. خلاصة الكلام إنها منطقة غير مستقرة».

«الزمان: في عام ١٩٢٩ قتل ٢٩ يهودياً بريئاً في الخليل. حرب الاستقلال وحروب أخرى. سأوفر عليك سرد كل وقائعها. هل كان هناك معاهدة أم لا، إن المنطق البسيط للتاريخ يفرض علينا الحذر».

«حين كنت طفلاً كنا ٤٠٠ ألف يهودي في ما يطلق عليه اللاروس(*) (Larousse) فلسطين. نحن اليوم تقريباً حوالى ثلاثة ملايين ونصف من بحر الأبيض المتوسط إلى نهر الأردن. هناك أسباب كثيرة تجعلني متفائلاً. لكن تفاؤلي لا يستند على معاهدات مهما كانت وهمية وطنانة. تؤكد التجربة أنه من الأفضل وقوع حرب صغيرة من هنا، واتفاق من هناك. لأن المحيط في الشرق الأوسط هو محيط محتمل الخطر والتغير. لذلك تبقى الضمانة الأساسية لنا، نظامنا الدفاعي. علينا أن نكون واقعيين ومبدعين. وبقليل من

(*) دليل الخرائط العالمية.

الخيال، سننسى بعد عدة قرون هذه الخضّات، وسنكون هنا أكثر أمناً مما أنتم عليه في أوروبا. هل هناك حاجة لمرحلة انتقالية في الضفة الغربية لتطبيق اتفاقيات كامب ديفيد وخطة ريغان؟ كل هذا هذيان. علينا أن نُدقّق في خطواتنا كما علينا أن نصمد».

«هناك البعض الذين تعبوا ويدفعهم هذا التعب للتفتيش عن تسوية للخلافات، خاصة في الجيل الذي أنتمي إليه. «خمسة حروب» إنه عدد كبير لنفتش عن شيء آخر. «ليس هناك من شيء آخر حالياً وهنا، أنا لم أتعب».

«في الكنيست ثلاثة نواب من أصل ١٢٠ تعبوا».

نواب شلي ونواب اليسار المتطرف. نواب حزب العمل التقليديون لا يزال عصبهم الحربي متيناً، يوفال لا يخطىء على هذا المستوى.

«إن ربع طلاب هذا البلد لم يتعبوا أبداً لأنهم لو كان عمرهم يسمح لهم لكانوا صوّتوا لحزبي، حزب تحيا إن نسبة عدد ناخبينا على الصعيد الوطني هي ٢,٥٪، وهذا قليل، ولكن نسبة المتخلفين الذين يؤيدون حزب تحيا هي قليلة جداً. إن معدل أعمار ناخبينا صغير ومستواه الثقافي أعلى من مستوى ناخبي اليسار المتطرف؛ كذلك بالنسبة لوضعه الاجتماعي فهو بشكل عام ميسور؛ ينتمي ناخبونا إلى فئات اجتماعية راقية من اليهود الغربيين: وأخيراً ١٢٪ من العسكر يقترعون لصالح حزب تحيا».

«صحيح أن بعض الاحتياطيين قد تعبوا. من الأسهل خوض حروب قصيرة على خوض حروب طويلة. نود أن يكون هذا التعب إشارة إلى رفض سياسة «الخطوات الصغيرة الواقعية» التي تتبعها الحكومة. أثناء حرب الاستقلال التي التفت حولها كل القوى كنّا نغني أغاني أكثر فجاجة من أغنية النعش الموجهة ضد شارون والتي حاولوا إبرازها بشكل ملفت».

استعلمت عن الوضع: بعض المقاتلين في تلك الفترة هم على اختلاف مع البروفسور نعمان. نعم، لقد كان الجنود الأبطال يغنون بمرارة مآسيهم عام ١٩٤٨. ولكن لم يُسمع عنهم أبداً أنهم كانوا يموتون ويقتُلون من أجل رغبة جنرال. لقد كانت حياة وبقاء إسرائيل على كف عفريت.

«يضعون بوجهنا إسحاق نافون الذي يفترض أن يحمل آماني السلام؟ إن السيد نافون هو جزء من الإجماع الذي يرفض خلق ما يسمى بدولة فلسطينية على أبوابنا. إن أكثر من ٨٠٪ من الإسرائيليين هم ضد الانسحاب من يهودا والسامرة والرجوع إلى حدود ١٩٦٧..

ـ من دون انسحاب جزئي أو غير جزئي لن تهدأ الأحوال. فهل النزاع الدائم شيء

مقبول؟

يجب أن نعرف ماذا نريد ودراسة كل المخاطر. إن التشدد البراغماتيكي لن يضمن لنا، في المدى المنظور حياة هادئة وناعمة. أما الخيار الآخر فهو تدمير الدولة الحتمي. فمن دون الضفة الغربية للأردن تعتبر إسرائيل ممراً لا يمكن الدفاع عنه. من الغباوة بمكان أن لا نقبل هذا الواقع».

«إن هاجسي هو أنني أعرف جيداً كيف يمكن للعرب تدمير إسرائيل؛ حتى أنني وضعت للقيادة العسكرية خطط المعارك التي تؤدي إلى زوال أمتنا».

يخرج العجوز المجنون خرائط ملونة بقياس ١/١٠٠٠٠٠ ويضعها على طاولة من رخام. في الجهة المقابلة لنا امرأتان بمعطفين من الفيزون تنعمان على طريقة «دالاس» بأشعة الشمس الباردة عند الصباح. إنهم بكل تأكيد من اليهود الأميركيين.

«أنظر هذه حيفا وتل أبيب والقدس. فمن دون يهودا والسامرة تعتبر ممراً على شكل حرف L ولا يتعدى عرضها في بعض الأماكن ١٠ كلم. إن ثلاثة أرباع يهود إسرائيل يعيشون في هذا الممر الضيق. حتى الآن استطاعت إسرائيل صد المعتدين. ولكن قبل التحاق الاحتياطيين بالمعركة، فإن ضعف قوانا العسكرية مخيف للغاية».

«لنقل إن هناك ثلاثة ملايين وخمس مئة ألف يهودي في إسرائيل. يفترض بحسب هرم الأعمار ٢٥ ألفاً، أولاً عشرون ألفاً؛ أي ٦٠ ألف جندي نظامي كون الخدمة العسكرية عندنا تستمر ثلاث سنوات. هل تتبعني؟

ـ أتبعك

ـ بـ ٦٠ ألف رجل لا يمكننا صد هذه الموجات من العرب، أي مليون جندي نظامي مكونة من جميع الجيوش العربية؛ أي ما نسبته ١/٢٠. هذا كثير. ولكن حين يدخل الاحتياطيون الحرب يصبح عدد المجندين ٦٠٠ ألف رجل. النسبة تصبح ما يقارب واحد على اثنين. وبما أن الجندي الإسرائيلي يساوي أكثر من جنديين عربيين، فمبدئياً انتصرنا. ولكن...

ـ ماذا؟

ـ يلزمنا لتعبئة الاحتياط ٤٨ ساعة على الأقل».

إنها مهلة قصيرة جداً. لقد قلنا إن يوفال هو الذي وضع شخصياً التعبئة التي تعتبر هاجس القيادة العسكرية الرئيسي ومفتاح الدفاع لجيش يتكون من جنود ـ مواطنين. سؤال: إذا بدأ الإسرائيليون المنقسمون على أنفسهم بالشك بصوابية حروبهم المطلقة، فهل يظلون على نفس الاندفاع للذهاب إلى الحرب كرجل واحد؟

«إذن، إذا بقيت السامرة غير مغطاة عسكريا وحتى إذا اعتبرت منطقة منزوعة السلاح فيمكن القول إنه قُضي علينا. أنا الذي وضعت سيناريو الهجوم العربي وتصورت الخطة بإعطائها كل عناصر النجاح. وقد قمنا بمناورات على الأرض. تأخذ بعين الاعتبار كل المتغيرات: من الناحية الحسابية لا تخطىء».

«أنظر كيف يمكنهم أنْ يفعلوا: توحي سوريا أنها تهاجم الأردن. يستعد العراق لنجدة حسين. تتجمع جيوش البلدان الثلاثة. عند الساعة المعينة توجه مدفعيتها وتهجم باتجاه إسرائيل... يمكن لهذا التحالف أن يجمع ٧٠٠٠ دبابة. بعد ساعتين يصلون إلى البحر، لا أحد يمكنه صدهم. لا تنسى أنني وضعت مصر خارج النزاع».

«تقسم إسرائيل إلى شطرين ويحتل العدو مناطقها الأكثر كثافة من الناحية السكانية. ستقول لي بأنها ليست مسألة حتمية، يمكننا أنْ نقاوم ونقصف مدننا المحتلة. ربما ولكن هذا ليس مفيداً لمعنويات جنودنا الذين هم في غالبيتهم من «الممر». يجب علينا أنْ نتجنب هذا الخطر المميت مهما كلف الأمر.

ـ ولكن بروفسور إن خطة آلون القديمة الخاصة بحزب العمل تلحظ وجود وحدات مدرّعة بشكل دائم في الضفة تُساندها تجمعات سكنية مسلحة.

ـ لا يروق لي أنْ يكون ابني محتلاً كل أيام حياته في الضفة في أرض عدويه. بالعكس إذا كانت كلاً من يهودا والسامرة ملكي، وإذا استقريت نهائياً في هذه المنطقة حيث عاش أجدادي وعائلتي، إذا كنت في بيتي، فهذا أحسن بكثير. الصهيونية لا ترفض الوجود العربي. ولكن على عرب يهودا والسامرة وغزة أنْ يتعودوا على سيطرتنا وينقادوا لها كما فعل أخوانهم في الجليل. أترك لهم الخيار بين أنْ يكونوا مواطنين أو مقيمين بجواز سفر أردني. هذا وضع الأتراك في ألمانيا والجزائريين في فرنسا.. على العرب الذين يوجدون عندنا أنْ يفهموا أنهم أقلية وعليهم أنْ يقوموا بالخدمة الوطنية غير العسكرية، لِمَ لا؟ لا أحد يُجبر العرب على الرحيل، اللهم إلاّ إذا كانوا لا يتحملون فكرة العيش في ظل نظام يهودي. على كل حال هناك أقليات كثيرة غيرهم في العالم استطاعت أنْ تتأقلم مع واقعها».

«أعرف أنهم يلوحون بخطر الإرهاب الدائم. من المؤكد أنها مسألة غير محببة ولكن علينا أنْ نعرف ماذا نريد. لقد رأينا ما حلّ بغيرنا. من هنا إلى عشر سنوات على الأكثر سيتعب الإرهابيون العرب قبلنا: حين يصبح في يهودا والسامرة ٢٥٠ ألف يهودي سينتهي حلم الانسحاب بالنسبة للعرب والأميركيين. إلى حين يتم ذلك، علينا أنْ نظل جامدين ندافع عن أنفسنا ونستأصل المجرمين من مواقعهم كما فعلنا في لبنان».

ـ على كل حال يمكن للإرهاب أنْ يتضاعف لأنه سلاح اليأس عندما تُوصد الأبواب. أنظر إلى الأرمن! قيل لي بأن في غزة شباب عرب جاؤوا من هارفرد أو من MIT من بوسطن وهم حالياً في طور التحضير على المدى الطويل للإرهاب العصري والعلمي..

ـ سنجابههم حين تدق الساعة. شرطتنا ليست غبية. في حال كانت الهجمات عنيفة جداً، الحل الوحيد يظل بطرد العرب نحو الخارج كما فعلنا في ١٩٤٨. في الماضي كنت من مجندي هذه الهجرة، أما حالياً فلا».

«إن معدل الولادات عند العرب هو في حالة هبوط. كما إنهم يهاجرون بكثرة. أما الصهيونية فلا تزال في بدايتها. انطلاقة هرتزل كانت بعدد أقل. إننا نملك وسائل حديثة وعندنا دولة واقتصاد واعد وبنية تحتية على النمط الأوروبي وجيش قوي.. وهل لا نزال عاجزين عن اجتذاب يهود الدياسبورا نحو إسرائيل أقوى وواثقة من نفسها أكثر من السابق؟ يكفي أنْ نعيد خلق عقلية رائدة. هذه أحد أسباب مشروعي حول قنال بحر الميت والأبيض المتوسط. الاستيطان في يهودا والسامرة عليه أنْ يؤدي إلى النتيجة نفسها: خلق اندفاع جديد. يطالب حزب تحيا بأن يُوظف نصف مليار شاقل إضافي لبناء مدينة علمية وتجهيزات متطورة أخرى. ليس من المستحسن أنْ تكون مسيطراً عند الآخرين، من الأفضل أن تكون مسيطراً في بلدك وأنْ تظل هكذا».

لا أسمح لنفسي بتقييم حسابات البروفسور يوفال نعمان الغير قابلة للتغير. ولكن يكفي أنْ تفرك عينيك وتحدق جيداً حتى تدرك أنّ هذه الحسابات ليست الوحيدة. فتماسكها يجعلك حائراً. ولكن على ما يبدو إن هذا التماسك ليس سوى تماسك داخلي من الممكن أنْ نشكك بالمقدمات التي مهدت له. هناك نعمان وأوري دان وكذلك ميرون بنفنيستي، وشاوول فريدلندر وأوريال سيمون.

إن موقفك، من طرفي الشرخ نابع بكل تأكيد من مسألة لها علاقة بالإحساس. يوفال نعمان على حق بقوله إن على إسرائيل أنْ تظل صلبة وتمسك العالم بطرف قبضتها الحديدية أو على العكس أنْ تسمع نوعا من الهذيان البارد الذي يعتبر مظهره العقلاني أخطر بكثير من الأول. هناك شيء أكيد وهو أن حزب تحيا يُعبّر بوضوح عن العقيدة السياسية التي يحاول الليكود إخفاءها. من الممكن أنْ نَتَحَدّى أميركا ولكن لا نستطيع الاستغناء عنها ولو لمدة ثمانية أيام!.

٥

«البيض» و«السود»

الأسنان للأعلى

عادة في الكيبوتز حيث النشاطات مُتنوعة يوقف نفسه أحد المتخصصين ـ جنرال متقاعد أو محام ـ كصديقي جورام على تربية الأسماك. إن بيع الأسماك يشكل دعماً اقتصادياً لا يُستهان به. حين قمت بزيارة كيبوتز في الجليل تجمعت لدي معلومات مذهلة. دَلّني الرجل الذي يهتم بالأسماك بفخر على الحوض الذي تُغطي وجهه ظهور الأسماك الداكنة: «الأحوال تسير بشكل جيد. إني أربي أسماك الشبوط لتحضير أكلة خاصة بها؛ لقد بدأ الشرقيون يحبون هذه الأكلة...».

يهودي شرقي يأكل شبوطاً محشياً! ولِمَ لا يأكل مقانق من صنع فرانكفورت؟

أعرف أنني سأصدم بشكل كبير كل من يسمعني كما لو أنني أضع موضع الشك حقوق إسرائيل التاريخية في يهودا والسامرة: لا أحب كثيراً سمك الشبوط على الطريقة اليهودية. فلا طعم له ويميل طعمه إلى السكري. ولكي تتذوقه يجب أنْ يكون لك على الأقل جدّتين من برديتشيف وبكزينيزين. إن هذه الوجبة من السمك تُعتبر يهودية غريبة بامتياز. إذا كان ما قاله لي مربّي الأسماك في الجليل صحيحاً، فإن عملية الانصهار إذن في الطريق القويم، ولكن لا شيء يمنع من أن الرجل قد داعبني.

بالعكس فإن اليهود الغربيين ـ ربما لأنهم لم يعودوا يتذوقون سمك الشبوط ولا رقاب البط ـ يحبون المطبخ الشرقي. يعتبر هذا التغيير إشارة لها معناها مهما كانت ضئيلة.

إن الأصداء المُشوهة والمُبسطة التي تصلنا إلى هنا عن الخلاف بين جناحي إسرائيل، الشرقي والغربي، هي أصداء لا يمكن الركون إليها. ليس كل اليهود الشرقيين في حالة عوز ولم يتحولوا كلهم إلى عبيد بفعل غطرسة اليهود الغربيين. إن الفروقات الاقتصادية تتضاءل يوماً بعد يوم. والجيش بالرغم من وجود نخبة في الوحدات التقنية المتطورة هو عامل انصهار فعال. كذلك، وهذا شيء مهم، فربع الزيجات مختلطة. أما الطلاق،

فنلاحظ أنه أكثر عند الفئات المختلفة ثقافياً منه في الزيجات المنسجمة من هذه الناحية : ليس ذلك بسبب وجود عوازل وموانع بين هاتين الفئتين ولكن بسبب الهوة العميقة التي تفصل بينهما من الناحية الثقافية .

بالفعل يمكننا أنْ نتكلم عن حضارتين. السمة المسيطرة لواحدة من تلك الحضارتين هي وليدة ظروف وتاريخ هذه الأمة. ولكن عدوانية المتطرفين إنْ من هذه الفئة أو تلك تُعتبر هي الأساس. فهي التي تُحدد كل الخيارات الأخلاقية والسياسية. تارة تبرز وطوراً تختفي بحسب الأحداث التي مرت بها إسرائيل. إن العدوانية هذه مُعرضة لكل أنواع الديماغوجية.

فخلال المقابلات التي أجريتها، استطعنا أنْ نضبط بعض ردات الفعل الغرائزية وبعض الكلمات والسمات التي تطبع سلوك الغربيين أو الشرقيين. فالفصول الأربعة التي تلي، ستُظهر لنا مدى التشعبات الآتية للشرح. أحياناً تنكسر الترسيمة ونلاحظ أن لا شيء سهلاً وبأن الأمور مُعقدة [. . .].

تذكر: بعد نشر تقرير كاهان كانت الغالبية العظمى من الذين تعدّوا وسخروا وشنّعوا بمسيرة «السلام الآن» من الشبان الشرقيين الذين يسكنون الأحياء الفقيرة في القدس أو في المستوطنات. كذلك فالذين كانوا يطالبون بضرب أصحاب النزعة السلمية هم من الشرقيين. ولكن من رمى القنبلة ليلاً في ساحة ملوك إسرائيل؟ من هو الذي قتل؟ لن أتدخل في هذه القضية. إن تحقيقات البوليس يبدو أنها تتهم مجموعات يهودية غربية يمينية متطرفة. ومن بين المشكوك فيهم مئير كاهانا الحاخام الإرهابي. يبدو لي أن وراء الصفوف الأمامية المؤلفة من الوجوه السمر، هناك يد مجرمة أبعد ما تكون شرقية. يكفي أن تعيد قراءة شتائم أوري دان وحسابات يوفال نعمان. الاثنان ليسا من أصل مغربي ولا يمني. من يزرع الريح . . .

في البداية، قبل الاستقلال، كان الشرقيون أقلية ضئيلة ضمن رواد الصهيونية الاشتراكية: إن مشيدي الطوبا(*) هم من ألمانيا وروسيا وبولونيا ومن المهاجرين الذين هربوا من النازية. الهاغانا التي عملت الحرب والكيبوتز الذي أخصب الأرض والهستدروت الذي نظم العمال هم في الأساس من اليهود الغربيين أصلاً، وعاطفة. وأخيراً ـ أعتذر لهذا التبسيط ـ أتى الآخرون من العراق وتركيا واليمن وإيران وبأعداد

(*) فكرة خيالية او مكان خيالي .

كبيرة من المغرب بعد خروج الاستعمار. .

في سنة ١٩٤٨، كانت نسبة اليهود الشرقيين ١٥٪. أما اليوم فإنهم يشكلون الأكثرية. في البداية كان يجب استيعاب هذه الجموع من اليهود «الغرباء» وإيجاد المسكن لها وإطعامها وتعليمها. لا أزال أبسط: لنأخذ مثلاً واحداً، جُلّ هؤلاء المهاجرين الذين أتوا ضمن قبائل بكاملها من جبال الأطلس، لم يكونوا يتكلمون إلّا اللغة البربرية. ولاستقبالهم بُذِل مجهود كبير وارتكبت أخطاء فادحة. وكان لا بد من سوء الفهم هذا. وكانت بدايات سوء الفهم حين اندمج الشرقيون بشكل كامل ليدركوا فيما بعد أنهم لا يزالون خارج البوتقة.

سنة ١٩٥٢ سمح المهاجرون الذين يشعرون بانزعاج لأنفسهم بهبة غضب في وادي صليب فأحرقوا بعض السيارات لكي يصبحوا اسرائيليين قلباً وقالباً. سنة ١٩٧٦ عبّر «الفهود السود» ـ شالوم كوهن أحد قياديهم ـ عن سخط المهاجرين الشباب من الجيل الثاني. شالوم، الذي خرّب الحركة التي لم تعد أهدافها واضحة، هو اليوم مراسل صحيفة لو متان دي باري (Le matin de Paris). وأخيراً ومنذ مدة ليست طويلة تشكل حزب سياسي صغير من المفترض أنْ يمثل جميع الشرقيين. هذا الحزب هو تامي الذي يتزعمه آرون أوزان وزير. . . الاستيعاب!

إن حزب تامي الذي يسعى لتخطي الانقسامات السياسية يحمل جملة أفكار مشوشة تعيق تطوره. فبدل أنْ يتحرك بموازاة الشرخ الإسرائيلي نراه يحاول أنْ يقطع معها بشكل عامودي.

فيكتورين شيران المعروفة بفيكي اشتهرت فجأة حين تكلمت على التليفزيون بعنف لم يعهده أحد، عن بؤس إخوانها الشرقيين وكيف يشتهون اللقمة. اقشعر بدن اليهود الغربيين عند سماعهم هذه الأخبار. أما اليهود الشرقيون فقد وجدوا في هذه الكلمات ما يؤكد حقدهم.

فيكي التي تعتبر يد أوزان اليمنى وباسيونارا حزب تامي، متفوهة من طراز رفيع وكلامها مؤثر جداً. عمرها خمس وثلاثون سنة، وتملك قوة إغرائية لا مثيل لها. فبعينيها السوداوين اللتين تلمعان بنار قوية، فهي مثل كليوباترا. ولدت في مصر و«صعدت» إلى إسرائيل يوم كان عمرها أربع سنوات.

في الرابعة عشرة اشتغلت فيكي لكي تعيش. حصلت فيما بعد على جدارة في الأدب وأخرى في التاريخ الإسرائيلي وأخرى في علم الجريمة. وقد اهتمت فترة طويلة بالمجرمين الشبان . فالقوادون والمافيا وتجار المخدرات أغلبهم من أصل شرقي .

«في البداية تقول فيكي لم أكن أعير اهتماماً إلاّ للفئات الاجتماعية، أما التناقضات الآتنية فلا. من ثم فُرضت عليّ بعض المقارنات. إن ما ساعدني على الفهم ليس مشاعري ولكن ملاحظاتي المنهجية.

ترفض فيكي أن تكون محامياً شفوقاً. بل تحاول أنْ تعقلن قضيتها. وهذا ليس بالأمر السهل.

«منذ فترة طويلة، منذ عام ١٩٢٠، كان وضع الشرقيين خاصاً، أجورهم أقل من غيرهم. فالوكالة اليهودية التابعة للهستدروت عاملتهم كمهاجرين من درجة ثانية. وحين وصل المغاربة عام ١٩٥٦ و١٩٥٧ وُضعوا في المستوطنات وتخصصوا في الأعمال اليدوية. كانت مدارسهم في حالة يُرثى لها. اشتد التعارض بين الآتنيتين. النزاع الإسرائيلي العربي جعل اليهودي الشرقي بالنسبة لليهودي الغربي الذي يملك فعلياً الوطن وكأنه يهودي عربي مُحتقر. من هنا بدأ اليهودي الشرقي يكره اليهود الغربيين الذين يضعونه في مرتبة أدنى من مرتبة العربي. فاليهودي الشرقي يقترع لليكود لأسباب اجتماعية أكثر منها سياسية، وذلك لأن حزب العمل خدعه. شخصياً أنا مع كل التقارب مع العرب، والسوريين، والسعوديين، أكثر من التقارب مع الأميركيين الغربيين. هذه هي إحدى اتجاهات تامي...

- ومع هذا يدعم الليكود؟

- أكرر لك بأن حزب العمل عامل الشرقيين بشكل سيىء.

- الذي لا أفهمه يا فيكي هو لماذا استطاع اليهود التوانسة أو الجزائريون التأقلم مثلاً في فرنسا، بينما أقرباؤهم هنا في إسرائيل يلاقون صعوبات..؟

- في إسرائيل بسبب الهجرة الكبيرة، الوافدون الجدد - خاصة الشرقيون الذين لا يملكون شيئاً - كانوا يعيشون على كاهلَ الحكومة. أما في فرنسا أو كندا يفتش الشخص عن عمل أو يفتح محلاً، يتدبرون أمرهم. هنا كان المهاجرون يُوضعون في مخيمات. الجميع عاشوا فترة هناك. نملأ ضيعة ثم ننتظر. في المخيمات كان رؤساء العمال يمسكون الناس بيدهم ويقولون لهم لمن يقترعوا. كانت المدارس في تلك المخيمات في حالة يُرثى لها. فيما بعد تركّز الشرقيون في المستوطنات مثل كريات شمونة وبيت شيان، ألخ. لا تتصور أن الكيبوتز في المنطقة يسمحون لنا بدخول مدارسهم ذات المستوى العالي.

«من هنا تجذر الحقد. لا شيء أخطر من العواطف المتفجرة التي تنتفخ: يحاول تامي عقلنة هذه العواطف وتسييسها».

بعد عدة أيام، انفجرت قضية كفار شالم: تدخل البوليس لمنع شيمون يوشوا من

أصل يمني من بناء ملحق صغير لتوسيع منزله بشكل غير شرعي. تدخلت البلدوزر. من السقف حيث يعمل صوّب يوشوا مسدسه إلى السائق. لكن إرادة البوليس في هذا الحي اليمني من ضواحي تل أبيب هاجت الناس. أثناء الليل رُسِمت الصلبان المعكوفة على معابد اليهود الغربيين... أخذتني فيكي عند أشخاص من كفار شالم. ولكن النزاع بين الغربيين والشرقيين في إسرائيل بدا كأنه أكثر تعقيداً وأكثر غموضاً. فهو نزاع تاريخي وثقافي واقتصادي وأخلاقي. مختصر مفيد إنه نزاع بين أوروبا وأفريقيا، بين الشمال والجنوب. غالباً ما يُسمي اليهود الشرقيون من سكان الأحياء الفقيرة والمستوطنات نفسهم «بالسود». أما اليهود الغربيون الممقوتون والذي يجب ضرب سيطرتهم هم «البيض».

منذ عدة أسابيع اغتاظ الكاتب شموال تريغانو من أصل شرقي على إحدى صفحات جريدة الموند من كون اليهود الشرقيين في إسرائيل وخارجها يعتبرون المسؤولين عن عناد الحكومة في ما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية؛ باختصار، إنهم المسؤولون عن البيغينية. إن هذه الخطيئة المميتة تنسب بقول تريغانو: «لا أعرف لأي سمات آتنية». إن حجته على ما يبدو ليست مدعّمة بما فيه الكفاية لأن الشرقيين هم الذين أوصلوا موضوعياً ولا يزالون يدعمون الليكود. ولا يغير شيئا كونهم ليسوا الوحيدين. ولكن كلام تريغانو الواضح فيه شيء يُثير الظن. تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الشرقيون قلة في حركة «السلام الآن»، فهم أقل في غوش إيمونيم. ليسوا إيديولوجيين ولا من أصحاب المشاريع الكبيرة؛ وليس ذلك لأنهم «سود» ولكن لأنهم لم يتكونوا على الفكر السياسي ولكون إسرائيل «البيضاء» لم تعرف استيعابهم. «ويضيف تريغانو حتى الذين اندمجوا من هؤلاء، فلا تزال حفنة من اليهود الغربيين هي التي تُسيّرهم. هناك في الحقيقة طريقتان كي تكون مع السلام؛ طريقة الجنوب وطريقة الشمال».

عالم الاجتماع أليسار بن رفايل الذي التقيته في جامعة رامات أبيب لأكلمه عن شكوكي، تكلم بالأتجاه نفسه ملخّصاً رأيه ببعض الجمل المعبّرة. إنه يتخطى كما يتمنى تريغانو تراتبية «البيض» و«السود» التي لا تخلو من العنصرية من الجانبين. ولكن من دون أي تقييم متجنباً الحكم لإحدى الثقافتين، لأن دورهما على الساحة السياسية والاجتماعية هو دور خاص جداً.

«إن اليهود الغربيين أتوا إلى إسرائيل ضد التقاليد».

أفكر «بأوتو وينينغر.

«اليهود الشرقيون أتوا عملاً بالتقاليد. بعضهم أراد أنْ يكون ثورياً والبعض الآخر

أراد تخليد التقاليد. لكي لا يتطوروا ولكي يظلوا أصيلين قاوم اليهود الشرقيون بكل قوة الاندماج الذي فُرض عليهم من قبل اليهود الغربيين الاشتراكيين. . . فاليهودية المُستعربة تنفر من التغيير وتحقق ذاتها حسب التقاليد. وهذا ما فرضته على ضيوفها والعكس بالعكس. أكانت يهودية أو غير يهودية، فأوروبا الحديثة تفترض الحركة. أكان يهودياً أو غير يهودي، فالشرق بثقافته الإسلامية يتمسك بالماضي».

لهذه الفكرة أبعادها. إنها تضيء الحساسية الحقيقية التي تكنها جماهير اليهود الشرقيون لديمقراطية الرواد وتفضيلهم كلام النبي بيغن الطنان. كما تُوضح هذه الفكرة من دون أية عنصرية، أن الشرقيين هم أقل «كفاية» من اليهود الغربيين. . . بحسب مقاييس هؤلاء الغربية.

حين نفهم ذلك تتوضح بشكل أفضل عدوانية الشرقيين الفجّة. وكذلك ردات فعل اليهود الغربيين الذين يهابون كالنار في الهشيم كل موقف «عنصري»، ولكنهم مع هذا ينزعجون من «السود» الذين لا يمكن إخضاعهم لأي تحليل سياسي جدير بهذا الاسم. أكرر بأنني لا أريد أنْ أقول أو أُوحي بأن العداء لليهود الشرقيين في إسرائيل هو عام من قبل اليهود الغربيين. هذا خطأ. فهم لا يكنّون العداء حتى للعرب «الحقيقيين». ولكن هناك من وقت لآخر بعض المؤشرات والدخان الذي يظهر هنا وهناك. إن مساعدة الشرقيين وحثهم على التقدم مسألة واردة. إن سلوكهم العاطفي يُزعج ويُقلق. من هنا، فبدل رمي الحجارة نروي بعض النكات؛ هذه النكات التي طالما ساعدت اليهود على تخطي الأمل، حين تسوء الأمور.

سأحاول أنْ أعطي ثلاثة أمثلة؛ وبالرغم من قساوتها، فهي ليست سيئة إلى هذه الدرجة. هناك شرقي ذكي جداً. إن درجة الذكاء لديه هي أعلى من اليهودي الغربي العادي مما يزعج ولا شك علاقته بعائلته وأصدقائه. سَمِعَ صاحبنا بأن هناك طبيباً باستطاعته تخفيض درجة الذكاء. أخذ موعداً. «اجلس داخلها» قال الطبيب وهو يشير إلى مقعد معدني تملأه ساعات ومقابض وممرات. تبدأ الآلة بالخرير وبرمي أضواء زرقاء. بعد خمس دقائق سيصبح مستوى الذكاء لديك كباقي المواطنين في كريات شمونة. . .». يرن الهاتف. يجيب الطبيب. ارتفاع في أسعار البورصة. تستمر المكالمة أكثر من ربع ساعة «يا إلهي، المريض!»، يركض الطبيب ويفك حزام اليهودي الشرقي الذي يترك العيادة وهو يردد بشكل متقطع «بيغن، بيغن».

تحتل الشخصيات ذات الأصل الشرقي مراكز عالية في إسرائيل.

إن قائد القوات المسلحة الذي أخذ مكان رفايل ايتان الذي أُبعد على أثر تقرير

كاهان، هو الجنرال موشي ليفي. لقد جاء أهل موشي من العراق قبل ولادته بقليل.

هناك يهود شرقيون كثيرون في الحكومة؛ من بينهم نائب رئيس الوزراء ديفيد ليفي.

بالنسبة للمتحمسين الشرقيين فهذه كلها استثناءات تؤكد القاعدة. إن الدولة الإسرائيلية هي دولة اليهود الغربيين «البيض» حتى أعماقهم. إن هذا الشعور وإن يكن أحياناً مضخماً إلّا أنه واقعي. «من أجل التقدم والديمقراطية الحديثة فلا خلاص خارج «البياض» هكذا يفكر أئمة اليهود الغربيين.

ذكرت من لحظة ديفيد ليفي. حين عُين نائباً لرئيس الوزراء، ضحك البعض، لأن ليفي الذي ولد عام ١٩٣٧، في الرباط لم يتنكر لأصوله. يعيش حياة بسيطة في بيت شان حيث يعود كل مساء إلى زوجته راحيل وأولاده العديدين الذين لم نتأكد من عددهم. ويتنزه ديفيد ليفي نهار السبت مع عائلته. يُسمع صوت مدام ليفي على الطريق: ديفيد ديفيد! وقع أحد الأولاد في الوحل هل نغسله أو ننجب غيره؟».

«انتقل، أريد أنْ أقود السيارة قليلاً»، قال ديفيد لسائق سيارته الرسمية. لكن الوزير لا يفلح في إدخال المفتاح الذي يُدير السيارة. كان يحاول إدخاله بالعكس. «الأسنان لفوق، ديفيد، الأسنان لفوق»، يقول السائق.

يبدو أنه بعد ولادة ديفيد ليفي في الرباط لاحظت والدته شيئاً غريباً. وُلد كما يقال مختوناً. حاخام الحي رفع يديه ومجّد الله: «سيما أنها علامة جيدة! سيصبح ابنك ملكاً أو وزيراً في أرض إسرائيل» لقد أصبح ديفيد ليفي معروفاً ومحترماً. فهو يُعتبر داخل الليكود من الحمائم التي تتمتع بوزن سياسي مرموق. ولكنني أتساءل في ما إذا كان ليفي لا يخسر في الأحياء الشرقية ما يربحه في الكيبوتز والأحياء السكنية. إنه «أسود» يحاول أنْ يستعمل عقله عوض أن يصرخ «بيغن، بيغن». . . لا أحد يدري، ربما هو بحاجة إلى آلة تخفض المستوى العقلي.

ذهبت أتلمس وضع اليهود الشرقيين حيث الوضع هو أكثر ذراء: في المدرسة، هذا الوضع تشوبه عيوب كثيرة. إن هذا البلد الصغير الذي سيتضاعف عدد سكانه بعد عدة سنوات وحيث على المهاجرين الجدد أنْ يتعلموا كل شيء من جديد وحيث ميزانية الدفاع ـ بالنسبة للناتج القومي ـ أكبر بمرتين أو ثلاث من ميزانية الاتحاد السوفياتي. إن هذا البلد يمكنه أن يصنع معجزات بشكل يومي ولكن لا يمكن اعتبار أي واحدة من تلك المعجزات كبيرة ومتواصلة وضخمة.

إن الأساتذة يفضلون ـ ليس دائماً ـ مركزاً بسيطاً عوضاً عن صف لا يمكن ضبطه وذلك لوجود المشاغبين. نعم هناك فروقات. لا يقتصر هذا الأمر على إسرائيل. بالمقابل

هناك مساعٍ كبيرة تقوم بها مجموعة تربوية. جيفات غونن التي تقيم في أحد أحياء القدس الأكثر حرماناً.

الحرمان مسألة نسبية. لا تبدو كتامون التي ترسو على هضبة جنوبي المدينة في حالة يرثى لها. لا وجود للأكواخ على طول الشوارع. ربما تجد كوخاً ولكن بعد تفتيش دقيق... تبدو المدرسة مرحة مُلوّنة. أصوات الموسيقى تخرج من النوافذ. أنا على موعد مع يائيل المسؤولة عن جيفات غونن. امرأة طيبة تعرف ماذا تريد. يائيل هي من مواليد إسرائيل ذات أصول غربية. هاجر والدها عام ١٩٢٥ وأُنتخب نائباً في أول كنيست. «إنني رائدة في كتامون...».

بعد عشر سنوات من وصولهم، لم يعد الوافدون الجدد من المغرب يعيشون في المخيمات والأكواخ. لقد تجمعوا في كتامون كما في ضواح كثيرة أخرى.

«إنهم شعب ذات طبع حاد، تقول يائيل. يأتون بشكل خاص من الجبال المغربية البعيدة. كذلك يوجد بينهم أناس أتوا من رومانيا. كلاهما في وضع متخلف وغير متأقلم. وهذه الناحية تهمني أكثر من أصولهم الآتنية. هناك صغار التجار والعاطلون عن العمل والكثير من الأميين، وبعض الحالات الاجتماعية والأسر الكثيرة العدد التي غاب الأب عنها، لا أحد يعرف أين. الجميع تقريباً يقترع لبيغن».

في الحي هناك مدارس بإشراف بعض المتدينين المتعصبين: إنها مدارس طائفية. التعليم فيها خاص جداً.

«أحاول منذ أكثر من سنتين دمج أولاد كتامون بالأولاد الذين يأتون من الأحياء المختلفة. فأولاد كتامون لم يلتقوا، إذا جاز التعبير «البيض» بنفس درجة المساواة ولمرة واحدة. استقبل الطلاب الذين ليسوا من الحي، في غالبيتهم من اليهود الغربيين، كضيوف. إنها فرصة جديدة بالنسبة لأولاد كتامون. «الغرب» يشكلون تقريباً ربع عدد الطلاب.. يرسلهم ذووهم إلى جيفات غونن عن اقتناع. إنهم صهاينة عرفوا حركات الشبيبة، وأكثريتهم تقريباً من الاشتراكيين».

تقريباً وليس دائماً، صديقتي إيلانا ـ ليست إيلانا التي تنتمي إلى جماعة غوش إيمونيم ولا زوجة يوسي بل امرأة أخرى سوف نتعرّف عليها لاحقاً ـ إذن صديقتي إيلانا ترسل أولادها الاثنين إلى جيفات غونن. هذا السلوك هو تعبير عن تصوّر معين لاسرائيل. ومع هذا تقترع ايلانا ضد حزب العمل. ولا تنزعج من كون يائيل هي عضو في «السلام الآن». عائلة إيلانا هي من أصل ألماني. صديقتي متزوجة من شاب «عراقي».

«إننا مدرسة متطورة، قالت يائيل: موسيقى ورقص وأعمال يدوية.. نتحدث في

السياسة ونشجع الأولاد على مناقشة كل شيء. في إحدى المرات قفز أحد الأولاد من تحت الطاولة وصرخ: «لن نخرج من هذا الوضع إذا لم نعطِ شيئاً للعرب يُجبرهم على العيش معنا بسلام».

ـ هل كان الولد «ضيفاً» أو من سكان كتامون؟

ـ نسيت..

«إننا نشقى كثيراً. ولكن النتائج مُشجعة. في «اليوم الأزرق» يحل الأهل محل المعلمين. نتحدّث ونخرج بنتائج عميقة. مثلاً رش مادة الـ د. د. ت التي يرشون بها المهاجرين. هذا شيء أكثر من طبيعي. يظن المهاجرون أنهم مصابون بالطاعون أو أنهم حيوانات قذرة. أحياناً يبدو أهل الأولاد في كتامون قساة مع «الأغراب». لست أنا المشكلة، قالت فتاة مغربية، بل أنتم، تتحملون مسؤولية اللامساواة وذلك عن قصد». بعضهم يلوم «البيض» من دون استثناء. ولا يرون جدوى في الكلام معنا «إنكم مذنبون» وينتهي الحوار.

ـ هل تعليمكم مهم؟ أم إنه سحابة صيف؟ أم إنه عمل ضائع؟

ـ هناك متخصص في هذه المسائل البروفسور فرنكشتين (مصادفة فقط) يربي معلمين أكثر استعداداً لتطوير الفكر المفهومي عند الأولاد الشرقيين في الأوساط المحرومة. وهذا أمر صعب. في الوسط الذي يعيشون فيه لا يزالوا يؤمنون بالسحرة، والجنيات وكذلك «بالمكتوب». الشرق... المستوى هو أدنى بقليل من المدارس العادية، ولكن ذوي «الأغراب» لا يزالوا مصممين ومقتنعين بأهمية تصرفهم مستقبلاً».

قبل مغادرة جيفات غونن طرحت على يائيل سؤالاً كان لا يزال يُحيرني منذ وصولي، رأيت التلامذة يدخلون إلى الصف. بينهم الأشقر والأسمر والأصهب... ليسوا جميعاً من السمر. كل هؤلاء الأطفال رائعون ولطفاء فتشت: فلم أجد طفلاً يُوحي مظهره بالمرض، ما عدا حالات قليلة جداً، كنت ألاقي صعوبة بالتمييز بين «البيض» و«السود». إنه أمر مفروغ منه بالنسبة ليائيل.

«كما تعلم لم تعد الثياب تُشكل رمزاً. جميع الأولاد لديهم كل ما يلزمهم من الناحية المادية ويتم الاعتناء بهم بشكل جيد. فالشرقيون يعلمون جيداً بأن عليهم أنْ يقدموا للأولاد الخضار والحليب كما يلزمهم حياة سليمة. لكن المشكلة ليست هنا...».

قاربت بين انزعاج يائيل وما شاهدته عند مروري بكتامون، فالبيوت الحجرية الجميلة في القدس حيث الكثافة السكانية عالية جداً؛ مما لا شك فيه أعلى من عند اليهود الغربيين الذين ينجبون أقل ويكسبون أكثر. هل «السود» المحرومون ينتصبون ضد

عجرفة «البيض» الميسورين؟ لا أظن. إذن فالمقصود هو الصدمة بين الشمال والجنوب. وهل يختلف الأمر؟

أفضل مكان لتقصّي الحقائق عن «الجنوب» هو الشمال. أقصد مدينة مثل كريات شمونة التي تقع في أعالي إسرائيل في منطقة تمتد كاللسان داخل لبنان.

إن اسم كريات شمونة يجب أنْ يكون مألوفاً لديكم: هناك رأيت المفاوضات الإسرائيلية اللبنانية، وهناك أيضاً قتلت الصواريخ الفلسطينية المدنيين وشكلت ذريعة فيما بعد لاحتلال لبنان، وهناك أخيراً استطاعت ديماغوجية الليكود، ضد الكيبوتز الذي يُشكل رمز الغطرسة الاشتراكية لليهود الغربيين، أن تُعطي ثمارها على أحسن وجه. لم يستطع شيمون بيريز أنْ يخاطب الناس في كريات شمونة، هذه المستوطنة التي تعدّ ١٥٠٠٠ نسمة غالبيتهم من الشرقيين. لقد صرخوا بوجهه وأهانوه مما أجبره على العودة. لقد اكتست الحيطان برسومات تظهر سكان الكيبوتز المجاورين بشكل ذئب أو ضبع أو ابن آوى أو بشكل كلاب مسعورة. أين نحن من الكيبوتز سيف الصهيونية لأرض الميعاد. وددت لو ألتقي الذين حرضوا «السود» على منع بيريز من الكلام والذين رسموا الضباع. وجدتهم ولكن بعد فترة.

الانطباع ذاته كما في كتامون: إذا كان البؤس الشرقي هو هذا، فالمقاييس تغيرت.

بعد أنْ عبرنا الهضاب المزروعة بالأوكاليبتوسل (جنس شجر للاحراج والتزيين يُزرع عادة في المناطق الحارة) دخلنا المدينة. على جهة اليسار يوجد نصب شكله غريب بعض الشيء: ثلاث دبابات مطلية بالأحمر والأصفر والأزرق. تذكرت الهدية التي قُدمت لبيغن: قالب حلوى على شكل دبابة الميركافا. المساكن الشعبية وإن لم تكن جميلة ولا قبيحة، فهي ذات حجم معقول وواسعة. تنقص كريات شمونة الحياة. من الممكن أن يكون كل ذلك وهماً. على من يقع الخطأ؟

حين وصل المفاوضون الذين أرسلهم أمين الجميل إلى كريات شمونة، شكّل الشرقيون المعروفون بتعطشهم للدم العربي لجنة استقبال بشكل عفوي. تلامذة المدارس كانوا ينشدون أغاني بالعبرية والعربية. المشهد كان مؤثراً. الحاخام كان أيضاً موجوداً. الحاخام الشرقي، لأن الحاخام الغربي مقتنع بأن كل أرض يدوسها الجنود الإسرائيليون يجب أنْ تبقى يهودية إلى الأبد، لذلك قاطع الاحتفال.

أُرشدّت إلى منزل تسفانيا دروري الحاخام الجموح، هذا «الأبيض» الذي يساعد

«السود» على عدم التهاون مع المبادىء.

في غرفة الانتظار الملاصقة لمكتب الحاخام كان يجلس شاب مغربي وزميله. كانا يتحدثان لتمضية الوقت. قال لي المغربي إنه أتى إلى هنا من أجل استشارة. أحد أصدقائه ترك له قنينة من البرنو (Pernod). فهل البرنو مسموح به حسب الشرع؟ أدخلنا الحاخام معاً. يا لهذا اليهودي الجميل! لحيته البيضاء تتدلى على سترته السوداء. عيناه الداكنتان هما بالوقت نفسه صارمتان وناعمتان.

عرض المغربي مشكلته. مرّر تسفانيا دروري أصبعين من أصابعه على لحيته.

«أنت تعلم أن الشعوب غير اليهودية تستخرج النبيذ من العنب لاحتفالاتها. من هنا فنبيذ هؤلاء ممنوع علينا. البرنو الذي لديك لا أعرف ما إذا كان يحتوي كحولاً مستخرجة من النبيذ. في هذه الحالة عليك أنْ تمتنع عنه. سوف أكتب رسالة إلى حاخام فرنسي أطلب منه رأيه. بانتظار الجواب يمكنك أنْ تتاجر بهذا النوع من الكحول ولكن إحذر أنْ تشربه أو أنْ تُشرّبه ليهودي».

وما أنْ طرحت على الحاخام سؤالي المحك حتى انتصبت لحيته التلمودية وغمرت القوة نعومة عينيه الداكنتين.

«إعادة شيء؟ لن نعيد شيئاً. لا مجال لذلك. يحق لنا أن نعيش في السامرة أكثر من بروكلين، وليس بالضرورة لنحكم، ولكن كي نكون أسياداً في أرضنا. منذ صلاح الدين، لم يدر العرب شؤون هذه الأرض ونحن علينا أن نستقبل ١٧ مليون يهودي موجودون في الدياسبورا. لقد طردونا بقوة السلاح؟ سنبرهن لهم بأننا نستطيع أنْ نفعل مثلهم. من يجرؤ على نعتنا بأننا غير عادلين؟ كل شعوب الأرض تكرهنا وتقاتلنا، لأنهم يعلمون أننا أقوياء وأذكياء. هذا هو مصدر العداء للسامية»..

«صُنع تاريخنا من العنف والحروب. ولكن خسائرنا حالياً هي أقل من الخسائر التي كنا نتكبّدها في الماضي. حروب خاطفة في النهاية. لا يتعدى عدد القتلى ما نخسره في حوادث السيارات. علينا أنْ نصمد. لا يحق لنا أنْ نغيب عن الوجود فنحن شعب الله. إن الذي يسقط هو الذي يتعب أولاً. لقد تعب السادات من شدّ أذنيّه. عندنا أيضاً هناك أناس تعبوا، الحمائم التي تبكي وتتضرّع للعرب وتراهن على حسن نيتهم. أنا لست تعباً».

يوفال نعمان ينطق بالكلمات نفسها؛ يوفال العالِم والوزير المنتظم.

في هذا الوقت، تدخل امرأة شابة طويلة، تبدو عليها علائم اليرقان. تساعد المرأة الحاخام في الترجمة للإنكليزية. إنها أميركية من فيلادلفيا. إنها إحدى تلميذاته. تلتهم كل

ما يقوله بعينيها وأذنيها. وتطلب المزيد. أما هو فيستفيض.

«صبرا وشاتيلا؟ العالم كله يقف ضدنا. كل شعوب الأرض تعتبر أننا لطفاء. إننا ضمير العالم. . . هذا خطأ. اليهود ليسوا مسيحيين ليديروا الخد الآخر».

«لقد دفعتني للكلام بالسياسة والاستراتيجية. ليس هذا هو المهم».

تسفانيا دروري لا يظهر أنه من جماعة غوش إيمونيم. فعدم ثقته بدولة إسرائيل وحماسته المسيحية (انتظار مجيء المسيح) تقربان نبرته من «ناطوري كرتا»«المدافعون عن القلعة» الذين يرتدون كما في غاليسيا Galicie في القرن التاسع عشر. نساؤهم مجزوزة وأطفالهم بلونهم الشاحب يُشبهون العجائز الصغار. لا تعترف جماعة ناطوري بدولة إسرائيل ولا يتكلمون سوى باليَدِيّة (لغة عبرية ألمانية ينطق بها يهود أوروبا الوسطى والاتحاد السوفياتي) باعتبار أن العبرية هي لغة مقدسة لا يجوز أنْ تستتب إلّا بعد مجيء المسيح.

«المهم هو أنْ نُقيم على أرضنا كي نطيع وصايا التوراة وأنبياء إسرائيل ونتخلص من الديباسبورا. لقد قَرُبَ مجيء المسيح. وتعتبر هذه الفترة من أفضل الفترات المناسبة. أعيش وأتكلم وأكتب وأصلّي انطلاقاً من هذه القناعة».

إن هذه العجلة وهذا «كل شيء الآن» هما في الحقيقة سمة من سمات جماعة الغوش.

«نحن في لبنان؟ لنبق، الرب قال إن جنوب لبنان هو لنا. ليتجه أولادنا نحو بعلبك وليظهروا هناك قوتهم. الله والبندقية لهما الصوت نفسه. الرب قال: «سأسير بكم نحو أرضنا الجديدة. اشمئزوا، تعذبوا، وادفعوا الثمن ولكن سيروا». عندما تتعامل مع قتلة عليك أنْ تجيد لغتهم. الناس هنا تعرف ذلك».

أراهن بأن ما من أحد هنا في كريات شمونة من اليهود الشرقيين يصل به الحد إلى هذه المواقف. ربما سأخسر في ما لو راهنت. . . على كل حال حين يتدخل «السود» ينطلقون بسرعة ولكن لا يصلون إلى تلك الحدود. فهم يفضلون ردات الفعل البسيطة على الخضات العميقة التي تنادي بها جماعة غوش.

لم أعد أتحمل المنازعات الداخلية البيضاء أو السوداء. سأقدم لكم اثنين من سكان كريات شمونة ذوي الأصل الشرقي. رجلان متزنان وميسوران. بالصدفة إن يوسي مسيكا وايلي شريكي لا يتأثران بديماغوجية الليكود. وبما أنهما لا يخافان من التفكير، فالشرخ اندسّ إلى رأسيهما.

يوسي مسيكا له من العمر أربعون سنة. وصل يوسي إلى إسرائيل تادماً من تونس أثناء ما يُسمى موجة الهجرة المغربية عام ١٩٥٦. لا يزال يتذكر الحلاق معتوق الذي كان في بنزرت. أقام معتوق في أشدود. في باريس أعرف أخاه وأخته.

«وضعونا جميعاً في أكواخ من التنك ثم في أبنية معدّة سلفاً. أمضينا ست سنوات من دون كهرباء ومن دون طرق. قليلون هم المتعلمون. المغاربة لا يتكلمون الفرنسية. الغالبية كانت من صغار التجار ولم يكن هناك سوى حفنة من العمال اليدويين».

«حولنا كانت الكيبوتزات حيث يعيش اليهود الغربيون بشكل جيد مما كان يُثير حفيظة الشرقيين. كانوا يتكلمون عن نوع من التحيز. «ألسنا يهودا؟». «كانوا يعتقدون أن الحكومة قدّمت على طبق من فضة الكيبوتزات لليهود الغربيين. لم يدركوا كم كان ذلك شاقاً أيام الروّاد. منذ ذلك الحين والخصومة تشتدّ. صحيح أن المعامل والمشاغل في كريات شمونة هي ملك اليهود الغربيين، ولكن لماذا لا يُنشىء الشرقيون معامل من جمع الأموال؟ لا إنهم يفضلون العيش في القدس وتل أبيب ما أن يصبح في جيبهم قرشاً».

التقيتُ مسيكا وقد كان غارقاً في عمله. لولا اسم عائلة معتوق الذي بدا كمفتاح سحري لما استطعت أن أكلمه في ذلك النهار. يدير مسيكا مؤسسة لبيع الأدوات الكهربائية والميكانيكية بالجملة في المنطقة الصناعية في المدينة. الأعمال تسير بشكل جيد. وزبائنه هم في غالبيتهم من سكان الكيبوتزات المجاورة.

«كان كل شيء هادئاً إلى أنْ اندلعت حرب الأيام الستة. المقصود هو أن كل شيء كان هادئاً بالنسبة لنا. . . في منطقة الحدود كانت الكيبوتزات كمسكاف عام (حيث يسكن صديقي نيكول وجورام) تتعرض للقصف وخطف الرهائن. . . هنا كان الوضع أهدأ، إلى أن قتلت قنبلة شخصين في نهاية عام ١٩٦٨. بعدها توالى القتل حتى وصل عدد القتلى إلى ثلاثين وما فوق؛ ثماني عشرة ضحية في الهجوم على المدرسة».

«الناس هنا تقول بأن في الكيبوتزات ملاجىء رائعة حيث تجد كل وسائل الراحة، بينما هم يمضون أياماً مع أطفالهم في دهاليز قذرة. هذا جائز! ولكن هذه الملاجىء قد شُيّدت من قبل سكان الكيبوتزات بعد أن ساعدوا بعضهم بعضاً. من يعمل ينجح. أما هم. . كيف تريدهم أن يخرجوا من ورطتهم ولديهم أطفال بالعشرات؟».

فيما مضى، كانت كريات شمونة تقترع لمصلحة اليسار؛ حتى جاء بيغن واستغلّ قضية الفروقات مما قَلَبَ الأمور رأساً على عقب. إن أشخاصاً مثل افرام يوئيل الذي قاطع بالصراخ بيريز ورسم تلك القذارات ضد الكيبوتزات هو مفتاح انتخابي عند بيغن. وانساق اليهود الشرقيون كالنعاج. لم يفعل الليكود لنا أكثر مما فعل حزب العمل ولكن

يقال بأنه أفضل. القروض كلها تُوظّف في الضفة. لا يصدق الأطباء والأساتذة كيف تنتهي مهلة إقامتهم هنا بالرغم من أنهم يسكنون في منازل لائقة. كل المسؤولية تقع على بيريز منذ ١٩٧٧».

كل شيء منطقي حتى الآن. وفجأة يظهر الشرخ، أو بالأحرى الهُوّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل الذي قاله مسيكا.

«أتمنى من كل قلبي أن يستتب السلام حتى وإنْ كان علينا أن نتنازل عن بعض الأراضي. ولكن المشكلة أن سلام العرب هو بأخذ كل إسرائيل... من هنا الأفضل خوض الحرب ألف مرة من أنْ نخسر كل شيء مرة واحدة».

إيلي شريكي يملك وكالة فيات في منطقة شمالي الجليل، وتبدو عليه علائم البحبوحة.

«لدي ثلاثون عاملاً، أعمل ست عشرة ساعة في النهار، أدفع ٦٠٪ ضرائب. كل شيء جيد».

شريكي الذي يتحمل مسؤوليات كبيرة في الوكالة اليهودية، هو من أركان حزب العمل في تلك المنطقة. وبصفته هذه، فقد نظم هجرة اليهود الأتراك والفرنسيين. لا يزال يتذكر.

«وضعي خاص جداً. أعرف أنْ أتصرف مع اليهود الغربيين. نستطيع أنْ نتفاهم. هناك كثيرون من الشرقيين هنا نسوا كيف كانت الأحوال في الماضي. لو يعلمون كيف كانت الأوضاع. إن شجاعة الرواد الأوروبيين، من دون الرجوع كثيراً إلى الوراء، تُشبه إلى حد بعيد حياة المهاجرين الشرقيين: الخيم والأكواخ. لم يكن يوجد أي شيء. حالياً..».

شريكي الذي أصبح رجل أعمال ينظر إلى قاعة الأكل. نحن في الفندق حيث انعقدت المفاوضات مع لبنان. لا يشكو هذا الفندق شيئاً خاصة بالنسبة لمستوطنة: موكيت، شراشف بيضاء، خدمة ممتازة، موسيقى ناعمة... بالقرب من الطاولة التي كنّا نجلس عليها، كان يجلس أربعة رجال أعمال يتحدثون ويأكلون الدجاج. اثنان منهم يضعان على رأسيهما الكيبا.

«... حالياً أصبح عندنا كل شيء ولكن لا تزال تنقصنا أشياء كثيرة. الذين يصرخون بيغن، بيغن، كأن بيغن هو الذي اخترع البورصة!»..

«الضفة؟ يجب مناقشة هذا الموضوع ولكن العرب...». حول عملية «السلام في

الجليل» لم نكن ننتظر هذا الرأي من شريكي.

«إن الذي يقبض على بيروت يقبض على لبنان. الإرهاب العربي كان متمركزاً في بيروت. إذا هاجمنا بيروت أترك منزلي وعملي ثلاثة أشهر».

لم يتعد شريكي الخمسين سنة، فهو إذن في عداد الاحتياط.

«إذا بقينا على بعد أربعين كيلومتراً من الحدود سأقوم بالحراسة خلال سنتين. فمن الأفضل قلع الشر من جذوره. أصدقائي الذين يؤيدون حزب العمل هم ضد هذه الحرب؟ لم يكونوا في كريات شمونة سابقاً. هذا الفندق تلقى على الأقل عدة ضربات. أنا من جهتي واقعي. حين نقرر علينا تنفيذ ما قررناه. أما التقييم فيأتي لاحقاً. أخي يشكو من ألم في عينيه؛ ظل يبكي عدة أسابيع لأن المسؤولين العسكريين رفضوا انخراطه في الجيش. الأرض والشعب والتوراة. يجب التوفيق بين هذه المعطيات الثلاثة. والمهم أنْ لا يأتي هذا التوفيق على طريقة بيغن والغوش إيمونيم».

«لقد قلت لك: إنني أحقق أرباحاً، عقليتي من هذه الناحية هي عقلية غربية. أما في ما يتعلق بالأمور الأخرى فلا أنكر أصولي. لا أحد يعرف العربي أكثر منا نحن الشرقيين. اليهود الغربيون لا يعرفون العربي. ثم هناك طريقة الحياة التي نمارسها... كل نهار سبت نلتقي جميعاً، الأصدقاء والعائلة والفرحة تعم. إنني ميسور وأملك منزلاً هنا وفي تل أبيب ولكنني لا أنسى جذوري. لا يحق لأولادي معارضتي. أعطيتهم كل شيء يتعلق بالمدرسة. أما من ناحية «الخرجية» فيحق لهم فقط بخمسين فرنكاً في الأسبوع. لا أحب الأولاد المدللين جداً، فهذا لا يتوافق ووضعنا. لكل جيل وقته. أحترم أهلي. كل نهار سبت أقوم بنزهة معهم بالسيارة. كل سنة خلال الفصح، أذهب مع عائلتي إلى ايطاليا أو سويسرا أو أفريقيا الجنوبية. ما عدا ذلك أبدأ العمل منذ الساعة السادسة. العالم يتغير بسرعة. علينا أن نؤمّن الحد الأدنى من الاستمرارية».

«كما ترى علينا أنْ نتعلّم عند اليهود الغربيين. وإلاّ فسيُقضى علينا، ولكن على اليهود الغربيين أن يتعلموا منّا المحبة نحن الشرقيين».

شرح لي ايلي شريكي كيف يمكنني أنْ أجد افرام يوئيل رجل الليكود الذي قَلَبَ المدينة رأساً على عقب لصالح بيغن.

كان من المفروض أن يكون مركز راسكو ساحة المدينة: سمعت المهندسين يتحدثون عن التصاميم؛ هنا محلات وهناك ممرات مكشوفة... للأسف لم يبقَ من هذه الفكرة سوى سوق حديث لا حياة فيه. أكثر المحلات مُقفلة. والمحلات الأخرى تعرض أشياء

تافهة. ملحمة الأخوين سلامة المركزية تبدو لائقة. بعض العجائز الذين بغالبيتهم من العرب يضعون على رؤوسهم كوفيات من القطن، ينتظرون الطوفان أو المسيح!؟ امرأتان تبيعان السمك الذي اصطيد من بحيرة طبريا. بعض الشبان الذين يرتدون ثياباً لائقة يضعون راديو كاسيت على أكتافهم. الجو يذكّر بأجواء أفريقيا الشمالية ولكن تنقصه الحرارة والحياة.

محل لبيع قارورات الغاز؟ في الداخل عدة أشخاص يتحدثون وهم يدخّنون. إنهم لطفاء. دخولي أزعجهم على ما يبدو. تُعرض في المحل راديوات للبيع. أؤكد لك أنني لا أُضيف أي شيء: إن الجو في مركز راسكو هذا ليس واضحاً تماماً. السيد يوئيل ليس هنا. رجل ذو طلعة وسيمة، شعره رمادي قصير يتكلم بالهاتف، يقوم بإشارة. ينفذ الأمر شابان ويخرجان معي. هكذا تجري الأمور دائماً مع الشرقيين. لا يدلّونك على الطريق بل يرسلون أحداً معك..

إن منزل افرام يوئيل في «الحي السكني» من المدينة هو نسبياً فخم وكبير. افرام لا يزال شاباً وإن يكن منتفخاً. له شاربان كبيران.

«لقد أمضى حزب العمل في السلطة فترة طويلة. لقد أعطوا امتيازات كبيرة للكيبوتزات، أي إلى نفسهم. الاعتمادات والموارد كانت كلها للكيبوتزات، وليس للمستوطنات. من هنا ظلّت المستوطنات متخلفة ولم تستطع أنْ تُحسّن أحوالها. بأموالنا وبفضل تنظيمهم وخاصة بفضل الدعم العمالي استطاعت الكيبوتزات أنْ تنشىء مصانع حيث يحق «للسود» أن يكونوا عمالاً. الاشتراكيون أصبحوا رأسماليين. ماذا يستطيع أنْ يفعل المغربي العادي أو العراقي؟ فقط أنْ يكون عاملاً كوالده.. على المستوطنات أنْ تُنشىء صناعاتها. ولكن ما الطريقة؟ الكيبوتز يضع يده على كل شيء. والناس تنقصهم الخبرة. في كل صف هنا خمسة عشر تلميذاً وحتى عشرين. بينما عند اليهود الغربيين يوجد سبعة تلاميذ فقط. صحيح أن البعض منهم ينجح. لكنني أتكلم بشكل عام».

هناك حجة تُثار بشكل دائم: إن اليهودي الشرقي الذي يتوصل إلى فرض مهاراته، وبالتالي أن يصبح فرداً محترماً لا يعود يهودياً شرقياً «حقيقياً» لأن الصفة الأساسية لليهودي الشرقي هي بالضبط أنْ يكون مُستغلاً، يعيش في حالة من البؤس. من هنا فكل نجاح على الصعيد الفردي في ما يتعلق بالشرقي - حتى وإن طال هذا النجاح أعداداً كبيرة وحتى كما يقال ان هناك وزراء وقياديين عسكريين من بين «السود» - لايمكن اعتباره على الصعيد السياسي. فمن خلال حديث إيلي شريكي استطعنا أنْ نفهم أنّ اليهودي الشرقي الذي ينجح يُشبه إلى حد بعيد اليهودي الغربي: على الأقل في ما يتعلق بسلوكه

المهني. أما في ما يخص تاريخ الصفوف «السوداء» المكتظة - حوالى عشرين تلميذاً - فهو تاريخ عبثي. عادة المدارس في الكيبوتزات هي ذات مستوى عالٍ، بالضبط، كالملاجىء المريحة: لم تُقدم هذه الملاجىء لسكان الكيبوتزات على طبق من فضة، بل هي نتيجة جهد هؤلاء السكان في فترة كانوا فيها أفقر من الشرقيين الذين يقيمون حالياً في كريات شمونة.

«اليوم وبفضل مناحيم بيغن، لم نعد نتلقى قنابل خلال الليل. كما اننا لم نعد نتغاضى عن استغلال الكيبوتز لنا. في السابق كان عليك من أجل إيجاد عمل أن تتوسط ببطاقة الحزب الاشتراكي والهستدروت. شيئاً فشيئاً، تغير كل شيء. إذا كانت الناس هنا تقترع بنسبة ٧٠٪ لصالح حزب العمل، فذلك بسبب خوفهم من فقدان لقمة العيش. إن الأجيال الجديدة هي أشجع من الأجيال السابقة».

السياسة الخارجية: تقاسيم للحن معروف. العرب أشرار، القومية الفلسطينية هي اختراع الشعوب غير اليهودية، لقد برهن النازيون لليهود أنهم لم يكونوا شعباً عادياً؛ من الأفضل أنْ يسخر العالم الخارجي من إسرائيل وهي حية من أنْ يبكيها وهي ميتة. صبرا وشاتيلا؟ وما قولك بأوشفيتز(*)؟ أخيراً، أخذ افرام يوئيل بمدح الحاخام تسفانيا دروري.

«شيء رائع أن يُعلّم رجل مثله أولادنا محبة الوطن...».

بشكل استثنائي - أظن إنها المرة الأولى، ما عدا بعض التعليقات الهامشية أو ردّات الفعل العاطفية والتي لم أستطع إخفاءها - على أن أرفع ولو قليلاً افرام يوئيل وذلك أبعد من الكلمات التي قالها. على ما أظن، فلم يبح افرام بكل قناعاته. لقد تصرف كأي رجل سياسي. لو أظهر الذين تحدثت معهم نفس الميكيافيلية(**) لكان هذا الكتاب من دون موضوع. لم يحدث شيء من ذلك، فكل الشخصيات أكانت تنتمي إلى اليسار أو اليمين كشولاميت آلوني أو حاييم بارليف أو أوري دان أو يوفال نعمان، كلهم تحدثوا بقلب مفتوح عن وضعهم داخل الشرخ.

افرام يوئيل زعيم مركز راسكو هو رجل طموح وحذر. حين لمّحتُ لصور سكان الكيبوتزات بشكل ضباع غيّر الحديث وهو يرفع كتفيه. إنها فقط شواذات لا تُفسّر سوى كنتيجة لتصرفات اليهود الغربيين الأثرياء مع العلم انها لا تُبرّر هذه الشواذات... في الحقيقة إن الذي يُحرّض البسطاء والذين يُعانون مشاكل في التأقلم هم افرام يوئيل

(*) مذبحة تعرض لها اليهود على يد النازية

(**) مبدأ في السلوك الاصولي

وأصحابه.

يوئيل في كريات شمونة كما بيغن في القدس. الأفكار البسيطة ذاتها دائماً. الصفة التحريضية تزيد الشبه مع زعيم الليكود الأكبر: إنه المُدافع المتحمّس وملهم الشرقيين. إنه من أصل روماني!

بعد أنْ انتهينا من كريات شمونة وقبل أنْ نسبر أغوار فئات يهودية سوداء أخرى شعرت بحاجة إلى التراجع خطوتين وذلك لتقييم الوضع بمجمله. وهذا يبدو مستحيلاً. ولكن في ما لو أنجرفنا في هذا التيار المتشعّب والمعقّد فسنكون ولا شك عرضة في كل لحظة لهذا النوع من التقييم السريع. وهذا أكثر ما أخشاه. فمن الأفضل أنْ أجابه كل تقييم بعكسه.

شلومو بن آمي مفكر مهم بشهادة الجميع في إسرائيل. شلومو هو مدير فرع التاريخ في جامعة رامات أبيب. فمن المفترض أنْ يساعدنا على تخطي الأفكار الجاهزة. شلومو هو من أصل مغربي. فقليلاً، إن لم يكن استثنائياً، أن تجد شرقياً في المراكز الجامعية العالية.

«نعم، سمعت أن كريات شمونة تُطالب بي كواحد من البلد...».

إن الذين هم على شاكلة إيلي شريكي لا يقرّون مطلقاً أن يكون أي شرقي متخلفاً. بالفعل لقد أتينا في حديثنا هناك على سيرة بن آمي. انزعج المؤرخ. لا شيء يضاهي الدور الجاهز أكثر من لعب دور «الأسود الطيب».

«ما أنْ يروا مغربياً تبوّأ مركزاً بحسب مقاييسهم حتى يتبنّوه. فالصحافة تحب هذا النوع من الأخبار. «أنظروا إلى بن آمي» هذا يعني أن جميع اليهود الشرقيين لا يبصقون على القيم الثقافية ما أن تصبح بحوزتهم. المقصود هو أنني أمضيت فقط خمسة أشهر من حياتي في كريات شمونة. كان عمري اثنتي عشرة سنة، عندما وصلت من طنجة وبحوزتي كمية من المعارف المدرسية واللغوية. لقد كنت أنا الذي يحتقر رفاقي الذين ولدوا في إسرائيل. لقد كنت أجدهم معدومي الثقافة والرهافة...».

«لقد لاحظت الآن أن الطلاق في كريات شمونة بين الغربيين والشرقيين ليس حصراً طلاقاً اجتماعياً ولا سياسياً، إنْ لم نقل دينياً. فلأسباب ثقافية وتاريخية يُشكّل اليهود الشرقيون قوة مطلبية ومعارضة. لقد كان اليمين في وضع يمكنه من استغلال الحركة لصالحه لأن السلطة القائمة التقليدية كانت يسارية، إذن من اليهود الغربيين وبالتالي غير متشددة ألخ. حتى الآن لا أمل لأي مبادرة سياسية في قلب الأمور. فمثلاً «السلام الآن» هي حركة طابعها أوروبي محض. تتكلم عن السلام بلباقة المثقفين

البرجوازيين وبلغة مُنقّحة تلائم الأحياء الفخمة. وهذا لا يمكن تجنّبه. وهذه هي الوسيلة الأكيدة لتفاقم الشعور بالتفاوت... إن اليهودي الشرقي الذي يُناضل في صفوف حركة «السلام الآن» محكوم عليه أنْ يصبح على الأقل جزئياً يهودياً غربياً.

لا أعارض ذلك. ولكن بسبب خطر الاستيعاب فالناس أمثال فيكتورين شيران يُحذّرون من حركة «السلام الآن». فيكي لا تريد أنْ «تتخطى الحدّ» حتى ولو كان لأسباب جوهرية. ففي هذا المجال الأساسي لا مجال للإبداع. هل هنالك من حل؟».

«شيء آخر أو الشيء ذاته، يجب الكف عن التهوّر في الكلام بموضوع «التعصب» الديني والسياسي عند الشرقيين الذين يُعْتَبَرون بمثابة الأخوان المسلمين في الحركة اليهودية. إن يهود الشرق كانوا وما زالوا قليلي التعصب أو التحمّس. إنهم يُفضّلون الحذر التقليدي والنزعة الإنسانية التي ورثوها عن حاخاماتهم. انتبه: فالشرقيون الأكثر حماسة في الحملة القومية ضد حزب العمل لا يحملون الثورات تحت إبطهم، هم بالأحرى غير متهودين. إن هذه الحملة هي حركة اجتماعية أكثر منها حركة تريد زجّ الدين بالسياسة بواسطة المتعصبين الشرقيين الذين... لا وجود لهم».

«فبالعكس، ومنذ أكثر من عشرين سنة، فاليهود الغربيون هم الذين يُميّلون إسرائيل نحو اليمين. لا أقصد فقط الليكود...».

تبرز هنا فرضية سمعتها عدّة مرات ولكن بن آمي لا يخاف أنْ يذهب بها أبعد من ذلك.

«بوعي أو بلا وعي، فانتصارات حرب الأيام الستة لأغلبية اليهود الأوروبيين سمحت للمذابح الجماعية أنْ تكون أقل فظاعة. إن الاتصال بأرض إسرائيل والانتصارات العسكرية التي أعادت لنا الخليل وكل أماكننا المقدّسة هي بمثابة تعويض عمّا لحق بنا في أوشفيتز: فهي علامة على أن الله لم يشحْ بوجهه عن اليهود. إذن نوع من إعادة التوازن وزجّ المذابح الجماعية من جديد في العقلانية. إن هذه الأفكار تتنزّه حتى في الكيبوتزات اللادينية. ومهما يكن من أمر فكريات شمونة، مدينة الغوش إيمونيم، انطلقت بمساعدة إيغال آلون وحزب العمل، والمستوطنات على طول نهر الأردن ألم تكن هي أيضاً من صنع حزب العمل؟ دايان كان يريد أرضاً عذراء لبناء قُرانا التعاونية «إذهب شرقاً «أيها الشاب». والذين يجنون أرباحاً طائلة من عملية الضم الجارية، الذين أخذوا مكان روّاد خطة آلون حين دنت الساعة، هم صغار الأغنياء الجدد الذين لا يهمّهم السلام بقدر ما تهمّهم مصالحهم. هؤلاء هم من اليهود الغربيين في غالبيتهم. يجب الاعتراف بأن الكثير من اليهود الغربيين المثقفين، قد صُفّوا على أيدي النازيين.. والذين

بقوا على قيد الحياة ليسوا بالضرورة العناصر الأحسن. . .».

إن الملاحظة الأخيرة تُذهلني. فهي لا تتماشى مع بقية التحليل العقلاني الذي قام به بن آمي. إنها فكرة غير جدّية ولا أرى فيها سوى ردّة فعل منزعجة على سؤال طرحته في بداية المقابلة: «هل اختارت النُخبة اليهودية الشرقية الولايات المتحدة وكندا وفرنسا؟ بينما الأكثر جلافة، الأكثر «عرباً» اتجهوا نحو إسرائيل؟» لا أحد يستطيع الإجابة.

«ما هو الأفضل بالنسبة لإسرائيل والصهيونية؟ مئات لا بل آلاف من الذين يحملون اسم محمد ومصطفى يعيشون عندنا ويكرهوننا أكثر فأكثر؟ هل نترك الأمور سائبة بالرغم من المخاطر؟ أنا من جهتي اخترت. علينا أنْ نكون متشددين. نعم، متشدّدون لكي نفاوض بمهارة وصلابة. وإلّا سنظل إلى الأبد جيش احتلال. من هذا الجانب من «الخط الأخضر» إسرائيل ديمقراطية ومجتمع حرّ مثالي؛ أما من الجهة الأخرى فالقيم هي غير ذلك، احتلال وبوليس وقوانين عُرفية. إن دولة إسرائيل الفتيّة ستُمضي ثلاثة أشهر أو ثلاث سنوات في تمشيط المشتى، وبعدها تعود نحو الغرب ـ لا تنسى أنه البلد نفسه ـ لكي تعمل وتربّي أطفالها وتقترع وتلعب بالبورصة. . . إنها مسألة أسوأ من الشرخ. إنها نوع من انفصام الشخصية». .

٦

«السود» و«البيض»

إطلاق نار على الكيبوتز

تبدو هذه القصة وكأنّها لا علاقة لها «بالسود» و«البيض» ولا بالشرخ ولكن. . . إذا تعجّب اميرام من فولوفتسكي وحاخامه الذي أمضى حياته كلّها في الأماكن الأكثر غرابة في إسرائيل، فهذا يعني أن هذا البلد هو منبع دائم للمضايقات ومخزن لا ينضب من المفارقات. لا بد أنْ يحصل شيء في غاليري التلمود.

اميرام كما تتذكر هو صاحبنا الذي يُربّي البط في الجليل. يحاول أنْ يفتش عن مُفَرّخ للبيض لأنه ليست لديه الامكانيات لشراء كل الأدوات اللازمة.

قيل لاميرام إنه يُوجد مُفرّخ في إحدى القرى المجاورة. هذه القرية هي بمجملها من أنصار حركة هاباد التي تستلهم تعاليم الحاخام النيويوركي لوبافيتش الشهير وهي جزء من حركة صوفية كبيرة تدعى الحاسيديم (أو الرجال الأتقياء. نشأت حوالى عام ١٧٤٠ في بولونيا).

الحاسيديم يعبدون الله في الفرح حتى وإنْ كان كل شيء لا يُوحي بذلك، يتمتّعون بالرقص وهم يلبسون الردنغوت على موسيقى عازف الكمان بحسب أسلوب شاغال. إنهم أناس طيبون ويهود غربيون بكل معنى الكلمة.

في قرية هاباد، اميرام مستعد لكل شيء شرط تفريخ البيض ويجتمع بالمسؤول عن المُفَرّخ: إنه رجل عملاق ولحيته الشقراء مائلة إلى الاحمرار. يُسمّى فولوفتسكي ويُدعى فولو من قبل الأصدقاء. عقد الرجلان اتفاقية وتصافحا بعد ذلك وأخذ البيض مكانه في مُفرّخ فولو الضخم. وهكذا تكبر وتنمو أجيال عديدة من أفراخ البط من دون حادث

يذكر.

كان على اميرام أن يكمّل خدمته العسكرية. وبعد عودته استقرّ نهائياً في القرية ليربّي أفراخ الدجاج. لحيته المائلة إلى الاحمرار تدعو للرثاء.

«إجلس هنا.. كيف حالك؟ إشرب جرعة. طيب. لقد تعرّضت لبعض المشاكل. بعد ظهر نهار الجمعة ملأت المُفَرّخ ماءً ولكنني نسيت أنْ أغلق الأنبوب. فسقطت جميع الأواني التي أضع عليها البيض أرضاً... ومن سوء حظي أن نهار السبت كان قد بدأ. لم يعد لديّ الوقت لكي أعيد كل شيء إلى مكانه».

إن مساء نهار الجمعة ما أنْ تغيب الشمس حتى يتوقف كل يهودي حقيقي عن العمل. ويُمنع منعاً باتاً لمس أية آلة أو هاتف أو سيارة أو مُفَرّخ. إن أتباع لوبافيتش حساسون جداً على التقيد بتقاليد نهار السبت. إن ٦٢٧٢ بيضة راحت هدراً. إنها خسارة كبيرة ومن دون فراخه لا يستطيع اميرام تسديد استحقاقاته.

«ولكنك مضمون يا سيد فولوفتسكي ولا شك؟».

ـ طبعاً، طبعاً، منذ عشر سنوات. ولكن لم أعد أتحمل الدفع مقابل لا شيء. ولكن عند انتهاء مدّة العقد فلن أجدده. يبقى لي ثلاثة أيام، ثلاثة أيام فقط».

سيقول فولو إنه مستعد لدفع الخسارة من جيبه ولكنه يتململ؛ يحسم كذا وكذا، يُجادل إلى أنْ تثور أعصاب اميرام. يوافق الرجلان على وضع حكم ليفصل بينهما.

«عند القاضي؟.

ـ لا. عند الحاخام.

ـ عند لوبافيتش في نيويورك؟

ـ لا. عندنا حاخام في هاباد ليس بعيداً عن القرية. يمكنه أنْ يقوم بهذا العمل.

ـ لكنه لا يعرف شيئاً عن المُفرّخات.

ـ إنه تلمودي جيد، كل شيء سيسير بشكل جيد».

مضى عيد Rosh Hashana ثم عيد الغفران وكل شيء بقي على حاله. اميرام الذي حصل على مهلة للدفع يتساءل كيف ستنتهي هذه القضية. بدأ يُلاحق فولو الذي لم يكن مستعجلاً. وأخيراً بعد Sukot جاء عيد Cabanes. أخذ اميرام علماً بأن الحاخام ينتظر أصحاب الدعوى. فولوفتسكي يرتدي كالعادة بذلة سوداء. أما اميرام فقد بدّل الشورت الذي يلبسه بشكل دائم ببذلة من الجينز. يُفتح الباب: يدخل شاب رياضي لا يتجاوز الخامسة والعشرين، شعره قصير ونظرته حادة. يرتدي قميصاً أخضروشورتاً على نسق الشورتات التي يلبسونها في الكيبوتز. «السائق» ظن اميرام. لا، إنه الحاخام. بعدها

بدأت إجراءات الدعوى تتسارع.

تعهد الفريقان بالقبول بتحكيم الحاخام. «إرجعوا غداً عند الساعة الخامسة...».

في اليوم التالي كان الشاب الضخم هناك بلونه الذي يُشبه لون الفتيات ويضع على رأسه الكيبا. أخذ كل المعلومات وطرح بعض الأسئلة وأخرج صوراً من الملف لماكينات زراعية ولوائح لخبراء مختصين بتربية الطيور والدواجن وبعض المجلات في الطب البيطري «إرجعوا نهار الجمعة المقبل».

في النهار المُتفق عليه وجد اميرام وفولو الحاخام برفقة مدير المدرسة التلمودية في المنطقة. إن الفقهاء يعرفون كل شيء، يعرفون سعر البيضة في ما إذا كانت مخصّبة أم لا، ومدة خصوبتها، كما يعرفون كلفة تغذية الفراخ في اليوم الواحد، وتقلبات أسعار السوق بحسب كل موسم، كما يعرفون السعر الأقصى والسعر الأدنى... إنهم يتحدثون بنفس السهولة والمعرفة عن مدراخ رباح وعن التقرير الذي كتبه في ٢ آذار ١٩٥٨ أحد سكان الكيبوتز المُتخصص بتربية البط، كما إنهم يتحدثون عن أسفار موسى الخمسة وعن دعايات مصانع المُفرخات...

«كان الحاخام الشاب يُحصي بسرعة بحيث أنني لا أستطيع أنْ ألحقه بالحاسبة الألكترونية».

أخيراً وبفضل الحكمة التلمودية القديمة والتكنولوجية العصرية قُدّرت الخسائر بدقة هائلة بحيث أن فولوفتسكي لم يستطع الاعتراض على أي شيء.

النصوص المقدسة لم تكن للأسف دائماً لمصلحة اميرام.

خلال زيارتي الأخيرة للجليل كان صديقي يواجه مشاكل متعبة. فلكي لا تنهار أعماله عليه أنْ يُصرّف جزءاً من بضاعته داخل إسرائيل. وبالرغم من كون الأكثرية الساحقة من الإسرائيليين لا تتقيد بشرعية المأكولات أو غير شرعيتها، فإن الشهادة التلمودية في ما يتعلق بهذه المأكولات ونقاوتها تظل مطلوبة في أغلبية المطاعم والفنادق. فمن دون هذه الشهادة لا مجال للتجارة. ولكي تحصل على بط شرعي يلزمك بعض الشعوذات التي لا تعرفها الطرق الصناعية في تربية الدواجن. إن الآلة قد صُممت من دون شك من قبل ناس غير يهود، يمكنهم أن يأكلوا لحوم غير مُسمّى عليها.

فاستعمال الشمع الساخن مثلاً لنتف ريش الطيور هو بمثابة طبخ قبل الأوان بالنسبة للحاخامات المتشددين. من هنا لكي يكون اللحم شهياً، عليه أثناء ذبحه أن يُسيّل دمه ويُملّح ويغسل قبل طبخه. اميرام يفتش في النصوص عن مخرج تلمودي يسمح له بالتغلب على هذه المشكلة؛ حتى أنه أطلع بعض المتخصصين على هذه القضية. في

غياب أي حل وبسبب العمليات غير المكننة، سيرتفع سعر كلفة البطة الواحدة المُثلجة حوالى ٢٥٪. في هذه الحالة سيُفلّس إميرام.

تبدو هذه المغامرات مضحكة من بعيد: ولكنها تفقد غرابتها بسرعة حينما تكون إحدى ضحاياها. إن الشروط الدقيقة التي تفرضها شرعيّة المأكولات، هي ولا شك في أساس مزاج اميرام المتعكّر. الحياة صعبة بالنسبة للذين يعيشون وحدهم في هذا البلد حيث كل شيء مشترك. لقد ضاق صديقي ذرعاً بالمعاملات العديدة التي تُعرقل عمله، وخاصة الجهد الكبير الذي عليه أنْ يبذله لكي يؤمن رأسمالا جديداً. لقد أصبت بالدهشة عند سماع هذا المواطن الإسرائيلي المثالي وهذا الرائد ومُستصلح الأراضي الصحراوية والمقاتل الصلب في الأيام الأولى يتهجّم على الكيبوتزات. حتى هو أيضاً، فكأنه بهذا التصرف يشبه بائع خيوط مغربي من كريات شمونة أو موظف بلدي من كفار شالم، وإن كانت الكلمات التي يستعملها مُختلفة..

«لا تُعلّمني لماذا وكيف تنتفض الأكثرية الشرقية في المستوطنات: أعرف ذلك جيداً. صحيح أنهم ليسوا قمة في التهذيب السياسي. إن نعت سكان الكيبوتزات بالكلاب والحيّات هو عمل حقير. ولكن غيرة «السود» لها ما يبررها...».

«الملاجىء الشهيرة؟ صحيح أن سكان كريات شمونة قد أمضوا ليالي وايام بكاملها مكومين عجائز وأطفالاً في أقبية صغيرة جداً. الهندسة لم تكن من صنعهم. أليس كذلك؟ بينما في ملاجىء الكيبوتزات يوجد أسرّة حقيقية، بالإضافة إلى هاتف وحمام وتليفزيون».

«ليس أنا من ينكر دور الكيبوتزات في بناء الدولة وشجاعتهم وعبقريتهم الخلاّقة. ولكن كل ذلك أصبح من الماضي. إن فرسان القرون الوسطى كانوا هم أيضاً أناساً رائعين. إن أكثرية الدول في العالم قد قامت بإصلاحات زراعية. أما إسرائيل فلا. ومع هذا لا وجود لفورت كنوكس عندنا مع العلم أن هناك كميات كبيرة من الذهب المكدّسة.. لقد قال بن غوريون: إن أرض إسرائيل هي بمثابة فورت كنوكس بالنسبة إلينا. الأرض والمياه. ولكن المئتين وما يزيد من الكيبوتزات التي تمثل ٣٪ من الشعب الإسرائيلي تحتكر نصف الأرض والمياه».

إن القيمة المطلقة لهذه الأرقام ومعانيها سيعترض سكان الكيبوتزات عليها بشدّة. مع من الحق؟ لا أعرف، فالنزاع لا يمكن التعبير عنه بالنسبة المئوية. إنه مسألة تاريخية. على كل حال يبدو لي أن في تلك الصفحات سيُقدم سكان الكيبوتزات وخصومهم من الحجج ما يكفي لكي يسمح لنا بمتابعة خطوط الشرخ. هذا أقصى ما أتمناه لأن سكان

الكيبوتزات وجيرانهم ـ أتباعهم ـ الناقمين سيصطدمون ما أنْ يحاولوا تقييم الوضع الحالي في إسرائيل واختيار مستقبلها.

ينظر اميرام من خلال النوافذ إلى هضبة عين كامونيم وإلى العنابر التي شيدها بعد طول عذاب بمساعدة بعض العمال العرب من سكان الجليل.

«نعم للكيبوتز فضل كبير، ولكنه عرف كيف يستغلّ كل المساعدات التي حصل عليها. لم تكن الحياة سهلة وجميلة بالنسبة لابن الصهيونية الغربية العبقري. لقد دفعت الوكالة اليهودية ومن ثم الدولة للكيبوتز ثمن الدم والشجاعة. وكأنها لنخبة إسرائيل وزبدتها».

«أعمل الحساب. لقد حصل الكيبوتز على الأرض والمياه والبيوت والتراكتورات. كما يستقبل متطوعين من جميع أنحاء العالم يعملون مقابل لا شيء. فقط بهدف مثالي ومن أجل معاشرة أولاد الحلم عدة أسابيع. الذهاب إلى الكيبوتز، يُشبه إلى حد معيّن قبولك في الأولمب مع الآلهة. ولكن كما تعلم، فالمتطوعون يحق لهم فقط العمل مع سكان الكيبوتز، أما في ما تبقى فيظلون بعيدين عن المختارين. وليس هذا كل شيء؛ فأولادنا يعملون في الكيبوتز وفي الوحدات العسكرية المخصصة لخلق وحدات زراعية خلال فترة من الخدمة العسكرية. وأنا في الوقت نفسه أدفع للعمال. النظام تغيّر نوعاً ما ولكنه لا يزال موجوداً. إنه نوع من العبودية لا أكثر ولا أقل».

«لقد سمحت كل هذه الميزات للاتحادات الفيدرالية التي تجمع الكيبوتزات فيما بينها بجمع رساميل ضخمة، وذلك قبل إنشاء الدولة. من هنا حين وجب الانتقال من الحقل إلى المصنع، استطاعت الكيبوتزات أن تجيب «حاضر». لقد وظفوا أموالاً طائلة بشكل ذكي وأعلم أنها كانت مسألة ضرورية. والحمد لله إنهم كانوا هنا على الأقل بتأمينهم العمل للوافدين الجدد... ولكن القول بأنه يجب أنْ يكون هناك أرستقراطيون لإطعام الفقراء، فهذه مسألة لا تُطاق. كان الكيبوتز في وضع يسمح له بالاقتراض وبالتوظيف وذلك بفضل الضمانة الذهبية التي قدمتها تلك الاتحادات الفيدرالية. وهكذا كان من الصعب جداً لأي مبادرة فردية منافسته. من هنا أصبح الكيبوتز رأسمالياً غصباً عنه كما الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، هكذا بقوة الأشياء كما يقال... وهذه هي النتيجة».

«من جهة الغنى ومن الأخرى الفقر. في أوروبا ينظرون إلى الكيبوتز كتجمع إنتاجي مشترك حيث يعيش أناس حفاة أبطال وزهّاد. في كريات شمونة وبيت شيّان وأشدود ومعالوت ينظر إليه كرب عمل لا يتوانى العمال عن الإضراب ضده حين يكون جشعاً. وقليلاً ما يهتم هؤلاء «السود» بما يسمى روّاد مرحلة ما قبل الاستقلال الذين

طردوا الفيالق العربية ببنادق عتيقة. كل هذا من الماضي، بالعكس فنفوذ الكيبوتز يثير الغيرة والتفاوت بين الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب. الحقد يكبر ولا يريد سكان الكيبوتزات أنْ يفهموا ذلك، فضميرهم مرتاح من هذه الناحية ويعيشون في أبراجهم العاجية بالقرب من الملاجىء التي شيدوها على قياسهم لأطفالهم وكلابهم وبالقرب من أحواض السباحة التي تساعد الحكومة في بنائها».

«وحتى أكثر المعتدلين من اليهود الشرقيين الذين يعملون في مصنع الكيبوتز ولا يتخطون رتبة رئيس عمال، لم يعد باستطاعتهم التحمّل. إنها مشكلة وطنية. آرون أوزان وتامي يستفيدان من هذا الأمر؛ بيغن يؤجج المسائل وإسرائيل سائرة نحو الخراب. بالنسبة لغالبية «السود» الكيبوتز وأرباب العمل والنقابة والجامعة واليسار وفكرة التفاوض مع العرب: كل ذلك أمور تُشبه بعضها بعضاً: إنهم جميعاً من اليهود الغربيين الأثرياء المنحطين. هناك جواب واحد: يعيش بيغن. ولكن ماذا تنتظر الكيبوتزات لكي تستفيق؟ لكي ينزلوا عن عرشهم ويظهروا سعة خيالهم بدل أن يكدسوا بشكل غبي أرباح ماضيهم المجيد المادية والمعنوية؟ لقد آن الأوان».

أكرر أن الأحداث التي يرويها إميرام لا يمكن الركون إليها. إنه صديقي ذا الميول الفردية يغتاظ لكثرة تخبطه هو وفراخه في البيروقراطية الإسرائيلية التي يصفها بـ «خليط من الوظائف الروسية والماخور الشرقي والدقة اليهودية المرضيّة». إن ما يرويه اميرام عن الستار الحديدي من اللافهم الذي يفضل من الآن فصاعداً الكيبوتز عن المستوطنات ليس مبالغ به. كأنّ سكان الكيبوتزات، هذه الفئة المستفيدة، لا تترك مواقعها الطاهرة فقط للحصول على شهادات جامعية أو للقتال في صفوة الوحدات العسكرية. هل باستطاعتهم رؤية العالم يتغير حولهم وسماع صرير أسنان أخوتهم المُضللين؟

يقظة اليهودي المولود في إسرائيل تبدو جيدة كذلك: كملازم في الخطوط الجوية العسكرية الملكية وكجامعي رياضي وكمنقب أركيولوجي عاد لتوه من الأمازون. هذا كثير ولكن الأكيد أن أُصول جيدون ليست بسيطة.

«لا مجال للعمل من دون بطاقة من الهستدروت!؟ هذا مبالغ به. تؤخذ بعين الاعتبار إمكانات كل شخص...».

حين أكلم جيدون عن شكاوى سكان كريات شمونة، تكون ردّة فعله ساخرة وحزينة. ينكر كل شيء ويرفع كتفيه بحنو. لست أكيداً من أنه يعرف جيرانه جيداً. إنهم من سكان المرّيخ بالنسبة له. وهو من سكان زُحل بالنسبة إليهم... نحن في مسكاف

عام الكيبوتز حيث جورام ونيكول أمضيا عدة سنوات؛ هذا الكيبوتز الذي يقع على الحدود حيث أُخذت الرهائن بعام ١٩٨٠. إن ابنة جيدون الصغيرة أمضت عدة ساعات بين أيدي الفدائي الإرهابي. عمرها اليوم خمس سنوات.

«يتشكّون من الأزمة السكنية؟ يوجد في كريات شمونة ٦٠٠ شقة فارغة. يتشكّون من البطالة؟ هناك مصنع صاحبه من أصل مغربي يعدّ أكثر من ٣٠٠ موظف ولكن غالبيتهم من الدروز وعرب الخليل واللبنانيين. لا يحب اليهود الشرقيون العمل كعمال... يتشكّون من قله عدد المصانع ذات الرأسمال الخاص؟ إن الصناعي الذي يستخدم أربعة عشر عاملاً يرحل بعد فترة. لم تعد المنافسة ممكنة بعد المزاحمة التي حلّت في يهودا والسامرة التي تُغرقها الحكومة بفوائد مخفضة. هذا لا يمنع الناس من الاقتراع لبيغن ولا من عبادته. إنه تصرف مجنون. كأن الناس تعمل كل ما بوسعها لكسر ألعابها ومن ثم البكاء عليها. ماذا سيحصل في ما لو توقفت الكيبوتزات عن التوظيف في هذه المنطقة من الجليل التي لا يعيرها الليكود أي اهتمام سياسي؟».

لا شيء يضاهي سوء الفهم هذا. فلا يمكن مهاجمة جيدون في ما يتعلّق بالحقائق الكبرى المُسلّم بها التي يقذفها. ولكن السؤال ليس هنا. إنه أشبه ما يكون بالرأسمالي في بداية القرن الذي يندد بتفاهة الطبقة العاملة غير المسؤولة. «ماذا سيفعل هؤلاء التنابل المشاكسون لو لم أكن هنا؟» ان هذا الدور لا يلائم جيدون. ولم يتهيأ بما فيه الكفاية له. تشعر أن رجل الكيبوتز لا يحب التخلص من مركزه كمزارع وبنفس الوقت يرى أنه من المحتم إن لم نقل من العدل الجزاء الذي بارك هذه الحفنة من الرجال الأشداء. عند وصولنا إلى مسكاف عام وجدت جيدون في مصنع الضمادات الجراحية الذي يحُييه في أطراف الكيبوتز.

«إنك تلجأ إلى أيد عاملة خارجية للمصانع وللزراعة؟

ـ نعم، عددنا قليل.

ـ إنها أيد عاملة مأجورة. هل من أمل لعامل أو موظف يأتي كل يوم من كريات شمونة من الوصول إلى مركز مسؤول؟

ـ لا. الكادرات هم أعضاء في الكيبوتز.

ـ أخيراً، أنت الذي ابتكرت في الماضي كثيراً، فهل تعجز عن إيجاد أشكال أخرى من الشراكة؟ أو تصور علاقات أخرى غير التي نعرفها بين العامل ورب العمل؟

ـ نتمنّى من كل قلبنا، ولكن سيطرتي الاقتصادية هي واهنة أكثر مما يقال في الشارع. ثم لا «يريدون» تحمل المسؤوليات. كل ما يعرفونه هو التنديد، أما المخاطرة

فلا. الكيبوتـزات تود أنْ ترسل لهم أساتذة جيدين ولكنهم يُعارضـون. تنقصهم المبادرة. الناس في الشارع تكره الكيبـوتـز إلى درجة أنهم يحـاولون أن لا يـرتهنوا لنـا في أي شيء. وهذا ليس بمقدورهم مما يثير غضبهم».

«أنت على خطأ حين تردد دون انقطاع شرقي وغربي. في مسكاف عام يوجـد رفاق من جميـع المشارب. يمنيو المنطقـة يرفضون تسميتهم بالسيفاراد (Sipharades). هنـاك عراقيون أثرياء جداً. . . إن ربع الإسرائيليين أو ما يقارب لا يمكن وسمهم بـ«الأسـود» أو «الأبيض». الصحيح والمقياس الوحيد هو اقتصادي وثقـافي. في كريـات شمونـة الأكثر فقراً والأقل تطوراً هم الذين ينعتوننا بالحيّة وهم الذين يصرخون «بيغن ملك إسرائيـل» إنهم معصومون عن الخطأ. إنها الحكومة، إنه بيريز، إنه الهستدروت، إنه الكيبوتـز. ماذا تريدنا أنْ نفعل؟ أن نهرب خفية؟».

يحاول جيدون عبثاً تقليص المسافـة بين الشـرق والغرب. بـاستثناء البعض، فـإن المتخلفـين في كريـات شمونـة الذين يتـواجدون حـول مركـز راسكو والـذين يكـرهـون الكيبوتز ، هم من الشرقيين. لجيدون بعض الأصدقاء من اليهود الشرقيين ولكن ذلـك لا يغير أي شيء.

ها نحن في شقة جيدون الصغيرة النموذجية. كلّ شيء في مكانه. للأطفال أماكنهم الخـاصة. وبمـا أن الجميع يـأكلون معاً فيمكن الاستغناء عن غرفـة للطعام. يعـرض عـلى التليفزيون برنامج سوري ككـل ليلة يُظهـر كيف أن الجحافـل العربيـة الشجاعـة ستُقطّع اليهود تقطيعاً حين يحين الموعد. مشعوذون. عائلة ربابورت لا تعير أي اهتمـام لما تـراه. الفتاة الصغيرة التي كانت بين الرهائن تضـجّ وهي تلعب على ركبتي والـدها مـما منعني من متابعة البرنامج.

«كنت أمام بيروت. يا إلهي كم كذبوا علينا. حتى بعد أنْ أُعلن عن رحيل منـظمة التحرير الفلسطينية، ظلّت مدافعنا وطائراتنا تقصف المدينة لفترة طويلة. سقطت ضحـايا كثيرة، أكثـرهم من المـدنيين. . . كـانت المدينـة مغطّاة بـالدخـان. كل هـذا أثار عنـدنا تساؤلات عديدة. قيادتنا كانت تصر على متابعـة العملية حتى النهـاية لأنـه ربما يحصـل ما ليس بالحسبان. في حـال حل سلمي ستُجبـر إسرائيـل على المسـاومة مـما يعني التنازل عن قسم من الضفة الغربية. وهذا. . .».

«اشتركت كذلك في حرب الغفران. كان القتال أشد بكثـير. وجدتُ نفسي وحيـداً في الجهة الأخرى من قناة السويس بدون أية صلة بالمؤخرة. بـالرغم من كـل ذلك، كـل شيء كان واضحاً وكنت كـلي ثقة. أما اليوم. . . من يستطيع أنْ يقول أيـة حقيقة تُـوجد

خلف الأكاذيب وأية كذبة خلف الحقائق؟».

لقد آن الأوان. ذهبت مع جيدون وبعض أقربائه إلى مبنى الأطفـال لحضور صـلاة الغروب. من الصعب وصف الضوضاء. وكما في الملجأ الذي زرته منذ فترة كذلك يوجد هنـا رسومـات صاخبـة وألعاب ومقـاعد صغيـرة وطاولات ومـراحيض صغيـرة. النقـاش دائر حالياً في كل الحـركة الكيبـوتـزيـة عن ثورة ـ أو الثـورة المضادة ـ التي لا سـابق لها، إعـادة الأطفال إلى ذويهم خـلال الليـل. لقـد كتب المـربـون مجلدات حـول المـوضـوع. النقاشات تستمـر حتى الفجر. يُستعـان بما أنتجـه العلم المعاصر في هـذا المجال. أمـا في المستوطنات فالنساء المغربيات المنتفخات والخائـرات نتيجة خمس عشـرة ولادة لا يشعـرن بأن هذا يعنيهم.

حين ودّعت أصحابي شعرت فجأة بالبرد. إن لهذه الشرنقة القويـة والمثابـرة أسلوب خاص في التضييق عليك. . . الطريق تمتد نحو الوادي. والسماء تملأوها النجوم. وأضواء كريات شمونة الصغيرة تظهر في الجهة السفلى. كيف يمكنك أنْ لا تغض الطرف عن هذه المدينة الحقيرة وعن أوساخها، حين تشـاهد في مسكـاف عام شنغريلا (Shangrila) الشامخة بين الغيوم؟. .

إن سكان القرى (موشاف) ليسوا أولمبيين بما فيه الكفـاية. لا يحملون عـلى أكتافهم كسكان الكيبـوتـزات مظلّة المثال الصهيوني. فمنذ البداية لم يشعر المهاجرون الـذين كانـوا يريدون زراعة الأرض بميل إلى العيش المشترك؛ من هنا تأسيسهم لهذه القرى (موشاف). يوجد أكثر من أربعمائة موشاف في إسرائيل. وهذه القـرى هي ذات تنظيم تعـاوني حيث يتم توزيع الآلات الضخمة وتخطيط الإنتاج وحيث يتم تجميع المشتـريات والمبيعـات. إن عدد الشرقيين كبير جداً في هذه القرى التي لا تُشبه بشيء المستوطنات. لا أحد يخطر بباله الكلام عن «السود» والبيض». فلسكان هذه القرى مشاكلهم ولكنهم كما يقال إسرائيليون أكثر من جيرانهم في كريات شمونة أو بيت شيّـان.

«يا لهذا التغيير منذ نصف قرن، منذ عهد الرواد المزارعين! لقـد أتى آباؤنـا إلى هنا لإخصـاب هذه الأرض بـأيديهم. حـالياً ٩٥٪ من اليـد العاملة هي عـربيـة. لقـد حلت الإدارة محل المثال».

إن الحسـرة التي تنبعث من صوت رام شحـار تُثبت أن هـذا الكـلام ليس صحيحـاً كلياً. لقد رأى شحار العالم يتغير من حوله وقد ساهم هو شخصياً في عملية التغيـير هذه. في ما لو كان عليه أنْ يدافع، لمـاذا وكيف يدافـع على أسـاس اعترافـه بالجـريمة؟ فبشعـره

القصير جداً والرمادي اللون وسترته من الجوخ الانكليزي، يُشبه شحار طبيباً في الأحياء الفخمة خلال عطلة نهاية الأسبوع. إنه خبير زراعي ساهم في إنشاء عدة قرى تعاونية. صديقه نسيم هو المسؤول عن فيدرالية القرى العمالية التي ينتمي إليها أوليش: ٩٥ عائلة، ٥٠٠ نسمة، بغالبيتهم من أصل شرقي موزّعين على طرفي طريق مُسطّحة شرق نتانيا. ليس مفرحاً جداً...

«ماذا نستطيع أن نفعل لهم؟ لم تعد الوحدة العائلية تكفي لإنجاز العمل، فلا بدّ من استئجار العمال. فلم تعد السيارة والتليفزيون والمنزل الجميل من تطلّعاتنا، فقد أصبحت جميعها من الأشياء الطفيلية. ولكن الربح يفرض علينا أنْ نكون رأسماليين صغار وثم أنْ ندفع أقل شيء ممكن للعمال. إن الأزمة الزراعية هي ظاهرة عالمية ومهمتنا أنْ نكدّس أكبر عدد ممكن من الدولارات في كل لتر ماء نستهلكه. فنحن مضطرون للتصدير وبالتالي الاستفادة من المواسم الميّتة في أوروبا بالنسبة للزهور والخُضار والفاكهة. إنها مسألة سباق. في كل مرة نجد فتحة نستطيع من خلالها أنْ نصدّر بضاعتنا، تُجابهنا منافسة شديدة. في هذه الحالة، علينا أن نغيّر الطريق ونفتش عن مكان آخر. وهذا مرهق للغاية».

«للكيبوتز ميزات أهم من تلك التي لنا. فهو أغنى وأفضل تنظيماً. كذلك فقد عَرِفَ كيف يُحافظ على الحوافز الإيديولوجية».

«بفضل الرساميل استطاع الكيبوتز أنْ ينوّع اهتماماته. لقد أنشأ صناعات متمّمة لكي يقف بوجه الأزمة قبل حصولها.. ويستعمل جميع التقنيات المتطورة ويستغل كذلك اليد العاملة الخارجية ولا مانع من بناء مصانع في منطقته. إن المجالس المحلية أخطأت بالسماح له بإنشاء فروع خارجية. يستخدم الكيبوتز «العمال المهاجرين» الشرقيين ولكنه في الوقت نفسه، يُحرّض طبقة عاملة لا تعرف أصول اللعبة. لا يتنازل عن أي شيء. إنه رب العمل. رب عمل صارم».

«رغم قولي ذلك، فما هو مأخذي على الكيبوتز؟ لقد حقق على نطاق واسع في الصناعة ما حققته الموشاف على نطاق ضيّق في ما يخصّ زراعة الكريب فروت والقرنفل. حين كانت معسكرات الترانزيت تغصّ بالوافدين الشرقيين الجدد وفائض الإنتاج الزراعي يُخفّض المردود في الهكتار الواحد وكان لا بد من التحرك. قال الكيبوتز: «لدينا كل الإمكانات والخبرة». وهكذا قَبِلَ التحدي. ربما تنقصه الجرأة حالياً..

هذا ما قاله لي الناس في أوليش الذين بغالبيتهم من اليهود الشرقيين. أعرف أنه في المزرعة المجاورة أنني ربّما سمعت كلاماً مغايراً ولكنه ليس مختلفاً تماماً..

«لا وجود لمشاكل جدية هنا بين اليهود الغربيين والشرقيين ولا مع العمال العرب. بعضنا يشارك في أعيادهم والبعض الآخر لا. إنها مسألة ميول شخصية. يوجد قرية بالقرب من هنا من الجهة الأخرى «للخط الأخضر» تدعى طيرا (Tira). سكان طيرا فقراء، وينقصهم الماء. ساعدناهم بالانطلاق في زراعة الفريز التي تتطلب منا عدداً كبيراً من اليد العاملة. و«طيرا» اليوم هي الأولى في إنتاج الفريز في إسرائيل وتصدر الفائض إلى أوروبا بكتابة عربية. هناك اتفاق ضمني، فالعرب يعملون هنا طمعاً في المال، فلا يُخرّبون بل يعيشون بسلام ولا نتكلم معهم أبداً بالأمور السياسية»..

كان الشرخ في الموشاف أقل اشتعالاً من المناطق الأخرى. لا أحد من سكان أوليش يقترع لصالح تامي، حزب آرون أوزان وفيكي شيران «الأسود». بل بالعكس، فقد شارك عدد كبير من سكان الموشاف في المظاهرة التي جرت في تل أبيب بعد أحداث صبرا وشاتيلا. نتحزّب ولكننا نتسامح. نتحمل بعضنا بعضاً. نتكلم بهدوء، لأننا نواجه كلنا نفس الخطر.

في شمال بئر سبع (Beer Sheva) المدينة الكبيرة التي تقع على مدخل الصحراء، يُوجد كيبوتز كبير أسسه فرنسيون وسكانه من الفرنسيين، إنه مشمار هانغيف.

مررت في المنطقة، ولم أكن مقتنعاً بعد بالحجج المؤيدة والمعادية للكيبوتز التي كانت تتصارع في رأسي. كنت أرغب في المزيد من المعرفة. «البيض» و«السود»، الابطال الصهاينة والمشاكسون المدنّسون وكورس الملائكة الغربيين السلمي، وجحيم المتوحشين الدموي لأنصار بيغن. كل ذلك كان تبسيطاً للأمور. بالصدفة، أجريت مكالمة هاتفية بمشمار هانغيف، فدعاني أحدهم إلى العشاء. صحيح أنه لم يحل شيئاً ولكن بفضل ذكاء ونزاهة الياهو يافين تمكّنت من الغوص أبعد من الشعارات. يافين هو باريسي هرب من معتقلات النازيين وأقام في أكتوبر ـ تشرين الأول ـ ١٩٤٦ في مشمار هانغيف مع ثلاثين من الرواد الأوائل.

«نُعدّ اليوم حوالى ٧٠٠ نسمة بينهم ٣٠٠ في سن الرشد. امتياز الأرض؟ بالفعل ليس لهذا الكلام أي معنى. حين وصلنا إلى هنا نحن المنفيون أو أولاد المنفيين المناضلون في حركات الشبيبة الصهيونية، لم يكن يوجد أي شيء. لا شيء سوى الصحراء... كان بإمكاننا استصلاح عشرة آلاف أو مئة ألف هكتار من الأراضي. هذه الأرض ليست «لنا»، بل نستأجرها من الدولة».

«ينتج الكيبوتز جميع أنواع الحبوب والقطن والبطاطا والذرة والخضار والأزهار.

لدينا ثمانون فروجاً ومائتان وخمسون بقرة حلوب في الاسطبل. . . ».

«حين وصلت موجات المهاجرين الكبيرة لم يكن يوجد أي عمل. قال بن غوريون إن على الكيبوتزات أنْ تدعم عملية التصنيع: وهكذا فعلنا. لدينا مصنع مهم للبوليستر (Polystyrène) وآخر للألكترونيات. ونتعاون عدة كيبوتزات في منطقة سديروت ننشّط صناعات أخرى: المجمدات والبطاطا الجاهزة والغسالات والفراريخ والقطن. . . يعمل عندنا كحمالة رجال البدو في المنطقة. لقد أصبح موقعنا أساسياً في الاقتصاد الجنوبي. نعم جميع المساهمين وأرباب العمل هم من سكان الكيبوتز. للأسف أن تكون الأمور هي هكذا. . . ».

«طبعاً هناك نزاعات بين العمال وأرباب العمل: لا أحد يغتاظ من التعامل مع رأسماليين «عاديين». العامل يظل في مكانه. ولكن حين يكون العمال من اليهود الشرقيين وأرباب العمل من اليهود الغربيين سكان الكيبوتزات، فإن الأمور تتعقد كثيراً. خاصة وأن غاية الكيبوتز الأساسية هي مناهضة استغلال الإنسان للإنسان. فمثلاً مشمار هانغيف هي من مؤيدي هاشومير هاتزائير أي الاشتراكية اليسارية المتطرفة. إن ٩٥٪ من الكيبوتزات غالبية السكان فيها من اليهود الغربيين. أما اليهود الشرقيون الذين لا يحبون الحياة المشتركة، يفضلون العيش في المستوطنات. فهل هذه غلطتنا؟».

تكلمت مع إلياهو عن الامتيازات الضخمة التي تستفيد منها الكيبوتزات بفضل «بياضها».

«إنها قصة معقدة. .وكونك يهوديا غربيا ليس مهماً بل المهم هو التقاليد الغربية التي تجعل منا متقدمين تقنياً. لماذا طيارو التساحل(*) يأتون تقريباً جميعاً من الكيبوتزات؟ إن مشكلة الشمال والجنوب. . . يستغل الديماغوجيون ما يُسمى بالامتياز «الأبيض» بوقاحة لا تصدق. آرون أوزان رئيس حزب تامي يسكن في فيللا فخمة مكونة من ثماني غرف ويشكو من حرمان «السود». لدي قريب جاء من بولونيا منذ خمس وعشرين سنة، ومن الذين نجوا من معسكر أوشفيتز لا يتكلم سوى أليدية (yiddish) وبالكاد يستطيع أنْ يسد رَمَقَهُ».

عندما وصل بيغن إلى الحكم سرت شائعات في الأوساط الرسمية تدّعي بأن الكيبوتزات لم تكن تدفع الضرائب. أُلّفت لجنة مالية للاهتمام بهذا الأمر. لم يعد أحد يجرؤ بعد ذلك على الكلام بهذا الموضوع. والديون؟ إن الصندوق الفيدرالي الذي نُموّنه

(*) جيش الدفاع الاسرائيلي

من اشتراكاتنا يساعدنا على التقدم والتطور. نغطي ديوننا بما ندّخره. إنها ميزة وليست امتيازاً. من يمنع المستوطنات من تكوين رأسمال خاص بها؟

«إن الكيبوتز يقول مارتن بوبر هي تجربة اشتراكية لم تفشل».

«هذه هي الخطيئة الحقيقية. لسنا من المستفيدين. ولكننا نتحاشى أخطاء المجتمع العادي ومجازفاته. نشكل ٣٪ من مجموع السكان ونتحمل ١٥٪ من الاقتصاد. منذ تأسيس ديغانيا (Degania) عام ١٩٠٩ والحركة الكيبوتزية بنمو مُضطرد. إنها حركة قوية وفعّالة والجميع يحسدها».

«نعمل أفضل من سوانا ليس لأننا أمهر من غيرنا ولكن لأن تنظيمنا التقني والبشري أفضل. الراحة الفردية؟ من الصعب تقييمها انطلاقاً من المعايير البرجوازية. وليس كثيراً علينا أنْ نسكن في شقق مساحتها فقط ٦٦ متراً مربعاً للعائلة. ثيابنا بسيطة. لا نملك سيارات خاصة. يحق لنا بالسفر ولكن المال ليس متوفراً. النتيجة متواضعة جداً. والشرقيون الذين ينعتوننا بالحيّات، ألا يسعون للحاق بنا؟!».

«أحواض سباحة ومساجة سكنية لائقة وقاعات للتسلية والاجتماعات وروضات للأطفال وتجهيزات رياضية ومدرسية، نعم إننا نملك كل ذلك. إذا قسّمت السكان في إسرائيل إلى عشر مجموعات بحسب المداخيل، فالكيبوتز يأتي في المرتبة الثالثة وليس في الثانية ١٠٠٫٠٪ من أولادنا ينهون دراستهم الثانوية، ٧٪ دراساتهم العالية ليس فقط ليصبحوا مهندسين زراعيين أو أطباء بياطرة ولكن أيضاً محامين أو أساتذة تاريخ الفن. لا ننسى الإنسان. . . ».

«على بعد اثني عشر كيلومتراً من هنا تُوجد مستوطنة صغيرة تُدعى أوفاكيم. سكّانها الذين ليس لهم سوء الحظ أنْ يُستغلّوا من قبلنا لم يصلوا بعد إلى أنْ يصبحوا عمّالاً. لقد جاؤوا من جبال الأطلس المغربية ويجدون صعوبة في التأقلم. قررنا إرسال بعض الشبان من هنا لتحسين لغة سكّان أوفاكيم العبرية، وكذلك لمساعدتهم في تنظيم حياتهم. لا يعرفوا لِمَ تُستخدم المراحيض. قمنا بسهرات ثقافية في الكيبوتز ودعونا جيراننا. ربّات العائلات الكبيرة، يقضين نهارهن مع نسائنا، يغنّين ويرقصن ويعتنين بالأطفال. كنا نضع شراشف بيضاء للاحتفاء بهن. . . ».

«فشل كامل. لقد تأثّر سكان أوفاكيم والله يعلم بمن، بخبثاء يخافون التآخي بين «البيض» و«السود». يبدو أن عملنا فُهِمَ وكأنه نوع من الشفقة الأبوية. فمُنعت النساء من المجيء إلينا. وبدل اللحمة كان الانفصال. خلال سنتين، أرسلت مشمار هانغيف على نفقتها مبعوثين إلى عند اليهود الشرقيين في الأحياء الفقيرة في القدس. لم تكن النتيجة

أحسن من قبل».

لهذا السبب تركتُ الكلام طويلاً لإلياهو يافين. فالشرخ الذي يظهر من خلال حديثه هو أقل فجاجة من الشرخ الذي يُوحي به أحد العسكريين أو واحد من جماعة غوش إيمونيم خلال هذيانه الصوفي والسياسي. ولكن هنا بالذات بدأ الشرخ. كان في البداية شقّا خفياً، ومن ثم صار هاوية اكتشفتها إسرائيل بعد فوات الأوان. إذا كان إلياهو يقترعُ لصالح حزب العمل، فالناس في أوفاكيم يقترعون لبيغن. إذا كان إلياهو يؤمن بضرورة التفاوض مع العرب، فالناس في أوفاكيم لا ترى ضرورة لهذا التفاوض..

«لقد استقبلنا في الكيبوتز أيضاً بعضُ المساجين الليبراليين الشباب. كانت تجربة لا بأس بها».

يؤكد إلياهو أن هؤلاء الشبان الجانحين كانوا «غبار الحياة» الشرقية وبأن تدمير بُناهم البطريركية قد رمت بهم إلى الشارع. هل يحق «للسود» تشبيه مبادرات الكيبوتز بمشاغل الاحسان وبحفلات الأسرّة البيضاء الراقصة؟ ربما.

«سياسياً كنّا دائماً من مؤيدي الخطّ اليساري في حزب العمل. بعد حرب الأيام الستة، كنّا نودّ أن نسمع نداء عربياً كي نستجيب له. لكن ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي يطالب بإبادة إسرائيل لم يلغَ أبداً. ما العمل؟».

«منذ وقوع حرب لبنان تحدث أشياء غريبة في مشمار هانغيف. في الماضي كان جميع السكان يقرأون تقريباً نفس الصحيفة الاشتراكية. أما اليوم كل الجرائد تصل إلى هنا. النقاشات السياسية لا تجري كثيراً في المطعم، فكلنا نعرف بعضنا. ولكن بعض الحمائم تحولوا إلى صقور والعكس بالعكس... أحد المتشددين القدامى الذي هالته صبرا وشاتيلا، يخشى من أن بيغن سوف يَعْزلنا عن العالم الخارجي، ومن انغماس إسرائيل في قمع لا نهاية له. بالعكس أحد المسالمين القدامى أجرى إعادة نظر صعبة: «إذا كان لا بدّ للذئب من أن يعيش مع الحمل فمن الأفضل أن نكون الذئب».

بصدق لا تشوبه أية شائبة يعترف إلياهو يافين بأنه هو نفسه الاشتراكي العريق والمقاتل في كل الحروب، والمناضل من أجل السلام، كاد أنْ يقع في تلك التجربة.

«مع من تتكلم وكلهم بلسانين؟ قرأت بأن أحد الضباط الذين أجرى معهم أموس أوز مقابلة أجاب: «الضعفاء يخسرون دائماً، لماذا تطلب مني أن أكون أخلاقياً في عالم بعيد كل البعد عن الأخلاق؟» إذا طردنا المليون عربي الموجودون في الضفة الغربية، فعملنا هو غير أخلاقي بكل تأكيد. ولكن ربما ليشكّل هذا العمل حلاً. لا أؤمن بكل ذلك. إنه تصرف مخزٍ وانتحاري على المدى البعيد. حين أفكر بصوت عالٍ... التنازل عن

قسم زهيد لا ينفع. ولكن إذا تنازلنا كثيراً وجاء شخص كجورج حبش وتمركز في الضفة الغربية المنزوعة السلاح برفقة صاحبه القذافي؟ إنها القصة نفسها مع جيراننا من أهالي أوفاكيم. علينا أنْ نحاول».

ماذا ينتظر ياسر عرفات لمدّ يده لمئات الآلاف من أشباه إلياهو يافين الذين ينتظرون ولو كلمة للانقضاض؟.

٧

«سود» و«بيض»

في زيارة عمّال الأحواض في أشدود

جادة ديزانغوف عندما تبدأ أشعة الشمس بتدفئة أرصفة المقاهي ومحلات بيع المُبرّدات التي يُديرها مهاجرون من أصل أرجنتيني. كم تغيّرت تل أبيب في بضع سنوات. المراكز التجاريّة ومحلات الكماليات والفتيات الجميلات اللواتي تخلّين عن لبس الشورت الخاص بالكيبوتز ليلبسن ثياباً على الموضة..

لا يزال آخر ياكي (اسم يطلق عادة على الإسرائيليين من أصل ألماني) هنا يتحدّثون وهم يحتسون القهوة والحليب. الياكي هم الرواد الألمان الذين ينتمون إلى العهد البطولي وهم كذلك أساس الصهيونية. إنهم يمثلون قمّة اليهوديّة الغربيّة. السيدة: أ والدة صديقتي إيلانا التي ترسل أولادها إلى مدرسة «السود» في كتامون لا تزال تتذكّر.

«كان زوجي يقول لي منذ عشرين سنة ونيف: يجب أنْ لا نستولي أبداً على هذه الأراضي ولا أن نطبّق قوانيننا بالقوة: كل ذلك سيرتدّ علينا وها أن اليهود يتصارعون فيما بينهم.. إن بيغن هذا هو وحش؛ كنا نعرف ذلك.

ـ ألم تعد إسرائيل إسرائيل؟

ـ رغم كل ذلك، نعم، لا تزال إسرائيل إسرائيل، على الأقل في المحيط الذي أعيش فيه في تل أبيب أو القدس. الباقون لا أعرف ماذا حلّ بهم. نخرج كثيراً من المنزل، الناس تزحف لحضور المحاضرات، والدروس المسائيّة التي افتتحت في الجامعات. كانت البطاقات تتنازعها الأيدي لحضور الندوات الصعبة وكانت تباع قبل عدة أسابيع كتذاكر الأوبرا. لاقت الحفلات الموسيقية والمسرح والتدرب على التنقيب عن الآثار إقبالاً

منقطع النظير. فالكل يُريد أن يُقارن وأنْ يفهم.

ـ ما هو الجمهور؟

ـ ياكيّون مثلي وبعض الغربيين، أعتقد أنها مسألة عادة».

سيدة أخرى تسكن بين جادة ديزانغوف وحايركون في شارع هادىء وفخم حيث يسكن اليهود الغربيون القدامى، لا تزل بالرغم من تقدمها في السن تمارس مهنة التمريض. تهتم بالمتقاعدين في الحي، فتعطيهم الحُقن. وهذه السيدة كانت قد غادرت فرانكفورت عام ١٩٣٣ بعدما أوسعها ضرباً بعض المسعورين باللباس الكاكي(*) في وسط الشارع.

«كنّا كلّنا أملاً، كنّا مثاليين! فوطننا كما كنا نتصوره، يجب أن يكون أفضل من سائر الأوطان وأكثر عدلاً وأخوّة. فأولادنا يجب أنْ لا يعرفوا الحقد والعنف... فأخي الذي كان شارتيّا(**) في أيّانا أمضى سنة في تبليط الشوارع الجديدة في تل أبيب، نعم في هذا الحي بالذات. كان فخوراً جداً. قُتِلَ في مجادلة قبل تأسيس الدولة».

إنه شيء جميل جداً لدرجة يصعب معها التصديق. إنها إسرائيل كما تبدو في الكتب المصوّرة. لكنّها إلى حدّ ما صحيحة... مضى وقت على الزمن الذي كنّا نقول فيه «شكراً يا حضرة الأستاذ، عفواً يا حضرة الأستاذ..». تعرفون ولا شكّ نكتة الطالبين الجامعيين الكلاسيكية ذوي النظارتين اللذين كانا يناولان بعضهما الحجارة لبناء الإسطبل في الكيبوتز: «شكراً يا حضرة الأستاذ، عفواً يا حضرة الأستاذ». وهكذا دواليك. أما هنا في أشدود، حيث كنت على موعد مع عائلة معتوق، فلا وجود «لحضرة الأستاذ».

في بيرزت كان الحلاّق أرنست معتوق وزوجته أستير يسكنان بالقرب من الحلواني مسيكا الذي التقيت ابنه في كريات شمونة. أعرف أيضاً أناساً من آل معتوق في باريس. أخو أرنست وعائلته وصلوا من تونس عام ١٩٥٥ صفر اليدين. اليوم أحد أولاد آل معتوق أصبح طبيباً والآخر سينمائيا. إحدى بناتهم نجحت في مجال الأعمال والأخرى في الصحافة. الفرع الإسرائيلي من آل معتوق استطاع أنْ يتدبّر أمره هو أيضاً وإن لم ينتقل إلى مواقع البرجوازية الصغيرة تلك التي وصل إليها أقرباؤه الفرنسيون. إنهم عمال في أشدود أكبر مرافىء إسرائيل، ونقابيون مناضلون ذور ميول عمّاليّة. إن موقف آل معتوق

(*) المقصود شبيبة النازية

(**) من اعضاء جمعية المحبة

لا يمثل مواقف الشرقيين في أشدود وإن كان معبراً في كثير من النواحي.

ما هي أشدود حيث يكبر آل معتوق ويتزايدون؟ إنها مدينة قديمة جديدة إذا جاز التعبير، عدد سكانها ثمانون ألف نسمة وتضم صناعات نشيطة. أشدود ليست جميلة ولكنها لا تبدو معدمة. إن مجمع المنازل الشعبية الذي يقع في وسط المدينة بحاجة إلى بعض الترميم. الأكثرية المغربيّة في أشدود تضفي على المدينة طابعاً ولوناً جنوبياً.

«لا أريد أن أنتقد العرب: عندهم أناس مثقفون جداً وأنا أعرف بعضهم. ليسوا جميعاً من الحمير، ولكن حتى لو كلمتهم بلطف يفتشون دائماً عن مآخذ يأخذونها عليك. بعد حرب الأيام الستة مباشرة، ذهبت مع زوجتي وأولادي لزيارة القدس القديمة التي احتلها جنودنا. كان هناك عربي يبيع بالونات حمراء علّقها في طرف عصا طويلة. لا أدري لماذا أخذ يشتمنا ويثقب جميع البالونات وهو ينظر إلينا. لن أنساه أبداً...».

بعد ساعة سيبدأ نهار السبت. فآل معتوق الذين يتقيدون بشدّة في الأمور الدينية يراعون هذه المسائل لأنهم تربّوا عليها ومن دون الإفراط في السلام عليكم: المطلوب هو الامتناع عن التدخين. الحلويات المصنوعة من العسل تملأ الطاولة. المنزل يعج بالفتيان والفتيات والأصهرة والكنائن والجيران. يرنّ الهاتف. إن هذه الشقة المتواضعة جداً ذات الجدران العارية، بدأت تشبه أكثر فأكثر غرفة الأخوة ماركس مما سيعطل إمكانية إجراء أية مقابلة. ولكن حين بدأ العجوز أرنست بالكلام سكت الجميع وبدأ الجو يصبح مقبولاً عند آل معتوق.

«نحن يمكننا أن نعيش مع العربي ولكن العربي لا يستطيع أن يعيش مع اليهودي. إنه حقود جداً. فهو يلاحظ أن اليهودي أكثر شطارة منه وذكاء وأفضل منه في التجارة وهذا يزعجه.

ـ (أحد الأولاد) إن صعود الجيش الإسرائيلي إلى لبنان كان لا بدّ منه: فالإرهابيون كانوا أسياد الموقف في بيروت. ولكن حين وصلت إسرائيل اختفوا. ويقال بأن بيغن هو الحرب وكنت من جهتي أعتقد ذلك. هكذا كان يُقال. ولكن بيغن وضع العرب عند حدّهم.

ـ (ولد آخر عائد من لبنان) من الأفضل للعرب أن يظلوا حيث هم لا حيث يوجد اليهود.

ـ (الأب معتوق) لست من رأيك يا ولدي. العرب واليهود سيلتقيان في النهاية وستتحسن الأمور. هل أقول ذلك لأنني عجوز؟ لا. تركت تونس لأنني بدأت أشعر أن الأمور ستسوء، أما العربي فلم يضايقنا بشيء. نتكلم العربية ونحب الموسيقى العربية

ونأكل كالعربي ولكن بعد رحيل الفرنسيين لم يعد لنا مكان عند العربي، هذا كل شيء.

- (جندي شديد السمرة لا يتكلم الفرنسية والظاهر إنه خطيب إحدى الفتيات) قرر بيغن الحرب بسبب الإرهابيين. تركنا بيروت ولا أعلم لماذا قتل أخوتنا الستمائة؟ لا يزال الكتائب يتقاتلون مع الأطراف الباقية. كيف يمكننا الخروج من هذه المعمعة من دون أن يقول العالم عنّا بأننا جبناء وضعفاء؟

- (الولد البكر) كان لا بدّ من تنظيف قلعة الشقيف والعودة بعد ذلك إلى إسرائيل...

- (الصهر) ولكن الإرهابيين تراجعوا أبعد من قلعة الشقيف، وكان علينا أن نلاحقهم لكي نقبض عليهم.

- (الأب) الآن حلت الكارثة، يا للحسرة. لماذا صعدنا إلى الشوف؟

- (ابنته) فُرِضَ الأمر عليه فرضاً. صاحبك بيريز كان تصرف مثله.

- (الولد البكر) يجب نفي شارون.

- (الأب) إنه قوي جداً بالاستراتيجيا.

- (الولد البكر) سأقتل بيغن وشارون.

لا أحد يتذمر. على كل حال يبدو أنها طريقة في الكلام. ومن المؤكد أن ميشال الابن البكر لن ينفّذ ما قاله.

«لماذا شرقيو أشدود ولماذا جيرانكم اقترعوا لصالح بيغن؟

- (الأب) لقد زرع بيغن الحقد لكي يربح تأييد الشرقيين. فالحرب الأهلية كانت على الأبواب لو لم تقع حرب لبنان. فمثلاً على التليفزيون شاهدت فيلماً يُظهر رفاهيّة الحياة في الكيبوتزات والفقر في المستوطنات. في المصنع حيث أعمل انتفض العمال ضد «البيض»... مع العلم أننا يجب أنْ نتفاهم وإن كنّا مختلفين. كل شيء تغيّر. سابقاً كانت الحياة صعبة، أما اليوم فديفيد ليفي الشرقي الأصل هو الشخص الثاني على لائحة الحكومة!.

- (صهر) أصبح الناس أغنى منذ وصول بيغن إلى الحكم. يعيشون بشكل أفضل. لهذا السبب تحب الناس بيغن.

- (ابنة) من جهتي أقول لك بأننا لا نعيش بشكل أفضل. الأجر متدنّي وعلى المرأة أنْ تعمل هي أيضاً. حين يكون مصروف العامل أكثر من مدخوله فهذا يعني أنه يلعب بالبورصة أو يستدين. هل تسمي هذا حياة أفضل؟.

- (الولد البكر) بيغن ينفق الأموال كلها على الأراضي التي سيتخلّى عنها يوماً. إنهم

يبنون في كل مكان في يهودا والسامرة، وفي إسرائيل المصانع تقفل. البارحة أقفل مصنع للشاحنات بالقرب من حيفا.

وصل بعض الأحفّاد والأقارب. اشتدّ النقاش وانحرف عن مساره. أخذت ميشال جانباً وطلبت منه أن يرافقني في زيارة عمال الأرصفة في أشدود لملاحقة الشرخ هناك.

يحترم ميشال معتوق التراتبيّة بشكل ملحوظ. من المستحيل أنْ يُدخلنا هكذا إلى داخل المرفأ مباشرة. أخذ لي موعداً مع يودا بن أروش سكرتير الهستدروت في منطقة أشدود. غريب كيف تُشبه النقابات والنقابيون بعضهم بعضاً: ظننت أنني في مركز C. F. D. T(*) في منطقة الهافر. نفس الفرش.

«هل تظن أن اليهود الغربيين يُريدون السلام مع العرب ويكرهون بيغن بينما اليهود الشرقيون يحبون بيغن ويريدون تصفية العرب... المسألة أعقد من ذلك. لقد عشنا مع العرب ونعرفهم أكثر ممّا يعرفهم الغربيون. ولكن ردة فعل اليهود الشرقيين تخضع لعوامل اقتصادية أكثر ممّا تخضع للسياسة الخارجية. إبان الهجرة الكبيرة من أفريقيا الشمالية لم نستطع مباشرة بناء منازل كبيرة ومريحة. تجمعت الناس في مخيمات بينما المطلوب كان فصلهم بعضهم عن بعض وتوزيعهم في أنحاء إسرائيل».

إنها حجّة ولا شك صالحة... ولكنها جاءت متأخرة. لو حطم المسؤولون عن الهجرة القرى والقبائل لكانت الانتفاضات عمّت كل مكان. لكلٍ دواؤه الناجع، ولكن المُصيبة أن لا وجود لمثل هذا الدواء. زد على ذلك أن الرفيق بن أروش يتناقض وكأن شيئاً لم يكن:

«لقد دمروا ثقافتهم. إن كلمة الأب بالنسبة إليهم مقدّسة. يطيعونه ويقبّلون يده. الحياة هنا غيّرت كل شيء...».

أعني الحياة الغربية.

«... ولم يحل شيء محلها. لم يتوفر لجميع الناس نفس الحظ: إن التونسي أو المغربي الذي ناضل في صفوف الكشافة اليهودية، والذي أتى بملء إرادته خلال هجرة الشباب، والذي ترعرع وعاش في الكيبوتز، لا يتصرف مثل قريبه، الذي أتى من المناطق الجبلية وتربّى في سديروت أو كريات شمونة. فأنا مثلاً أتيت وكان عمري اثنتي عشرة سنة إلى الكيبوتز ومن ثم دخلت إلى الجيش. كنت من بين أوّل ألف من الذين سكنوا في

(*) الاتحاد الفرنسي للشغيلة

أشدود. لدي تجربتي السياسية. لا أشاطر الناس آراءهم ولا أتأثر بديماغوجية بيغن».

«إن فعالية هذه الديماغوجية رائعة. فما يسمّى بازدهار أشدود، نكتفي بأشدود، هو خدعة. فالنشاطات في المرفأ تتطور ببطء. منذ اثنتي عشرة سنة لم تنشأ مؤسسة جديدة. هم الناس هو المضاربات العقاريّة. والعمال الشرقيون هم الحطب الذي يوقده بيغن في يهودا والسامرة. فلا يتوانى حتى عن لعب دور المتديّن: «الحمد لله، بفضل الله...» لا نسمع سوى ذلك. كان بيغن في الكنيس بالصدفة حين علم بصبرا وشاتيلا. إذن فهو نقي كالماء. كثيرون من اليهود الشرقيين يتأثرون بهذه اللغة...

ـ ولكن قل لي... إنكم تستسلمون لهذه الديماغوجية، أليس كذلك؟ فالمؤسسات التابعة للهستدروت تُبنى في الجهة الأخرى من «الخط الأخضر»...

ـ نعم. إذا لم نفعل ذلك فسوانا سيفعله. إسمع. هناك مؤسسة ضخمة تابعة للهستدروت تُدعى سولل بونيه. هذه المؤسسة تستخدم آلاف العمال بأجر محترم. لم يعد أحد يبني في إسرائيل. فإذن ما العمل؟ نطرد العمال؟ ستقع مشاكل وإضرابات. بيغن سيقول: «إن الهستدروت الاشتراكية ترفض البناء في أرض إسرائيل، أرض أجدادنا المقدسة وتفضّل رمي العمال اليهود في الشارع..» الناس لن تستوعب هذه الأمور وهكذا يفقد الهستدروت شعبيته. إذن سولل بونيه تبني في يهودا والسامرة.

ـ ولكن هذا شيء فظيع. إنكم تتعرّون!».

لم يستطع يودا بن أروش الإجابة. ليس هنالك من جواب. خلال كل رحلتي لا أظن أنني استطعت أنْ أسجل أوضح من هذه الظاهرة عن فعالية سياسة بيغن. فيما بعد اعترف أمامي مهندس شاب بأنه هو أيضاً يبني من جهة عفرات.

مع بن أروش تكلّمنا قليلاً عن العرب. هذا اليساري والمناضل العنيد الذي لا يتأثّر بديماغوجية الليكود أكّد لي بأن على إسرائيل أنْ تحافظ على حدود آمنة. من يريد أنْ تكون حدود إسرائيل غير آمنة؟ ولكنه يضيف:

«برأيي لا فرق بين ما يُسمّى فلسطينيون وسائر العرب...».

فالشرخ لا يوفّر لا عقول ولا قلوب الهستدروت. ومن واجب الرفيق يودا بن أروش هو عدم الانقطاع عن الجماهير مهما كلّف الأمر. سمعتُ هذا الكلام في مكان آخر ولم أكن بحاجة إلى ركوب الطائرة خمس ساعات...

لم يخفِ يودا بن أروش وميشال معتوق الجماهير عني. ولم يقدّما لي في مكتب نقابة عمال المرافىء نسخة مختارة بدقة. هؤلاء الرجال الذين ينتظرونني أو الذين سيأتون بهم من

مراكز عملهم هم عمال «سود» من أشدود. عددهم سبعة أو ثمانية. بعضهم رجع بسرعة إلى عمله لأن حفلة التمثيل باللغة الفرنسية كانت تتخطاهم من الناحية اللغوية، والبعض الآخر جاء لأن الضجيج أثار فضولهم أو لأنه ليس عندهم شيء أهم يفعلونه.

«آه، لو كان سكان سويسرا جيراننا! لكنّا حصلنا على السلام منذ مدة طويلة. ولكن العرب شعب إذا أعطيته أصبعك أكل لك يدك كلها.

ـ لا أثق بالعربي حتى ولو مضت على وفاته أربعون سنة».

إنهم مجانين حقودون. لم أسجّل جميع الأسماء التي تحدّثت إليها. من بين هؤلاء يوجد شخص اسمه شلومو، طويل القامة، أصلع، قارب أن يصل إلى سن التقاعد، وآخر نحيف يصعد إلى الطاولة لكي يسمع، وسيمون الذي يخاف أنْ يُصبح أولاده من الزعران وصاحب قبعة الصوف الأكثر حماساً وجهه مضيء وشعره أسود وابتسامته المضيئة قريبة جداً من القلب. هو الذي يأكل العرب أصبعه ويده. هؤلاء الرجال البسطاء يتكلّمون بصراحة متناهية، يقولون أحياناً أشياء مخيفة. وبمعزل عن الكلمات كلها أحببت عمال المرافىء هؤلاء، ولن أنساهم أبداً. خاصة صاحب قبعة الصوف.

ـ (شلومو) بيغن هو صفر بالنسبة للعامل. لم تتحسّن الأمور أبداً بعد مجيئه، بل بالعكس، فقد ازداد عدد الأطفال المشرّدين أو الذين يوجدون في السجن. وكلهم من «السود».

ـ (رجل يطلّ من النافذة) يقول وزير المالية بأنه يمكننا أنْ نشتري تليفزيونات ملوّنة بالتقسيط وبأسعار معقولة. ولكن ليس هو من يدفع ديوني.

ـ (الذي يخاف على أولاده) أنظر إلى جارك البولوني: عنده ولد وكلب. نحن والحمد لله (بسخرية) عندنا خمسة وستة واثنا عشر طفلاً. علاماتهم في المدرسة سيئة، يسرقون ويتعاطون المخدرات. إن اليهودي الدي جيء به من المغرب بعد انتهاء الحماية الفرنسية، لا أقول إنه نادم ولكن خاب أمله.. الحشيش ينتقل والذين يبيعونه هم زعران من عندنا. لا أريد أن تخرج بناتي مع شبان كهؤلاء. على الفقراء أنْ يدرسوا في الجامعة بدل أنْ يتسكّعوا في الشوارع في حالة من الضياع.

ـ زوج أختي روسي والآخر ألماني.

ـ (النحيف) في تونس كان أهلي فقراء. هنا تعودنا الحصول على كل شيء، ولم يعد بمقدورنا الاستغناء عن هذه الأشياء،وهذا أمر طبيعي: إننا في بلدنا.

ـ (صاحب قبعة الصوف) بيغن صنع السلام مع مصر. يمكنني الآن ركب السيارة والذهاب إلى القاهرة مع عائلتي. من السهل، عن بعد، أنْ تكون ضد بيغن وشارون

ولكن سكان كريات شمونة كانوا يقولون «لماذا يحق لك أنت أنْ تعيش بسلام في أشدود بينما أولادنا نحن سيصبحون مجانين في الملاجىء» الحمد لله (من دون سخرية) إن الجندي اليهودي قوي ويموت دون أن يبرح مكانه لأن البحر من ورائه.

- (شلومو) نعم، ولكن في السابق كنا نحب بعضنا بعضاً، والآن نحن على وشك إطلاق النار على بعضنا بعضاً».

حاولت أن أستوضح أكثر عن موضوع الضفة الغربية. فالشرخ كبير للغاية على هذا الصعيد في صفوف أصحابي في أشدود. أحدهم جاء بالكعك. أخذت كعكة:

«لنتكلّم بصراحة. إذا كان لا بدّ من توزيع الخبز لصنع السلام فلنعطي قطعة من الكعك للأعداء. ما رأيكم؟».

- ليفتشوا عن قطعة الكعك عند العرب، عند حسين وليس عندنا.

- (صاحب قبعة الصوف) لن نعطيهم شيئاً. نحن نؤمن بالتوراة. أليس كذلك؟ إسرائيل تمتدّ من لبنان إلى مصر ومن البحر حتى نهر الأردن، أليس كذلك؟ يكفينا أن العرب ينجبون أكثر منا... الشعب الإسرائيلي محكوم عليه أنْ يحارب وعليه أنْ يظل قوياً.

- (شلومو بقلق) هو يتكلم هكذا ولكنه ليس خبيثاً...»

- لست خبيثاً، ولكن أريد أنْ يكون للكلمات معنى.

«أليس بالأمر المزعج ليهودي أنْ يكون عنصرياً؟».

نظر صاحب قبعة الصوف إليّ مستهجناً فزعاً كما لو أنني صفعته. فالعامل الشاب ليس فقط صادقاً في ما يقول ولكنه مقتنع كل الاقتناع. إنه بعيد كل البعد عن الحقد.

«لست عنصرياً ولا أتمنّى لهم سوى الخير. لا أريد أنْ أقتلهم. إسرائيل بلدي، هذا كل شيء... .

كل شيء...

عندما كنت أنتظر ميشال ليأخذني للقاء يودا بن أروش قدّمت لي أستير معتوق القهوة. كان الأب في العمل. نهار السبت الماضي لم تتكلم أستير كثيراً. كان عدد الرجال كبيراً. اليوم وبلهجة نائحة على الطريقة الشرقية تكلّمت عن مخاوفها وبؤسها. سأكون غير وفي لأشدود إذا لم أعط الكلام ولو للحظة لأستير معتوق.

«حين وصلنا إلى إسرائيل كان عددنا مع الأولاد اثني عشر. عشنا فترة طويلة في المخيم في أكواخ من دون ثلاّجة وكهرباء، من دون أي شيء. زوجي الذي كانَ حلاقاً في

بيزرت ذهب إلى المصنع وكان العامل الوحيد. لم نكن نملك ما نشتري به اللحمة ولا ما نعلّم به الأولاد. كان عليّ أن أعيل ثلاثة عجائز، أمي وعمّي وزوجة عمي. لم نترك عملاً إلاّ واشتغلنا به. كنت أريد أحسن الأشياء لأولادي. الحمد لله لقد حصلوا على البكالوريا. الآن نريد السلام، نريد أنْ نعيش مرتاحي البال، لكن الحروب أصبحت أكثر فأكثر قاسية. إسرائيل استولت على أسلحة في لبنان، حتى أنها تقيم معارض لهذه الأسلحة. وبعد؟ إن قراءة لائحة القتلى على الراديو تستمر أكثر من نصف ساعة».

لقد تأثرت أستير معتوق أكثر ما تأثرت بحرب الغفران، هذه الحرب التي تحوّلت مع الزمن إلى ملحمة أبدية مفزعة. لقد صنعت من هذه الحرب صورة رؤيوية لنهاية العالم، ليست بعيدة كل البعد عن الواقع.

«فجأة انطلق صوت صفارات الإنذار. أخذوا ابني ميشال الجندي الممرّض من الكنيس حيث كان يحتفل مع والده بيوم الغفران. نعم لقد أخذوه والتاليت (الشال) على كتفيه بطائرة هليكوبتر إلى صحراء سيناء. ماذا يستطيع أنْ يقول الحاخام؟».

«ابني الآخر، الأصغر سناً كان هناك أيضاً. العرب احتلوا الجبال كلها. لم يكن يوجد سلاح مع أولادنا. انبطحوا أرضاً ليتقوا النيران وهم يصرخون «أمي. أمي». أزيز الرصاص كان يلعلع وشبابنا يموت. حين وصل ابني البكر ميشال ووجد المعسكر مدمّراً، كان كالمجنون. «لن أعمل، سأفتش عن أخي - كلهم أخوتك، عد إلى عملك» قال الكولونيل. لم يتحرّك الشبان إلاّ بعد أن وُخزوا بالأبر لتشجيعهم. لقد رأى ميشال شبابنا الذين قتلهم العرب وأعضاؤهم التناسلية في فمهم والفتيات قد قُطّعت صدورهن. حين عاد إلى البيت كان كالأبله لا يقدر على الكلام. قلت له «ميشال هل تريد حلوى بالعسل، قل لي؟» لا شيء. كذلك حيّر الأمر والده «اصفعيه» قال لي.

ميشال ذهب كذلك إلى لبنان. وهناك أيضاً كان يضرب الأبر. هو وأخوه اللذان يُحبّان بعضهما كثيراً، لم يلتقيا خلال ثلاثة أشهر. صهري قاد دبابة بين سوريا ولبنان. حصل له نفس الشيء، انعقد لسانه عندما عاد».

«حين أرى عربياً أخاف. مع العلم أن جارنا في تونس كان عربياً لطيفاً جداً. حين كان يذهب إلى السوق كان يقول: مدام معتوق أنا ذاهب إلى السوق ألا ينقصك شيء؟». «أولاده كانوا ينادونني خالتي. في يوم من الأيام ذهب جارنا إلى السجن الفرنسي لأنه كان من أنصار الدستور الجديد حزب بورقيبة. عند الصباح أطعمت طفلته سعاد البلادين (Blédine) كما كنت أطعم ابني ميشال. حين خرج والدها من السجن بدت سعاد جميلة للغاية كاللعبة. أراد الوالد تقبيلي. حين تركنا بيزرت، جاء الأولاد يودعوننا

على المركب، قبلتهم كما أقبل أولادي».

«هنا تغيّر الوضع. العرب هم أعداؤنا. ليس العرب الذين يشتغلون عندنا في أشدود. هناك عرب لا ينسون فضل اليهود عليهم. أين يمكنهم أن يربحوا ٢٥٠٠ فرنك في الشهر في قطاع البناء، قل لي؟ ولكن عندما جاء عامل عربي لتبليط المطبخ منعت زوجي من الذهاب إلى العمل. أكثر ما يخيفني هم الشبان. حتى الطلاب الذين يذهبون إلى الجامعة مع أولادنا يتكلّمون عنّا بالسوء. الزواج ممنوع بين العرب واليهود. إنها خطيئة بالنسبة لنا. كل ما هو مسموح به على هذا الصعيد هو الصداقة. شارون كان يريد بصدق وضع حدّ للحرب بين العرب وبيننا ولكنهم متوحشون. ليسوا مثقفين مثل اليهود. إنهم يسيرون وراء زعمائهم الذين يفتشون عن مصالحهم، يسيرون والبندقية معلّقة على ظهرهم. كيف يمكننا أنْ نتوصل إلى السلام؟».

٨

«السود» و«البيض»

صليب معكوف في الغبار

لم تكن فيكي تصرّ كثيراً على اصطحابي إلى كفار شالم. لقد كانت مشغولة كثيراً في تحضير المظاهرة التي من المفروض أنْ تعبّىء «السود» في الأحياء الفقيرة وذلك لمصلحة حزب تامي السياسية. أصرّيت.

وكما في كتامون وكريات شمونة، فإنّ فقر اليهود الشرقيين يبدو لي نسبياً، إلى حدّ ما هل رأى هؤلاء الناس كوخاً في حياتهم أو بيوتاً من التنك أو حيّاً فقيراً حقاً؟ هل يتظاهرون بالنسيان؟ مررنا في شوارع ضيقة رائعة تغص بالناس دون أن تكون منفرة. أوقفت فيكي السيارة. صعدت فتاة يمنية لتكون دليلتنا. تسيبونا ، اسم هذه الفتاة وهي راقصة. ودعتها والدتها على مدخل المنزل: إنها امرأة سمينة، تضع شالها كما يوضع التشادور. قرن يفصل بين الأم وابنتها.

عانت فيكي وتسيبونا صعوبة كبيرة في إيجاد المكان الذي كانتا تريدان أنْ تحذي إليه. فأحياء حابيما وفريشمن الجميلة مألوفة أكثر إليهما. اجتزنا كذلك مناطق ملوّنة ومتعرّجة وجميلة وكنّا نضيع في الطرق المسدودة كي ننفذ أخيراً إلى ساحات واسعة حيث ترتفع مساكن شعبية حديثة، لا تشكو من شيء.

شعرت فيكي أنني أطرح أسئلة كثيرة: «سنضعهم في أقفاص الأرانب هذه. . .».

زايدت، تسيبونا الجميلة على فيكي: «إنهم يكرهون، لم يتعودوا».

لقد أدركت أن شكوى كفار شالم ليست أبداً ضد الفقر وأزمة السكن. إن الشرقيين وخاصة اليمنيين يفضلون المنازل الخاصة . ولكن يبدو من الصعب أن تؤمن لهم

بلدية تل أبيب منازل كما يرغبون . فالأراضي باهظة الثمن في المنطقة ، والسكن المشترك ـ كما في كل مكان ـ يتلاءم أكثر مع متطلبات المدينة التي تتسع .

أخيراً ها هو أزير الذي ينتظرنا في سيارته التويوتا. السيارات ستلعب دوراً في لقاء كفار شالم.

أجد صعوبة في وصف أزير. إنه بين الخامسة والعشرين والثلاثين. نحيف، أسمر اللون، يرتدي ثياباً ماركة نيومان ،نظرته حادة. أزير هو مُحرّض في حزب تامي في الحي اليمنيّ. إنه موظف بلدي. فكل الرجال الذين التقينا بهم اليوم هم إما موظفون أو مستخدمون أو سائقون لعربات نقل الأوساخ، ألخ. لا وجود للعمال ولا للتقنيين. . .

دخلنا جميعاً إلى منزل موداي، أصدقاء وجيران عائلة بوشوا التي قُتِل ابنها على يد الشرطة. كانوا حوالى العشرة في الغرفة الكبيرة. الأب عجوز جميل، بساق وحيدة ويجلس على الكنبة. يدخّن نرجيلة طول نبريشها المخملي خمسة أمتار على الأقل. الوالدة كانت تقبع في الجهة الخلفية. هل يمكن اعتبارهم من المنبوذين أو من الذين يُشكّلون حالات اجتماعية؟ بكل تأكيد لا. إنهم أشبه بالبرجوازية الصغيرة الجزائرية المتفرنسة نوعاً ما، أو من الرجال السود أكثر من كونهم إسرائيليين. قدم لنا أحد الشباب فنجاناً من النعناع وبعض حبات دوّار الشمس وبعض الأوراق الخضراء التي يجب قضمها بفن. ذابت البوظة بسرعة. إنه أمر غريب ومهم: يحاول هؤلاء الجماعة بكل صدق إظهار شيء ما لضيوفهم الأجانب ولكنهم لا يعرفون بالضبط ما هو هذا الشيء.

فيكي تترجم ما يقوله الأب والأخوة وأزير تعلّق على الأحاديث وتوضّحها، وتفرط في الكلام، لأننا كنا مرتبكين بالفعل واستمرينا كذلك حتى النهاية.

دلّني أحد الأخوة على شق في السقف، طوله حوالى مترين. رفع الجميع رؤوسهم. بالفعل فالسقف كان رطبٌ. إن هناك، على الأرجح، مسرب ماء على السطح.

«نعم، إن الماء يتسرّب. ولكن لإصلاحه يلزمنا ساعتين وعدة أمتار من الكرتون المقطرن. . . إنكم عدّة رجال في البيت؟.

ـ «هم» لا يقدموا أية مساعدة، آه، لو كنّا من «البيض»، «لكانوا» صلّحوا السطح منذ مدة طويلة. لكننا من «السود» وهذا البلد هو ملك «البيض».

ـ (الأب) لا، هذا البلد هو لنا جميعاً. ولكن أصحاب المراكز والأغنياء الذين أخذوه منا هم «البيض». نحن موجودون فقط للأشياء الوسخة! أما في ما يتعلّق بالأمور الحسنة، فلا أحد يسأل عنّا.

ـ (أحد الأولاد) جاء آباؤنا لكي يكونوا عمالاً وجنوداً، لا حقوق لنا، وفي حال

تقاعسنا عن واجباتنا فمصيرنا السجن؛ وعادة لأسباب تافهة».

فيكي وتسيبوناهزتارأسيهما ورفعتا أعينهما نحو السماء.

ـ كم عدد الذين يوجدون في السجن الآن؟

ـ لا أعرف. .

كنت كمن يُناقر بسبب وبلا سبب يمني كفار شالم. أقسم بأنني لا أخترع شيئاً. هناك نزاع دون شك، ولكن الجو فاسد.المشكلة موجودة وإن كانت أقل وضوحاً من كريات شمونة. هنا، حتى الآن أشاهد تمثيلية تقوم بإخراجها فيكتورين.

ما زلت أرتكب الأغلاط.

«قل لي إذن. . . أمام الباب يوجد بيجو ٣٠٥ جديدة وفولفو. . .».

البيجو هي ملك لأحد الأولاد. أما الفولفو الستايشن، فسعرها لا يقل عن مئة وعشرين ألف فرنك فرنسي. لا بأس بالنسبة لجماعة كهؤلاء. برأي فيكي تنقصني الحصانة، لكنها تترجم ما أقول.

«الأب مشوّه حرب. إنه من قدامى الأرغون. يحق له بسيارة كل ثلاث سنوات معفيّة من الرسوم.

ـ طيب. ولكن فولفو من دون رسوم تساوي ثلاثة أضعاف رينو ٩.

ـ يمكن بيع الفولفو بسعر جيد. هذا من جهة. أما من جهة أخرى فللعجوز أولاده وأحفاده، إذن تلزمه سيارة كبيرة. لقد قبض بفضل بيغن جميع متأخراته».

بدأت فيكي تعرض سلسلة من البراهين التي أعرفها جيداً.

«ستقول لي أيضاً بأن لديهم تليفزيوناً ملوناً جديداً. . .».

ـ نعم سأقول لك.

ـ حاول أنْ تفهم. فالسيارة والتليفزيون أمور مهمة بالنسبة لهم. هذا كل ما لديهم للاتصال بالعالم الخارجي. نحن نذهب إلى المسرح والسينما. نحن نعيش، أما هم، فماذا عندهم؟ هو لا شيء».

اشتدّ النقاش بفضل أزير.

«نقترع؟ لماذا، إننا دائماً من الخاسرين. فاليهود الغربيون يسيطرون. يلزمنا عشرة وزراء شرقيين لا ثلاثة فقط. هكذا يكفّون عن إهانتنا بالبونبون كي نسدّ أفواهنا. يفرّقون فيما بيننا. انتظر حتى يأتي شخص منّا كليش فاليسا. إسرائيل هي بلد ديكتاتوري بقناع ديمقراطي.

ـ (شاب صغير شديد السمرة). حالياً الشرطة تخاف بسبب المظاهرات والصلبان

المعكوفة المرسومة على الجدران. ولكن حين يستتب الأمن سننطلق. سوف ننظّم نضالنا ونجمع الشبيبة الشرقية بعشرات الآلاف في تل أبيب والقدس والمستوطنات وسنقوم بمظاهرات تُطالب بالعدالة والمساواة. لسنا مجانين. أولاً نمدّ يدنا «للبيض». ارجعوا لنا كرامتنا التي سلبتمونا إياها. في حال عدم الاستجابة سنقاتل حتى آخر نقطة دم وسننتصر ونستولي على السلطة لأننا نشكّل الأكثرية.

ـ حين وصل الروّاد الصهاينة من أوروبا لم تكن الحياة سهلة، أليس كذلك؟

ـ هذه دعاية. حتى في الثلاثينات، ومع أول تأسيس للدولة كان اليهود الغربيون هم أرباب العمل وكان اليمنيون هم من يعمل. قبل بناء تل أبيب، لم يكن يوجد هنا سوى الرمال. لقد شيّد «البيض» أحياء فخمة من عرق جبيننا.

هناك قصة أخرى تُروى على سبيل النكتة: رجل من أصل ألماني يتنزّه مع حفيده في تل أبيب: «هل ترى هذا المنزل يا دانل؟ لقد شيّدته بيدي. وهذا الرصيف؟ لقد عمّرته بيدي. . . ـ قل لي يا جدي، هل كنت عربياً حين كنت شاباً؟» في عام ١٩٤٨ كان ٩٥٪ من عمال البناء من المهاجرين الغربيين.

نظر الابن البكر وأزير كل إلى ساعته.

«إنها الساعة الرابعة وخمس وخمسون دقيقة. نعتذر هذا نهار سبت، يجب أنْ نتوقف عن التدخين. . .

ـ (الشاب الأسمر) أثناء الحرب كان «البيض» يضعون الشرقيين في الصفوف الأمامية كي يُقتلوا، أما هم فيظلون في الوسط. لولا المذابح الجماعية لما كانوا أتوا إلى إسرائيل. حتى حين كان الألمان يُحضّرون للمذابح الجماعية لم يأتِ أحد من اليهود الغربيين إلى إسرائيل. لقد كانوا أثرياء جداً في الغرب بحيث لم يفكروا أبداً بالانتقال إلى هنا. بينما اليمنيون الذين كانوا يعيشون في الفقر والقمع، فقد أتوا يحملون سلة صغيرة ولفّة من القماش التورا تحت ذراعهم.

ـ هل يعاملونكم كالعرب؟

ـ يعطونك عشرة عمال من العرب لتأمرهم وفي الوقت نفسه، يأمرك عشرون يهودياً غربياً.

ـ (أزير) كانت غولدا تقول بأن الذين لا يتكلمون اليدية ليسوا يهوداً. «وبياليك ماذا كان يقول؟ على الأقل لقد كان صريحاً. الآخرون خبثاء».

أكيد أن هناك مشكلة بين «البيض» و«السود» وإنْ كانت المعطيات متشابكة. وإلاّ فلا وجود للشرخ. حاييم نعمان بياليك الذي يُعتبر فيكتور هوغو اليهودي، الشاعر

الإسرائيلي الكبير في بداية هذا القرن من أحد أقواله المأثورة: «لا أحب العرب، قال بياليك، لأنهم يشبهون اليهود الشرقيين». يجيب الشعراء الشرقيون بأسلوب أقل فصاحة: «كذا وكذا بأمك». إنه بالفعل حوار طرشان.

«هل سياسة بيغن تجاه العرب هي أفضل من سياسة حزب العمل؟

ـ (الجميع) لا. إنها تشبه بعضها. إن بيغن ذو قلب طيب ولطيف جداً. أنظر إلى منازلهم في يهودا والسامرة. إذا استلمنا السلطة سنصفّي حساباتنا مع العرب بحيث نرتاح منهم نهائياً. كل من يرفع رأسه نقطع له رأسه. وهكذا تسير الأمور بشكل جيد. بيغن هو بين بين. إنه خائف.

ـ هل شارون أفضل؟

ـ إنه يهودي غربي هو أيضاً. ألست على علم بذلك؟ تُقدّم السجائر للإرهابيين في السجن. هل حصلت أنا على شيء؟ إذا كان العرب يريدون فعلاً السلام، فليتخلّوا عن الخليل وبيت لحم وبعد ذلك لكل حادث حديث.

ـ (الأب) لقد آن الأوان لنكون الأسياد. لقد قاتلنا بما فيه الكفاية من أجل ذلك. لن نتهاون بعد اليوم مع «البيض» إلى أن نأخذ مكاننا في إسرائيل. ولكن لا تُخدعوا فالنزاع بين اليهود هو نزاع ضمن العائلة الواحدة. في حال وقوع حرب ضد العرب سنهجم عليهم نحن واليهود الغربيون لكي ننتهي منهم نهائياً.

ـ وهذه الصلبان المعكوفة التي رُسمت على الكنيس وعلى سيارات اليهود الغربيين؟

ـ (أزير بانزعاج) أنا على الحياد.

أقسم أن أزير ورفاقه هم من الذين اشتركوا في هذه الأعمال. من إذن؟ إذا لم يكونوا هم؟ لا أحد في إسرائيل وليس من شرقي يتكلم مثل هذه الحفنة من الشبان التي من دونها يصعب تصور وجود حزب تامي. لماذا أتت بي فيكي شيران إلى هذا الجحيم؟

«إن ما يفعله بنا اليهود الغربيون هو أسوأ من المذابح الجماعية».

لم يعد باستطاعة فيكتور سيجيلمن الذي كان برفقتي أن يتحمّل. فهو يعرف المذابح الجماعية، ويروي بشكل ملموس وبسيط قصته في القطار البلجيكي عام ١٩٤٣. جنود إس. إس. كانوا يُنزلون اليهود واحداً واحداً بضربات العصا لإرسالهم إلى الموت. كان فيكتور لا يزال طفلاً. خبّأه كهنة كاثوليك ونجا بأعجوبة.

«ألا تُضخّم الأمور قليلاً؟

ـ لا. إذا سلبت روحي وطريقة عيشي وكرامتي، أليس الشيء نفسه؟».

مكثنا عدة ساعات، وقد حان الوقت أنْ نترك عائلة موداي. أزير وفيكي وتسيونا

والابن البكر خرجوا معنا. الرجال يتكئون على سيارة التويوتا الجميلة ويشعلون السجائر. إنهم يدخنون ويقودون السيارات نهار السبت. غضّ العجوز الطرف. أكيد إن «البيض» قد سرقوا أرواح هؤلاء المتاكين.

فيكتور يسأل الشابين : « هل تعرفان ماذا يعني الصليب المعكوف ؟

ـ نعم نعرف إنه شيء ضد اليهود الغربيين، شيء لا يحبونه.

فيكتور سيجيلمن يفسّر ما هو الصليب المعكوف. قرفص بين الفولفو والتويوتا وبطرف سبابته رسم سفاستيكا في الغبار ثم محاه. كان الشابان اليمنيان ينظران إليه بصمت. فيكتور « أبيض » . إنه جزء من الذين سلبوهم أرواحهم. ولكن أزير وصديقه نسيا أن يفكرا في هذا الأمر في تلك اللحظة.

التقيت يائيل السمراء الجميلة في Lésarée عند أصدقاء أثرياء يملكون فيللا رائعة.

لقد أتت من المغرب عام ١٩٥٩ مع أخواتها الثلاث وأخوتها الستة. عاشت فترة طويلة في المخيم من دون كهرباء. وبما أن المسؤول عن المخيم لا يتكلم الفرنسية والعربية، بل العبرية والبولونية واليدية، وبما أن المهاجرين الروس والبولونيين غادروا المخيم قبل سواهم، اكتظّ المخيم بالذين يتكلّمون العربية.

في أحد الأيام لاحظ بعض المارة على الطريق الواسعة في القرية حيث تسكن يائيل، هذه الفتاة الصغيرة التي تبدو عليها ملامح الذكاء. هؤلاء المارة هم من اليهود السويسريين الميسورين. وبفضل مساعدتهم استطاعت يائيل أن تذهب إلى الجامعة. حالياً، إنها وكيلة شركة فرنسية لصنع طائرات الهليكوبتر. تملك فيللا بالقرب من التي يملكها أصحابي. دخلت يائيل المعترك السياسي باكراً، وذلك لمساعدة المهاجرين الشرقيين. الليكود خيّب ظنّها: تعتقد أنه ديماغوجي كبير. أما حزب تامي فهي تُعارضه بشدّة.

«لا أعتقد بأنه يجب فصل مصير الشرقيين عن مصير سائر الإسرائيليين الذين يعيشون في ضائقة. بل بالعكس من الأفضل دمج اليهود الغربيين بالشرقيين وخاصة الأولاد. يجب فتح مدارس مختلطة. أنا شخصياً أهتم بالمهاجرين الروس مثلاً،بقدر اهتمامي بالمغاربة. أفضل طريقة لمساعدة أخوتي هو أنْ أناضل أيضاً مع اليهود الغربيين».

إذا كنت أصرّ على رواية قصة يائيل ليس لأنها من قصص الجن المليئة بالعبر، فالعبرة ليست في ما تظنون. إن يائيل هي من عائلة شرقية عددها كبير، محكوم عليها أنْ تعيش في أكواخ «السود»، التقت ذات يوم بعائلة سويسرية، جمّعت ثروة وترفض أنْ تقع

في فخّ التعصّب!؟ نسيتُ أنْ أقول لكم إنه إذا كانت عائلة يائيل فقيرة فلأن والدها. . . ترك ثروته في المغرب. في الدار البيضاء كانت يائيل وأخوتها يذهبون إلى المدرسة بالسيارة التي يقودها سائق الأب. الأمثولة التي يمكن استخلاصها: أن «السود» الأثرياء هم من «البيض».

يهودية أخرى غير سويّة. غير سويّة بالنسبة لماذا؟

في مستهل هذا الكتاب، تكلّمت عن شخص يدعى زبدي كوهن ، الجندي الذي صعد معي في السيارة على طول نهر الأردن: الذي لا يحبّ أريك شارون. يعيش زبدي مع والدته جنفياف كوهن التي تعرف جميع الناس، من الرئيس بورقيبة إلى صديقي عالم الاجتماع ألبير ميمي.

كنت على موعد مع جنفياف كوهن في مقهى أكزودوس بالقرب من ساحة حمدينا في تل أبيب. مكان لائق جداً.

«هل التقيت فيكتورين شيران؟ أعرف زوجها السينمائي جيداً. اقتبس فيلماً عن رواية ميمي الجميلة «تمثال الملح». إنه قاسٍ. يعتبر أن اليهود الشرقيين الذين لا يناضلون ضد «البيض» خونة. . .

ـ هل تعتقدين حقاً أن ثقافة اليهود الشرقيين مهددة بالدمار والذوبان؟

ـ لا، بالعكس، أعتقد بالأحرى بانهيار القيم الغربية. . .».

امرأة ذكية ومثقفة تتكلم هكذا في مقهى أكزودوس. درست جنيفياف في باريس، إنها غربيّة حتى العظم. فلا شيء يربطها بقيم كفار شالم أو كريات شمونة. فالغرب حتى إشعار آخر ليس منتهى الشر. تكلّمنا عن قصة تلك الفتاة التي تعيش مع والدها، يهودي من تونس متدين. دخلت كلية الطب. أحد أصدقائها في الجامعة قرع الباب في إحدى الليالي ليأخذ المحاضرات. دفع الأب الشاب المسكين نحو الباب وصرخ: «ابنتي عاهرة». ولا دخل لكل ذلك بموضوعنا ولكن. . .

«عندما أُعلن انتصار بيغن في الانتخابات كنّا كالمجانين. الجميع بكوا في البيت. ولكن بما أنني أكنّ مشاعر عميقة نحو هذا البلد، لا أجرؤ على إعطاء أحكام قاسية. فصبرا وشاتيلا ليسا سوى حجّة للتهجم على إسرائيل. لم يعد هناك من محرمات ومن احترام. إني خائفة».

«العرب؟ أكيد أنه ليس في تونس تعلّم اليهود الشرقيون كره العرب. أنا في تونس كنت وطنية. . عربية. كنت أستقبل قادة جبهة التحرير الجزائرية في منزلي. زوجي كان

يملك مصنعاً كبيراً للأحذية. دُعيتُ لزيارة بورقيبة. اشتغلت مع المصمودي بعد الاستقلال في وزارة الاعلام. أنا من عائلة كوهن وتزوجت من العائلة نفسها. لم أشعر أبداً بالعداء للسامية. ولكن بدأنا نشعر وكأن شيئاً ينقصنا؛ الجميع رحلوا. لم يكن سهلاً الرحيل من تونس».

«هنا عشت خلال عشرين سنة حياة رائعة. لقد أدركت أنني هناك كنت في خطر. في الكيبوتز كان زوجي اليهودي الشرقي يهتم بتربية سمك الشبوط. وأنا الحبلى أعمل بلمّ جبال من البصل.. السلام؟ أريد السلام لكنني أخاف من السلام. علينا أن نفتش عن النخبة في الطرف الآخر، ومدّ يدنا لها ومناقشتها. علينا أنْ نحاول وإن كان الأمر صعباً».

«إن قصص اليهود الغربيين والشرقيين... أعرفها ولكني لا أتدخل بها؛ خلال اثنتي عشرة سنة قضيناها في الكيبوتز وخلال فترة الموشاف فيما بعد، لم أشعر أبداً بأنني كنت «سوداء». هل تريد أن يقدم اليهود الغربيون لنا المراكز والوزارات؟ هذا غير معقول. علينا أن نتطور كي نحصل عليها. لا يزال الوقت باكراً بالنسبة للكثير من المهاجرين؟ إنها مسألة ثقافة. علينا أنْ نجتهد. كل شيء ممكن في إسرائيل. إن أفكار فيكي خطيرة جداً: أظن بأنه حين تطلق الشرطة النار على يميّ فهذا يُفرحها. الهوة تزداد، والشباب هم الفئة الأكثر ضياعاً، يتعاطون المخدرات ويعجزون عن التأقلم، هؤلاء الشباب يعتبرون مهاترات حزب التامي وكأنها منزّلة. إنهم يتجمّعون في مجموعات مُستقلة والتي تعتبر نوعاً من الألوية السوداء الأكثر خطراً من الفهود السود، وذلك لكونهم لا يحملون أية إيديولوجية، وليس لديهم سوى الحقد...».

«يوجد مغاربة ويمنيون محترفون!».

الكلام عن أقلّية صغيرة أمر سهل. حتى أنه خطر حين نرفع كتفينا باعتبار أن هذا الألم البسيط متمركز في موضع واحد ولا يحتاج لاستشارة طبيب، وهكذا يبدأ في كثير من الأحيان السرطان. «فالشرقيون المحترفون» يشبهون غوش إيمونيم على طريقتهم. إنهم أقلية ولكن لا يمكن أن تتصور مدى تحرّكهم».

«الأفضل لهؤلاء الناس اللجوء إلى محامين بدل لجوئهم إلى المسدسات». فالرجل الذي يتكلّم هكذا هو محامٍ عجوز من أصل غربي. لقد كان يتنزّه مع زوجته. إن عدد الذين كانوا في ساحة مالشي إسرائيل من أجل مظاهرة حزب تامي هو قليل جداً. إن حزب «السود» يريد أنْ يجعل من شيمون يوشوا الذي قتل على سطح منزله شهيداً من

أجل القضية الشرقيّة. ولا يتجاوز عدد الذين جاؤوا من الأحياء الفقيرة في تل أبيب ألفين أو ثلاثة على الأكثر. لم يشارك سكان المستوطنات ولا سكان الموشاف بهذه المناسبة.

عدد الحشريين يتجاوز عدد المتظاهرين. مكبر للصوت يصدح: «لا تستعملوا المتفجرات»، «إنهم يستفزوننا إحدى اليافطات كُتِبَ عليها «العدالة للجنوب»..

جاؤوا بوالد يوشوا الذي لم تمنعه أعوامه الثانية والثمانون من إلقاء خطاب عاصف على الطريقة الشرقية.

«حذار أنتم يا أيها اليهود الغربيون؛ لا تعمّقوا الهوة ولا تدفعونا إلى التطرف وإلاّ سنشهد دمار الهيكل الثالث».

قيل لي إن البلديةقدمت شقة لعائلة يوشوا بدل المنزل التعيس الذي كانوا يعيشون فيه، ولكنهم لم يقبلوا: هذه شقة بعيدة وهذه عالية وتلك صغيرة جداً.

رأيت رجلاً وامرأة واقفين لوحدهما. الزوج مغربي ورسام في قطاع البناء.

«نحن نسكن في مسكن شعبي في كفار شالم؛ أهلي يقيمون بالقرب منّا ولا نشكوا من شيء.

ـ لماذا إذن هذه المآسي؟

ـ يعيشون في بؤس مدقع لذلك لم يعودوا يتحمّلون.

سمع بعض المغاربة أننا نتكلّم بالفرنسية فتجمهروا حولنا.

«إن من له أولاد بهذا العدد يعطونه ميدالية في فرنسا. هنا تسعة عشر شخصاً يعيشون في ثلاث غرف. لم نعد نتحمّل. ستقع ولا بد الحرب بين «السود» و«البيض» كما حصل في لبنان».

الذي يتكلم شاب سمين، يرتدي بذلة السبت، مع العلم بأننا في نهار الخميس. جميع أفراد عائلته هنا. إنه موظف في بلدية تل أبيب.

«ولدايّ الاثنان هاجرا إلى كندا لأنهما لم يجدا مكاناً لائقاً يسكنان فيه. أنا توسطت عدة سنوات حتى حصلت على شقتي.

ـ (تشدني زوجته من يدي) حين حصل على الشقة، غاب عن الوعي من شدّة الفرح».

شخص آخر يشكو من أنه لا يستطيع أن يشتري المنزل الذي يسكن فيه.

«ليعطونا ولو قليلاً من الأموال التي يرسلها اليهود الأميركيون. أنا أعيشُ في قفص للأرانب.

ـ أنا، السقف يدلف عندي.

ـ أنـا، الفئران تمـلأ المكان. يعطون الروس كل ما يـريدونـه ونحن يزجّـون بنا في السجون بحجة أن شبابنا يبيع المخدرات».

استوقفت شاباً أحمـر الشعر ينتقـل من مجموعـة إلى أخرى هـو وزوجته. إنـه يُنهي تخصصه في الطب. أهله أتوا في الماضي من روسيا، هي من أصل روسي بلغاري.

«إنها صـرخة غضب من الشـرقيين ضـدنا... بـالرغم من كل ما يدّعونه لا وجـود للتمايز. ولكن يجب الاعتراف أن وضعهم مزري».

كانت الأصوات تتداخل من حولي والأجسام تدفعني.

«كأننا عـرب أو عبيد أفـريقيا. فـرضوا عـلى أحد أولادي أنْ يقـطف الليمون مثلما يفـرضون عـلى العربي. يعـاملوننا أسـوأ ممّا يعـاملون العربي. هنـا يجب أن تكـون عينـاك زرقاوين وشعرك أشقر وإلّا فأنت لا شيء...».

بعد يوشوا صعد إلى الميكرو مغنٍّ يمني صوتـه جميل. مـوظف البلدية الـذي تحدّثنـا عنه أخذ يتكلم والكل من حوله يوافقون.

«حين تندلـع الحرب ويعمّ الخـطر يظل «البيض» في مكـاتبهم، في الخطوط الخلفيـة ويرسلون أولادهم إلى الولايات المتحدة».

يصعد إلى المنصّة خطيب شاب ويهاجم بلهجة قوية:

«إصنع السلام معنا يا بيريز عوض أن تلاطف العرب. أين أنتم يا جماعة «السـلام الآن»؟ إنني لا أراكم.

ـ (شاب «أبيض» من بين الحضور) وهل ترى الليكود؟ وهل ترى بيغن؟

ـ بعد صبرا وشاتيلا جاؤوا حوالى أربعمئـة ألف لكي يبكوا عـلى العرب. ولكن لا يخرجون من منازلهم عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن اليهود».

تذكّرت الصلبان المعكوفة في كفار شـالم. إن مقارنـة مذبحـة ذهب ضحيتها مئـات المدنيين من النساء والأطفال بانزعـاج اليمنيين السكن في مسـاكن شعبية أمـر بالفعـل غير معقـول. الشك غـير مسموح بـه. وهناك أشيـاء تتطور. مـا هي؟ إن وضـع المهـاجـرين الشرقيين المادي يتحسّن سنة بعد أخرى بالرغم من الاهتمـام بالمستعمـرات. أين هو إذن مكان وجع «السود»؟.

آلفنان يُدعى شالوم كوهـن. لقد تكلّمت عن هذا الرجل المثير وهذا العـادل الذي لا يتزحزح إيمـانه. ومن المؤسف أن هـذا الإيمان لم يستـطع حتى هذه السـاعة نقـل جبال الأنانية الضخمة ولا الرياء... إن شالوم الفوضوي هو جزء لا يتجزأ من تاريخ إسرائيـل.

لقد كان رئيس الفهود السود عام ١٩٦٧. وقراء صحيفة الماتان الفرنسيون غالباً ما ينسون أن مراسل جريدتهم الدائم هو نبي على طريقته.

التقيت شالوم كـوهـن صبـاحاً في حـديقة منـزله الصغـير حيث يكفي أن تمدّ يـدك لتقطف حبة مندارين.

«ظاهرياً، إن كلّ ما نراه هو جنون. لقد قدمت البلديـة مساكن شعبيـة لليمنيين في كفار شالم. فرفضت أقلّية مسعورة. أطلقوا النار على بعضهم. فانقلب الوضـع رأساً عـلى عقب... في الحقيقـة إن المنازل الخـاصة تتـلاءم مع التقـاليد الشـرقية أكـثر من الشقق. والناس متمسّكة بالأحياء التي تعيش فيهـا. لكن هذا التفسـير لا يكفي. إن هذه الأرض التي سُـرِقت في الماضي من العـرب يظن اليمنيـون أن «البيض» سيسـرقـونها مـرة أخـرى ليتاجروا بها ويحققوا أرباحاً طائلة. لذلك يقاومون. فالمسألة تتعدّى الأزمة السكنيّـة التي لم تعد موجودة لتطال الصراع بين اليهود الغربيين والشرقيـين. فهؤلاء يقاومـون السلطة أينما وجـدت. فقصة المسـاكن الشعبية ليست سـوى تعبير عن أزمـة الشمال والجنـوب، وهذه الأزمة هي عميقة. إذن حول ما يُقال عن قضية كفار شالم، إنني من رأي فيكي. ولكن لا أحب الأسلوب الذي يحاول به تامي الاستغلال السياسي لمشاعر الناس».

«لنرجع إلى الوراء. حين كان مبعوثو الوكالة اليهودية يـذهبون للتفتيش عن اليهـود في البلدان العربية، كانوا يخضعون هؤلاء لنوع من غسل الدماغ. «إذهبوا معنـا، قال لهم الصهـاينة، ستصبحـون إسرائيليـين». لم يدرك هؤلاء التعسـاء مـا المقصـود بكـل هـذا. والصهـاينة بـدورهم لم يكونـوا يعرفـون شيئاً عن الشـرقيين وعن ثقـافتهم. جلّ مـا كـان يشغلهم هـو تحويـل هؤلاء البجم المتخلفـين الى أوروبيـين ودمجهم ضمن شعب واحـد. الكيبوتز والاشتراكية الديمقراطية يجب أن تولّد وطناً جديداً».

«وقع سوء الفهم بعد فترة وجيزة. وجد الشرقيون أنهم في مـوقع بـين اثنين. كـانوا يريدون أن يتخلّصوا من الثقافة العربية وتأكيد هويتهم اليهودية ولكنهم كانوا عاجزين عن استيعاب الآداب الصهيونية المستوردة من الغرب. ففي هذه الثقافة الأحـادية الجـانب التي كان حزب العمل يؤسسها، كانت مشاركة الشرقيين معدومة».

«في الوقت نفسه، أظهرت القيادة السياسية الصهيونية عجزها عن مقاومة إغـراءات جهاز الدولة والمُلْكِيّة».

لنتذكر أن الذي يتكلم هو فوضوي.

«كل ما تخلّى عنه العـرب وضع اليهـود الغربيـون يدهم عليـه. كنا بحـاجة إلى يـد عاملة؟ فالعربي والشرقي هما لهذه المهمـة، كل حسب مستـواه. وبما أن الشـرقيين هم من

اليهود، يجب أن نخلصهم من «عروبتهم» بسرعة من أجل مصلحتهم وذلك لكي يكونوا إسرائيليين بكل معنى الكلمة. ويمكن الكلام على هذا الصعيد عن إبادة ثقافيّة من أجل صالح القضية».

«خُذ الكتب المدرسية: لا يوجد أي شيء فيها عن الشرقيين أو بكاد. كأنهم غير موجودين بينما هم يشكّلون الأكثرية في إسرائيل. فالرواية اليهودية تقول: «منذ مئة سنة كان أجدادنا يرتدون قبعات الفرو ويعيشون في شتاتيتل في غالاسيا». فالشاب الشرقي الذي ينظر في بيته إلى صورة حاخام عجوز مغربي أو يمني مصغّرة، يقول لنفسه إن حاخامه ليس يهودياً أصلياً بما أنهم لا يتكلمون عنه في المدرسة. ورب العائلة الذي لا يعرف حتى كتابة ورقة إدارية بالعبرية ماذا سيحلّ به وبهيبته. فانكشاف الوهم أثار ردّة فعل عنيفة. «الأسود جميل». عاشت الموسيقى العربية».

«أصبح الاشتراكيون الذين يحكمون إسرائيل بفضل الفعاليّة الغربية، حزب الكولاك(*). نعم حزب رجعي. إن الاقتراع لحزب العمل هو ضمانة ضد غضب «السود» والفقراء. في البداية لم تكن انتفاضة الشرقيين رجعية أو وطنية. حين كنت أقود الفهود السود كنّا نتظاهر في الأحياء الفخمة ونحن نردد «بيغن ابن عاهرة»، أحرقنا مكاتب الليكود. ولكن حزب العمل كان يخاف منّا أكثر ممّا يخاف من بيغن. وُضعت في السجن ثلاثة أشهر، وهكذا انتهت الفهود السود. اعتقد الشرقيون أن الاقتراع لبيغن هو نوع من الثأر ضد عقلية الكيبوتز الغربية التي كانت تُريد سلبهم هويتهم. لقد كان بيغن محظوظاً في تحريك هذه الحشود ضد «اليسار الإقطاعي».

«لم تكن ردّة فعل حزب العمل جدّية ضد ديماغوجية الليكود. لقد ذهب من دون رجعة النزاع الذي كان قائماً بين الاشتراكيين أيام بن غوريون والوطنيين أتباع جابوتنسكي. في النهاية توحدت أهداف الفريقين. فالمستوطنون العماليون الذين استقروا في وادي الأردن بعد حرب الأيام الستة، هل يختلفون في النهاية كثيراً عن غوش إيمونيم؟ ما هي قواسمهم المشتركة مع عمّال المستوطنات؟».

«لقد تأخر الأميركيون في الاقتناع أن ثمة علاقة بين المستوطنات في الضفة الغربية والدولارات التي يرسلونها. لقد بدأوا يكتشفون أنه عمل خطير على المدى البعيد. وفي حال لم يعد هناك أموال لكي تشتري الناس تليفزيونات معفاة من الضرائب وسيارات جديدة وتلعب بالبورصة وتحافظ شكلاً على توظيف كامل لليد العاملة، في هذه الحالة على

(*) الكولاك هم الفلاحون الاغنياء

الدولة أنْ تقرر سلماً للأفضليات. حتى اليوم لا تزال توجد أموال للجميع ولشراء كل شيء. ولكن غداً؟ إذا حاول بيغن شد الحزام فأوّل من سيدرك أين تكمن مصالحهم هم الشرقيون. وهكذا سيخبو تطرفهم وتفقد ديماغوجية الليكود أي تأثير عليهم».

«لأنه عليك أنْ تفهم شيئاً: عمّاليون أم بيغينيون فالقومية الإسرائيلية هي سمة غربية. فالشرقيون لا يساهمون في إنجاح أي عمل إلّا بالمصادفة، لأنهم لا يُميّزون بين اليسار والكيبوتز والحمائم. وفرض إسرائيل في الشرق الأوسط بهويتها الغربية هو في الأساس عمل أوروبي. لقد عانى اليهود من الغرب. فالدعم السياسي والعسكري والاقتصادي لإسرائيل هو نتيجة لهذا التغاضي الغربي. وفي هذه اللعبة «السود» ليسوا سوى أداة. والأداة يمكن أنْ تنقلب».

«لهذا السبب أظل متفائلاً بالرغم من هذا المستنقع الذي نعيش فيه. سأل أحد أصدقائي في كريّات شمونة مغربياً من المتحمّسين لشارون: «هل توافق على الحرب في لبنان؟ وعلى الاستعمال الدائم للسلاح؟ ـ أنا؟ أبداً لقد نجح بيغن في ترسيخ التماثل بين القومية الفجّة والوقوف ضد الاشتراكية الرخوة «للمؤسسة» الغربية التقليدية. أتى بيغن إلى الحكم منذ ست سنوات ولكنه لا يزال رمز المعارضة وهذا لا يعني أن سياسته هي تعبير عن إرادة الشرقيين الحقيقية ورغباتهم العميقة».

لقد قلت لك: شالوم كوهن الفوضوي البهلواني يلعب من دون شباك. والمستقبل وحده سيقول نعم أم لا إذا كان يمسك أرجوحته بقوة. من أصل شرقي ومناضل من الحمائم، إنه من أكثر الذين التقيتهم تمزّقاً.

«لقد تسنّى لي الوقت لأن أفكر بمصير عائلتي وشعبي. الديماغوجية لا تستمر طويلاً... إن إمبريالتنا المتغطرسة هي نتيجة عدم الرويّة الغربيّة والخوف اليهودي الغربي أيضاً. الشرقيون هم أقل قلقاً من الغربيين كما أنهم أقل وسوسة من المذابح الجماعية. أنظر، إن عدد الشرقيين ضمن غوش إيمونيم هو قليل جداً وكذلك عند مئير كاهانا وأتباعه. حين أتى السادات إلى إسرائيل قالت الإذاعة والتليفزيون للناس أن يبقوا في منازلهم. اليهود الغربيون نفذوا الأوامر بينما خرج «السود» إلى الشوارع لاستقبال المصري».

«نعم، أنا متفائل. لا يمكنك في الشرق الأوسط أنْ تكون في الوقت نفسه متفائلاً ونافذ الصبر».

مسكين شالوم، إنه مثقف متسيّس وغربي يسعى وراء الثقافة الشرقية، عربية كانت أم يهودية.

«على المخاوف المستوردة من الدياسبورا الغربية أنْ تنتهي. علينا أن نحترم كرامة اليهود الشرقيين وعلى الأميركيين أنْ يقرروا دعمنا بشكل أقوى وعلى الفلسطينيين أنْ يعترفوا أخيراً بأن طموحاتهم القومية لن تتحقق أبداً من دون مساومة إسرائيل. عند ذلك يمكن أنْ يحصل كل شيء؛ فمنظمة فتح يمكنها خلال ثمانٍ وأربعين ساعة تصفية المتطرفين في منظمة التحرير الفلسطينية. السلام ممكن إلّا في حال ربح بيغن السباق».

إلّا في حال. . .

«إن عدد الشرقيين قليل جداً عند جماعة غوش إيمونيم» قال شالوم كوهن. من دون شك.

خلال رحلتي في قلب إسرائيل، وخلال لقاءاتي، سمعت الكثيرين من الإسرائيليين يطالبون بحقهم المباشر على كامل أرض أجدادهم؛ إذن على يهودا والسامرة وغزة. بعضهم يتكلم عن الأمن والاستراتيجية والحدود الآمنة ضد عدو لا يمكن الوثوق به. والبعض الآخر يتذرّع بالوعد الإلهي وبجوهر الشعب المختار وأرض ميعاده. البعض منهم لا يكلّف نفسه عناء التفتيش عن الأسباب البعيدة: «هذه أرضنا وليمت بغيظه من لا يُسرّ بذلك». بين هؤلاء المتعصّبين من هم الأشد تعصّباً؟ لقد ظهر لي بسرعة أن أولئك الذين يرفضون التفاوض حول سنتيمتر مربّع من حقوقهم، لا تتماثل لهجتهم وأفكارهم تماماً. فالمتدينون أنفسهم تختلف لغتهم نوعاً ما باختلاف انتمائهم إلى اليهود الغربيين أو الشرقيين. وهذا هو أيضاً خط من خطوط الشرخ.

بما أن القضية المطروحة في هذه الفصول هي أنْ يكون الواحد إسرائيلياً أو شرقياً بشكل أو بآخر، فاستعرض نقطة معاكسة؛ موقف الغربيّ من حق وجوده وبقائه هنا، وذلك حتى يتسنى لي مقارنة جميع الأهواء.

وقد صدف أن إيلانا ويوشي هما أوّل اثنين من غوش إيمونيم التقيتهما في كريات اربا وكانا شرقيين. أساتذتهما لم يكونوا كذلك. إيلانا ويوشي كانا مدركين أنهما فريدان لأنهما طلبا مني أن أعود للقائهما لكي أستمع إلى مؤيدين آخرين يجلّان أقوالهم. وكانا يعتقدان أيضاً بأن المتحدثين الأكبر سناً منهما والأكثر اضطلاعاً على حقائق الكتاب، باستطاعتهم أن ينيروني أكثر. عدت إذن إلى كريات اربا وهناك اصطحبني أصدقائي في الليل إلى بيت مريام لوفينجر.

كان البرد ينخر العظم، وكانت بعض المصابيح ترسل هالة من الضوء الأبيض وفي

الخلف كان للظلال طعم لا أحبه أبداً. ربما لأنني لا أعرف سوى القليل عن الخليل. . .

إيلانا كانت تجلس في الوراء ويوشي إلى جانبي في هذه السيارة الصغيرة وهو يحمل بين ركبتيه رشاشه أوزي الذي لا يفارقه. تركنا حاجز كريات اربا وفي هذه المنطقة لا يخرج أحد من جماعة الغوش عارياً. كنا نمرّ في شوارع ضيقة ومتعرّجة باتجاه قلب المدينة. الطريق خالية. فاليهود هنا يشعرون أنهم في ديارهم، في قلب أرض أجدادهم: ولكن على ما يبدو هم الوحيدون الذين يدركون ذلك. ولكن لا فرق عندهم.

«إلى اليسار، إلى الأمام. . . يسار، يسار. . .».

الديكور مُحزن، ولكن ربّما في رأسي فقط. لا ليس في رأسي فقط. في الأيام الأخيرة جرت مظاهرات في الخليل تخللها ضرب بالحجارة وحرق دواليب السيارات. بعد عدّة أيام، أستير أوهانا فتاة في الثانية والعشرين من العمر تُوفيت متأثرة بجراحها بعد أن رُجمت السيارة التي كانت تركبها. طالب موشي لوفينجر بصوته الجهوري الأخذ بالثأر: «إن الذي لا يطالب بموت القاتل وبموت كل أولئك الذين يقذفون الحجارة يُعتبر مسؤولاً عن موت أستير. الله وحده ينتقم. في الأيام العادية جميل أن يحب الإنسان وأنْ يغني، وجميل أيضاً أنْ نكون أصدقاء. ولكن هناك وقت للانتقام وقد جاء هذا الوقت».

تقريباً جميع الغوش إيمونيم في المنطقة يقيمون هناك في قريتهم المحصّنة كريات اربا. ولكن البعض منهم اختار السكن في وسط الخليل لأن هذا عمل صالح. فالخليل هي إحدى المدن المقدّسة الأربع للشعب اليهودي. فقبور إبراهيم وسارة وإسحاق وربيكا ويعقوب موجودة في هذا المكان. كان هذا الملك ملك داوود قبل دخوله القدس.

دخلنا إلى أثار كنيس إبراهام أفينو الضخمة حيث أشعل لوفينجر وأتباعه شموعهم على طريق المنتصرين في حرب الأيام الستة.

عند مدخل الكنيس المهدّم يوجد مجموعة من الجنود المدججة بالسلاح والتي تقوم بالحراسة تحت ضوء لمبة من الأستيلان. فأقنعة الغاز وجميع المعدّات اللازمة لفضّ المظاهرات هي في متناول اليد. بكل تأكيد إن رواد الله يظهرون بسكنهم هنا شجاعة تقشّفية. ولكني لم أكن لأستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بأن بطولتهم هذه هي سهلة نسبياً طالما أن رشاشات التساحل تحميهم.

«كان يوجد دائماً يهود في الخليل قال يوشي. عام ١٩٢٩ قتل العرب منهم الكثير. . .».

إن شقق عائلة لوفينجر قد شيّدت تحت أقبية حجريّة كبيرة من بقايا الكنيس

القديم. الحياة باردة وحزينة. بدأ بالنقاش. لم يكن الحاخام موجوداً. كان في المدينة. لا يتعب أبداً ولا يتراجع عن مهمته ألا وهي رحيل العرب وترك منازلهم لليهود بأيّة وسيلة كانت، بالترهيب أو الترغيب خاصة الترغيب المالي. فالأموال موجودة والجاليات الأميركية لا تتوانى عن الدفع لإتمام هذا الغرض. وبما أن الحاخام ليس هنا فزوجته هي التي ستستقبلنا. ولا أظن أننا سنخسر شيئاً.

لمبة نيون واحدة تضيء بشح ظهر كُتب التلمود الأسود في القبو الواسع والرطب الذي يُستعمل كمكتبة. دخلت ميريام لوفينجر. صعقت من الإعجاب ومن الخوف. إنها رائعة، تصور رائدة كبيرة عمرها خمسون سنة، تمشي كالشابة بنظرتها الذكية والحادة. كانت تغطي شعرها بشال وجسمها الذي يبس بعد إحدى عشرة ولادة، يسبح في ثيابها الطويلة الوسخة والتي لا شكل لها. ميريام هي من أصل أميركي ولهجتها تذكر بلهجة بوسطن أكثر من لهجة أحياء برونكس الفقيرة.

«أنا حلقة في سلسلة تاريخ اليهود الطويل وأعيش في ضمير شعبي».

تكلّمت ميريام أكثر من ساعتين. حديثها تركز على نقطة واحدة: إنها لا تبرر بل تُؤكد حضور إسرائيل المسيحي في أرض الميعاد.

«لقد عرف اليهود في الغربة بعض فترات السلام. البداية تكون دائماً صعبة. الوسط يبدو أحياناً جيداً ويوحي بالديمومة، ولكن النهاية هي ولا شك مأساوية وتؤدي إلى المذابح الجماعية. هذا هو قانون الدياسبورا الذي لا بدّ منه. المكان الوحيد الذي نشعر فيه بأمان هو هنا في قلب أرض الميعاد».

دلّتني ميريام على صورة قديمة معلّقة على الحائط. تمثل هذه الصورة مجموعة من الرجال والنساء بلباس الموجيك وهم يقفون أمام منظر في أوروبا الوسطى. عددهم لا يقل عن المئة.

«هذا قُتِلَ، وهذه قُتِلت. ثلاثة فقط من بينهم استطاعوا أنْ يأتوا إلى إسرائيل».

«النبي عازار جال حول العالم لدفع اليهود للعودة إلى الأرض المقدّسة وإعادة بناء الهيكل. لم يسمع أحد منهم فلعنهم. لو عادوا لما تهدّم الهيكل الثاني. لا مستقبل للهوية اليهودية خارج إسرائيل».

«حين دست أرضي شعرت بصدمة وفهمت. كان أهلي يعيشون في المجر، كانوا من المثقفين، وكانوا يقرأون باكونين(*). فيما بعد ذهبوا إلى أميركا وسكنوا في وست

(*) باكونين مؤسس مذهب الفوضوية

برونكس حيث ذاقوا الأمرّين. إنه النعيم هنا إذا ما قيس بتلك المرحلة».

النعيم هنا هو هذا القبو الذي يرشح والأثاث المخلّع والأولاد الذين يعملون في الظل والغسيل الذي لا يجف.

«أريد بلداً حيث يمكنني أن أحدد هويتي انطلاقاً من جذوري. منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ونحن نحمل الأسماء ذاتها. هنا في الخليل نحن عشرون عائلة مقابل سبعين ألف عربي. ولكن لدينا حكومة يهودية وجنود يهود بالقرب منّا».

«السنة الماضية، قُتِلَ سبعة منا ولم نقتل عربياً واحداً. اليهود لا ينتقمون. إنهم فريدون».

ـ لماذا فريدون؟

ـ لأن الله اختارهم كما ورد في سفر التكوين. وليس لأن الشعوب الأخرى سيئة، ولكن لأن اليهود هم الشعب الأفضل».

بعد كل سؤال كانت ميريام تتنفس وتواصل الإجابة. كانت إيلانا ويوشي اللذان يجلسان بعيداً وكلاهما آذان صاغية. هذه المرأة الذكية، هذه الأميركية المثقفة لأ تُوفر الحقائق الأبدية.

«لقد طُرِدَ اسماعيل جد العرب من منزل والده. وقد جاء في الكتاب: «إن بيتي سيبارك أمام جميع أمم الأرض». إن كتبنا هي التي تحدد سلوكنا. وهذه الكتب تفرض علينا العودة.

ـ هل يُخطىء اليهود؟

ـ قال الله: «هذه الأرض أعطيتها لكم» وما يقوله الله أفعله. الذين لا يستمعون لكلامه لن يعرفوا السلام. إن حياة المنفى ورفض عطيّة الأرض من الخطايا التي لا تغتفر.

ـ ولكن الفلسطينيين مقتنعون، هم أيضاً، بحقهم بالأرض...

ـ إذا أراد الله لأمة أن تُوجد لوجدت، وإلّا لن توجد أبداً».

«أين هم اليوم أولئك الذين اضطهدونا؟ قُضي عليهم. لم يبقَ إلّا اليهود في ديمومتهم. وما من شعب استمرّ مثل شعبنا. المسيحيون يقولون إننا لسنا شعب الله المختار، بل هم هذا الشعب: هذا ليس صحيحاً».

ميريام لوفينجر لا تكلّ عن تعليم الولد الطائش الذي يناقش وهو على ضلال. فتقول بالرغم ممّا ورد في التوراة، بأن محمد يدّعي أنه من أحفاد إسماعيل، إذن من ذرّية إبراهيم. هذا ليس صحيحاً. فحقدها ليس حقداً شخصياً بل تاريخياً.

«كنا قبلهم هنا ويريدون أنْ ينتزعوا مني ديانتي وأرضي. تصوّر ديانتي».

«حين دمّر يوشع أسوار أريحا جعلوا منه بطلاً. ووقعت الأسوار. لقد اقتحم وذبح واحتلّ أراضي. لم ينتقده أحد. بالنسبة للعربي الذي ليس مسلماً لا قيمة له. ولكن تأسيس دولة إسرائيل هي التأكيد والبرهان على حقنا».

«والآن هل أنا على حق أو الآخرون هم الذين على حق؟ إسرائيل هي أنا أو ليست أنا؟ لست أنا لأنك أنت أنت. أنا هي أنا لأنني أنا وهذه الأرض هي أرضي. من يجرؤ على القول بأنني لم أعد أنا؟ ماذا يعني هذا الكلام؟ تذكر جواب الحاخام كما ورد في التلمود. يهوديان يتناقشان من دون انقطاع. «أنت على حق» قال الحاخام للأول. وللثاني: «أنت على حق» اعترضت امرأة كانت موجودة هناك باسم المنطق على هذا الكلام: «يا حضرة الحاخام لا يمكن أنْ يكون الاثنان على حق ـ «أنت على حق» قال الحاخام. في الحقيقة إنه فوق المنطق الظاهري».

كي أمهّد لهجوم مضاد على أرضية ميريام بالذات تلوت عليها الكلمات الدينية التي سمعتها من فم الحمائم الذين التقيتهم ومن علماء التوراة الذين يقرأون الكتاب قراءة مغايرة: أوريال سيمون وأفيزير رافيتسكي. لا تعير النبية أي اهتمام لهؤلاء جميعاً.

«لا يهمّني ما تقوله أستاذة الفلسفة العبريّة. هل من الممكن تقسيم الأرض الذي وهبنا الله إياها؟».

«إن أي تنازل للعرب هو اعتراف بضعفنا. المسألة بسيطة، القوي هو الذي يسيطر. علينا أن نفهم هذا المبدأ نحن اليهود».

«والد زوجي كان يقول: «إن هتلر هذا بهلواني لا قيمة له» كان عليه أنْ يقرأ كفاحي بشكل أدق. لقد ارتكبت الخطأ مرة مع هتلر ولن أكرره. حين يقول السادات إن هتلر هو مثاله أصدقه. على الأقل الميثاق الفلسطيني واضح جداً. فمن تنازل لآخر، يريدون أنْ ينتهوا منّا. أنت هو الصوفي، أنا واقعية وعملية. لنعطي فرصة للعرب؟ شكراً لقد أعطيت فرصة لهتلر. إنني أُهين العرب إذا راهنت على حسن إرادتهم بدلاً من الثقة بهم وتصديق كل كلمة يقولونها حين يعدوننا بالموت. إنهم صادقون فلماذا نشكّ بأقوالهم؟ إن ابني وحفيدي يحملان البندقية؟ إنه أمر طبيعي جداً ضد أعدائنا».

«علاقاتنا هنا مع جيراننا العرب هي غالباً جيدة، ولكنني لا أثق بهم. لدي ألفا سنة خبرة. لا مجال للتعاون. علاقاتنا معهم مستحيلة وخطرة حتى. على أولادي أنْ لا يلعبوا مع الأولاد العرب أو أي غريب. سيؤدي ذلك إلى التقارب والانصهار. أنا أفكر

بمستقبل شعب إسرائيل».

«على اليهود أنْ يتعلّموا سماع كلمة الله وقراءة كتبه. لقد حفظ الله الطائرات الإسرائيلية وإلّا كيف تفسر أن الخياطين والحاخام والنعاج المثقفة قد أصبحوا من أمهر جنود العالم؟ إن الله هذا الذي أعاننا ولا نزال لا نسمع كلمته».

يبدو لي أنه من الصعب على أي يهودي شرقي وإنْ كان متعلّماً أنْ يتكلّم كما تتكلّم ميريام لوفينجر التي جاءت من أميركا لكي تعلم العرب بأي خطب.

٩

قطارا القدس

إنّ المرّة الأخيرة التي زرت فيها بير شيفا التي تعتبر باب الصحراء، كانت لا تزال دسكرة كبيرة رائدة تعمّ فيها الفوضى. تعدّ اليوم هذه المدينة أكثر من مئة ألف نسمة أكثرهم من الشرقيين. الشوارع الواسعة على جوانبها الأشجار والعمارات الجميلة التي شيّدت من الحجر الأشقر. الحي القديم الجميل الذي كنت أعرفه جيداً قد دمّر كلياً. فيما مضى كان الإسرائيليون يزينون بشكل مستعجل ويبنون بشكل بشع. لقد تعلموا التخطيط. فالبنوك والمخازن الكبرى والمطاعم والفنادق تنبت بكثافة. يبدو أن نهر الدولارات قد جعل الرمال صالحة للزراعة. وهنا وهناك نلاحظ بقايا إهمال شرقي كما في كريات شمونة: لكن بيرشيفا لم تعد مستوطنة. حتى سوق الجمال حيث كان يتجمع بدو النجف لم يعد موجوداً.

في الحقيقة إن بيرشيفا هي فخورة بهندسة حرمها الجامعي المستقبلي الرائع. إنها أكبر جامعات الجنوب.

«هنا يمكنك أنْ تتسجل من دون الحصول على البكالوريا؛ يمكنك أن تحصل على المعادلات وعلى جميع الشهادات. هذا ممكن فقط في بيرشيفا. الطلاب يأتون من ديمونا ونتيفوت وميتسب رامون وإيلات. يوجد الكثير من الطلاب العرب الذين يسكنون هنا. الجو ممتاز. أفضل من القدس أو حيفا».

داخل الحرم الجامعي حاولت أن أكلّم الطلاب من دون أي اختيار مسبق. سامي مغربي من عائلة فقيرة. عمره خمس وثلاثون سنة، ويحضّر جدارة في التاريخ. في السادسة عشرة وبعد عدة رحلات وجد نفسه وحيداً على شاطىء أرض الميعاد. كان أهله هنا ولكن لم يكن يعرف أين.

«كنّا نعيش بشكل معقول في المغرب. هناك كان صديقي الحميم عربي. كنت أفكّر فيه دائماً خلال حرب الغفران: كنت أحلم بأنني إذا وُجد أمامي سأرفع بندقيتي وهو كذلك سيفعل. حين نزلت في حيفا صرخت من الفرح والفخر. بعد فترة وجدت أهلي وأخواتي. أبي أصبح عجوزاً وكنت أنا البكر وعليّ تقع مسؤولية إعالة العائلة. اشتغلت

خلال ثلاث سنوات كعامل في البناء».

سمعت سامي طويلاً أمام ساحة مكتبة جامعة بن غوريون الرئيسية وكنت معجباً به. هذا واحد من الإسرائيليين «البيض» أو «السود» الذين يسعون إلى سلوك حياة حسنة وتفكير سليم. ليس هذا أمراً سهلاً... أحياناً حين تنتقل منذ عدة أسابيع من لقاء إلى آخر مثلما أفعل، تصل إلى حدود الغضب. كل هذه المواقف المتناقضة والعنيدة التي عليك أنْ تحادثها. فمن لقاء إلياهو يافين إلى مرون إلى أوريال سيمون إلى سامي وإلى أحد عمال المرافىء صاحب قبعة الصوف. لم أعد أحصيهم. يا لهذا الشعب.

تلقيت منذ لحظة مكالمة هاتفية من ألبير ميمي يعلمني أن زبدي كوهن الملازم الشاب التونسي الأصل الذي رافقني في السيارة على طول نهر الأردن وابن جنفياف كوهن الوحيد قد قُتِلَ في لبنان الأسبوع المنصرم.

«إن والدي، يضيف سامي، كان حاخاماً عندما كان في المغرب. إنه تقي جداً. كان يتمنى أن أصبح رجل دين مثله ومتقيد بجميع الأعراف الدينية؛ لكنني اكتفيت بأن أكون يهودياً. إنني أحب إسرائيل على طريقتي الخاصة».

عرّفني سامي على إحدى رفيقاته وتُدعى بولين ريغمن من أصل فرنسي تدرس الآداب. اجتمعنا جميعاً في مكتب صغير في قسم التاريخ؛ بولين والإيطالية أغار وسامي وسيدة مسؤولة عن المحاضرات عمرها حوالى سبعين سنة تُدعى السيدة بودورتز. بدأ الحديث وكل يغنّي على هواه.

«جميع الطلاب هنا هم تقريباً من أنصار بيغن قال سامي. اليسار بالنسبة إليهم هو كل ما لم يستطيعوا الحصول عليه وكذلك كل الوعود التي أطلقتها الوكالة اليهودية والتي لم تفِ بها.

- (أغار) ولكن ماذا فعل بيغن أكثر من ذلك؟ كل أموال الحكومة تُوظف في الضفة. سترون قريباً ماذا سيحلّ في إسرائيل. إن قول وزير المالية أريدور بأن إسرائيل هي «جزيرة لا وجود للبطالة فيها» هو قول كاذب. كل شيء سينهار...

- (سامي) معقول. ولكن هناك شرقيين داخل الحكومة وهذا مهم جداً حين تكون شرقياً. سابقاً كانت جميع الأبواب تفتح بمجرد واسطة من بيريز أو أي عضو في حزب العمل. أما اليوم فانظر إلى كل هؤلاء الشرقيين الذين يتعلّمون في الجامعة من دون أنْ يكون للسياسة أي دخل».

إن قصة الواسطة العماليّة أو النقابيّة تتردد باستمرار. لم أستطع جلاءها بوضوح.

ومن ثم أدّى بنا الحديث إلى موضوع الحرب.

«يجب الانقضاض عليهم والانتهاء منهم قالت بولين. قبل سنة كانوا سيهاجموننا مع السوريين. حين يطلقون النار علينا مرة واحدة، علينا أنْ نطلق النار عليهم مئة مرة.

- (أغار) تتكلمين عن الحرب الوقائية؟

- سمّها ما شئت..

- (مدام بودورتز) لقد خسر الفريقان أرواحاً كثيرة من دون أنْ نصل إلى نتيجة. كان علينا أنْ نتوقف على بعد ثلاثين كيلو متراً. أخاف من تجدد الإرهاب ومن العيش دائماً والحربة في يدك».

- (سامي) أنا خضّت حربين. هذا يكفي. كل أصدقائي يفكرون مثلي. لقد ترعرت مع العرب. إذا مدّوا لي يدهم سآخذها. يمكننا أنْ نتناقش ولكن شرط أنْ لا تمس القدس.

- (مدام بودورتز) القدس هي عاصمة إسرائيل وليست عاصمة دولة أخرى.

- (سامي) إن حقوق العرب في القدس هي محض دينية، وإلّا ما النفع من مجيئنا إلى هنا؟ في هذه الحال عاصمتي هي الرباط.

- (مدام بودورتز) يكفينا العرب الإسرائيليين.

اشتدّت حرارة النقاش. كل واحد يتهجم على الآخر بصراحة وبروح صادقة لا أثر فيها للحقد. كان الحديث يدور تارة بالعبرية أو الفرنسية وطوراً بالانكليزية والإيطالية. وغالباً ما كانوا ينسون وجودي بينهم وكنت أرفع يدي مطالباً بالعودة إلى لغة مفهومة من الجميع.

آغار الإيطالية انتصبت بكل قامتها.

«أنا ضد جميع الحروب محدودة كانت أم على بعد أربعين كيلومتراً. علينا أنْ نفهم الفلسطينيين، علينا أنْ نتحدث معهم. يحق لهؤلاء الناس العيش في مكان ما... لنعطيهم وطناً. السلام هو الحل الوحيد للانتهاء من الإرهاب.

- (بولين) لكن العرب يريدون موت إسرائيل...

- (مدام بودورتز) هل نسيتي أنهم قتلوا أولادنا في معالوت؟

- (آغار) علينا إذن أنْ نغير طريقنا كلياً.

- (مدام بودورتز) هذا جائز ولكن بانتظار ذلك علينا أنْ نأخذ احتياطاتنا العسكرية.

هل ترى كل شيء غامضاً؟ أنا أيضاً. ولكن، حاولت أنْ أبسّط قدر المستطاع. لا تعتقد أن في الجامعة أو في أي مكان آخر تثار هذه الأسئلة باستمرار. فالحياة اليومية لها حقوقها. لكن وجودي بحدّ ذاته يثير مثل هذه الأسئلة. يوقظ الشرخ الذي لا ينام إلّا بعين واحدة.

سنصل إلى موضوع «السود» و«البيض». سامي لا يخاف أنْ يكون حديثه متناقضاً بشكل رائع.

«ليس رؤساء الأحزاب والمحرضون السياسيون هم الذين سيردمون الهوة، بل نحن. كثيرون من أصحابي هم روس من اليهود الغربيين. نتأقلم. ليس هذا بالأمر الصعب. ولكن... ولكنني انتسبت إلى حزب تامي. إذا خرجت شخصيات سياسية قوية من بين صفوف حزبنا واستطاعت أنْ تفرض نفسها في الدولة أظن بأن هذا يساعد على تقليص عدم المساواة.

- (مدام بودورتز) عدم مساواة، عدم مساواة... إن صبركم ينفد بسرعة. حين وصلنا من ألمانيا عام ١٩٣٣، كان زوجي يعمل كعتّال في محطة القدس وكنت أنا أعمل في تدبير منزل عائلة يهودية شرقية ثريّة. كنّا في الصباح نقتسم بيضة واحدة، وكنا نسكن في ملجأ تعيس. كانت فترة حرب. زوجي أصبح فيما بعد مهندساً كيميائياً. من كان يفكر في الماضي بالمطالبة بأي شيء؟ نتظاهر؟ ضد من؟

- (بولين) صحيح. العقلية تغيرت. من أصل عشرة فرنسيين هاجروا معي ثمانية عادوا إلى فرنسا. لقد وجدوا الحياة صعبة في إسرائيل».

فكما كان يقول سامي، ليس وجود الطلاب العرب مستغرباً في جامعة بن غوريون. كنّا ندرس ونسكن معاً. ولكن غياب المشاكل هذا يثير مشاكل أخرى. أصدقائي الجدد لم يتكلّموا معي في هذا الموضوع. أعتقد بأنهم كانوا يجدون أنها مسألة بسيطة. روت لي اميرام: أحد أحفادها يدرس الرياضيات في بئر السبع، أحياناً كان يشمئز. الطلاب العرب يحصلون على منح كالطلاب الإسرائيليين. ولكنهم لا يمضون ثلاث سنوات في الخدمة العسكريّة ولا يُطلبون لحمل السلاح بنعم أو بلا. هذا الامتياز غالباً ما يسمح لهم أن يتفوقوا على زملائهم اليهود.

وبالرغم من كل المحاذير فالسياسة تفضح. عند حصول مشاكل في الضفة الغربية ووقوع حوادث صبرا وشاتيلا...

«كان عندي صديق عربي إسرائيلي من الحمائم، تروي بولين، كما كان يبدو. أستاذ ذكي جداً. كان معتدلاً سياسياً، لا يقول شيئاً. حين وقعت الحرب لم يعد باستطاعته أنْ

يظلّ صامتاً. فتكلم. اشترك في مظاهرة سلميّة. فطردته وزارة الثقافة من منصبه، فأصبح منذ ذلك الحين متطرفاً. إنها غباوة.

- (سامي) أفكّر جدّياً بتنظيم لجنة صداقة للطلاب اليهود والعرب. ولكن مبادرة من هذا النوع تجعل منك خائناً بالنسبة لبعض البُلهاء. ففي هذا البلد الذي يفقد المعنى الأخلاقي، بيغن هو آخر المثاليين اليهود الكبار».

ردّة فعل شرقية: أمام مطعم صغير تفوح منه رائحة المرغيز (merguez) والباذنجان المحشي، سألت أين هو أولبان بئر السبع. شابان أسمران يصعدان في السيارة ويدلاني على المكان بعد أن قطعنا المدينة ثلاث مرات.

الأولبان مكان معروف جداً. جميع الوافدين الجدد يمضون فترة في الأولبان من أي مكان أتوا: هناك تتعلم بسرعة لا مثيل لها القراءة والكتابة والتحدث بالعبريّة. خظنا سيىء. جميع الأولبانات مغلقة اليوم بسبب إضراب يتعلّق بالأجور. لم يعد هناك من شيء مقدّس حتى «العالية». كم يستمر إضراب الحاخامات؟ إرجع غداً. رجعت في اليوم التالي.

المرأة التي تُدير أولبان بئر السبع لطيفة ومثقفة جداً. تتكلم عدة لغات.

«لدينا الآن حوالى مئة طالب. بعضهم جاء من إسرائيل لدوافع مثالية والبعض الآخر لا. منذ فترة طويلة تخلّيت عن سؤال الذين يأتون عن سبب مجيئهم. يمكنك أن تتكلم مع الطلاب».

المهاجرون الجدد العشرون يجلسون في الغرفة بشكل دائري. نظرت إليهم. كنّا ننظر إلى بعضنا بعضاً بحشريّة.

«لقد رأيت أخيراً أن إسرائيل موجودة، قال أرجنتيني ذو لحية. ولكن هناك فكرة تشغل بالي: هل يمكن أنْ يكون لي رأي خاص بعد فترة من الزمن؟ ليس في مجال التقرير ولكن في مجال الحكم على الأشياء. لم نعد في الدياسبورا ولكننا لسنا إسرائيليين بكل معنى الكلمة...».

حاولت أنْ أشرح أن وجودي هنا هو فقط لمعرفة وضع الذين يتعلّمون كيف سيصبحون إسرائيليين. ما هي الآراء التي سيحملونها بعد تخرّجهم.

نبدأ بالتعداد. اثنان من بلجيكا، كنديةٍ واحدة، أميركي، ثلاثة من رومانيا، روسي وفرنسي وأخيراً رجل وزوجته من الأرجنتين ونيوزلندي. وصلوا إلى هنا منذ شهر تقريباً. يبدو أنهم جميعاً من أصول برجوازيّة. لا يوجد بينهم أي شرقي. فكأن الأولبان يسعى

لأن تكون صفوفه متجانسة من الناحية الاجتماعية بالرغم من اختلاف الأصول. فجأة تظهر علائم الشرخ. الارجنتيني على حق بكل تأكيد.

«عندي أخ في إسرائيل قال أحد الرومانيين. عندما وصل عام ١٩٦٥ كانت اعمار أولاده تتراوح بين ست وسبع سنوات. كلهم عادوا إلى رومانيا. لا أفهم هذه القصص التي تجري مع ما يسمى بالفلسطينيين. أكثرهم ولد هنا وهناك. عليهم أنْ يتأقلموا عند العرب».

«كل ثقافتهم تدفعهم للقتال ضد إسرائيل يضيف الفرنسي. إذن لا مكان لهم هنا.

ـ (الأرجنتيني) من بعيد تكون الرؤية سيئة. تبدو إسرائيل وكأنها تعتدي على العرب بينما العكس هو الصحيح. لقد اكتشفت منذ وصولي الديمقراطية.

ـ (الأميركي) مبدئياً كنت ضد الهجوم على بيروت ولكن علينا أنْ نعترف بالوقائع: بعد بيروت غيّر الفلسطينيون مواقفهم. لم يفاوض السادات إلّا بعد أنْ خسر.

ـ (أنا) هل تقصد أن العرب كالبغتيك؟ يجب ضربهم لكي يلينوا؟

ـ لا، لا أحب الحرب. ولكن لا يمكن الوثوق بالعرب، من هنا علينا أن نظل أقوياء. لم أكن لأفهم كل هذه الأشياء عن بعد. . .

ـ (شاب روماني) لم أقم بخدمتي العسكرية بعد. أشعر أنني معني بما يجري. إذا تنازلنا للعرب سيطلبون أكثر مما سيؤدي إلى حرب جديدة. من الأفضل إذن أن يكون بيغن متشدداً. فلسطين هي مجرد اختراع عربي.

ـ (الروسي) «من ناحيتي أريد أنْ أعيش في إسرائيل غربيّة لا عربيّة. الاتحاد السوفياتي يدعم فلسطين؟ إذن لا دولة فلسطينية».

«لقد وصلنا إلى القمر، قال الأميركي. علينا أنْ نحاول التحدث مع العرب».

كنت أكثر حشريّة من مديرة الأولبان. لقد حاولت أنْ أعرف لماذا أتى كل هؤلاء الناس إلى هنا ليجلسوا بشكل دائري في بئر السبع. لقد أتوا ربّما لأسباب أخلاقية وسياسية ودينية أو فرديّة أو عائليّة أو اقتصادية وجودية طوباوية. . .

هناك أسباب أخرى لم أذكرها.

قمت بزيارة أولبان آخر في وسط بئر السبع في بناء جديد. الطلاب هنا مرّ على وجودهم فترة أطول وأصبحوا يمتلكون اللغة العبريّة بشكل جيد. يوجد بينهم بعض الشرقيين.

بعد انتهاء الدروس أخذت طالبين على حدة: أرجنتينية عمرها حوالى الخمسين

سنة وشاب مغربي. لا أدّعي أنهما يمثلان عيّنة نموذجيّة.

«لا أهتم بالسياسة قالت الأرجنتينية. لم يمضِ على وجودي هنا سوى فترة قصيرة.

ـ ولكنك معنيّة بما يجري. إنه مستقبلك.

ـ أعيش في الأولبان لا أخرج إلّا إلى السوق. لا أعرف شيئاً. يوجد مشاكل في العالم بأسره. لماذا تريد أنْ تكون إسرائيل فريدة على هذا الصعيد.

ـ ما الذي دفعك على ترك الأرجنتين؟ العداء للسامية؟ الديكتاتوريّة؟ الرغبة في أنْ تكوني يهودية بكل معنى الكلمة؟

ـ العداء للسامية ليس قوياً لهذه الدرجة هناك، اللهم إذا كنت عاقلاً. أما في ما يتعلق بالأسباب الأخرى، فأقول بأن هناك ١٪ من اليهود الذين يأتون بدافع مثالي. السبب الحقيقي هو أنه لم يعد بالإمكان العيش بشكل لائق اقتصادياً. في إسرائيل من الممكن أنْ يعيش الفرد. أنا أعمل كمحاسبة، سأحصل على راتب معقول.

ـ هل تعترضك مشاكل في العيش في يهودا والسامرة؟

ـ ولا أية مشكلة. لماذا؟ زوجي ميكانيكي مُتخصص ويعمل في بئر السبع. ولا طائل من الذهاب إلى مكان آخر.

ولكنك تتمنين أنْ يكون عندك منزل في الأراضي؟

ـ طبعاً. إنه أرخص من الأماكن الأخرى. ومن ثم في حال وقوع حادث يُعوّض على المالكين».

لا وجود للشرخ الداخلي عند هذه السيدة الأرجنتينية البراغماتيّة. الشاب المغربي ضبابي أكثر. بالنسبة إليه المستقبل واضح ولكنه مُضطرب.

«عدد المغاربة قليل جداً في الأولبان. لا وجود إلّا للأرجنتينيين والرومانيين وبعض الروس. قليلاً ما نتحدث.

ـ ألا تُحبّهم؟

ـ ليست هذه هي المشكلة. جميع اليهود الغربيين يُعاملوننا وكأننا براز. بنظرهم نحن أقل من العرب. هذا الوضع لن يستمر. قريباً ستقع الحرب بين الأخوة اليهود وبعد ذلك ستشكل حكومة قوية وحقيقية بقيادة الشرقيين. على الذين يجادلون أن يسدّوا أفواههم.

ـ إنهم يهود غربيون هؤلاء الذين يُجادلون؟

ـ نعم. ولكن يوجد غيرهم جميع «البيض» أكانوا من العمال أو الليكود هم بحاجة إلى لجم. الأسبوع الماضي بعض أصدقائي من المغاربة كانوا يعودون إلى منازلهم

نهار السبت. ثمة شيء لم يرق للروس. أظن المأكولات الشرقية. فشتموا أصدقائي سمعت الضوضاء فهرولت إلى المكان مع بعض المغاربة وضربنا الروس. تدخلت الشرطة. لو لم يكن عندنا حكومة صارمة تعرف ما تريد لدمّرنا العرب».

يبدو أن عقلية المهاجرين الجدد لن تساهم كثيراً في دمل الشرخ.

بعد بيرشيفا قمت بتجربة جامعية أخرى لم أسع وراءها مطلقاً.

أستاذ الأدب الفرنسي في رامات أبيب الحرم الجامعي الكبير في تل أبيب حيث كنت التقيت شاوول فريدلندر وشلوموبن آمي. سمع عن التحقيق الذي أجزيه. عرضوا عليّ أن أقضي السهرة في الجامعة للتحدث إلى بعض الأساتذة والطلاب. فهمت فوراً أن المبيالة ليست فقط بطرح الأسئلة من جانبي والإجابة عليها من جانبهم، بل يريدون أنْ يعرفوا عن ماذا أفتش وماذا وجدت. باختصار يريدون أن يعرفوا كيف تكون ردّة فعل الفرنسي أمام الأزمة التي تعصف بإسرائيل. ولقطع الطريق من قبلهم على هواجسهم، فهم يريدون أنْ يروا أنفسهم من خلال مرآة أجنبية ومن ثم شتم هذه المرآة لأنها المنطلق لتشويه الواقع.

من نافل القول اعتبار الإسرائيليين أنهم منفتحون على حشريّة الآخرين وخاصة حين تكون هذه الحشريّة طبيعيّة؛ إنهم مستعدون لخوض التجربة للنهاية. ولكن تمثيلية هذه الليلة وفّرت لي بعض المفاجآت. وجدت نفسي في قفص الاتهام أمام هؤلاء الرجال والنساء الذين لا يمكن اعتبارهم من الصقور.

لم يكن عددنا كبيراً. حوالى العشرين. بعض الطلاب الذين كانوا موجودين ولم يلفظوا بينت شفة. عرفت السبب فيما بعد. الأساتذة هم الذين فتحوا النار وصوّبوا.

«تعبنا من الاتهام...

ـ إن موقف حكومتكم الاشتراكية هو مخزٍ. يتكلم شيسون، والمساعدات الثقافية التي قلّت قيمتها... إذا كانت فرنسا تظنّ أن هذا العمل يزعج بيغن...

ـ ليس هذا هو الهدف الذي نسعى إليه. ميتران لا تهمّه إسرائيل. يريد أن يعطي ضمانات للعرب بسبب البترول ولأسباب جيو ـ سياسية صغيرة.

ـ هذا العداء المُستحكم مضر جداً لمساعي السلام التي نبذلها. إنه يخيّب ولا شك آمال الفئات الليبرالية ويدفع باتجاه المراهنة على القوة. لسنا ضد النقد. إننا ننتقد أنفسنا. ولكن حين تكون الانتقادات ضد إسرائيل غبية وسريعة ومُدعيّة فهذا يصدمنا.

ـ إن انتقادات من هذا النوع تساعد الديماغوجية البيغينية...

ـ إنّ اليسار عندكم يسعى لخلق نوع من الهستيريا اللاسامية.

لم ينسَ الحضور أنهم جامعيّون. وبدأ النقاش حول موضوع معروف: الأخلاق والسياسة.

«وفي كورسيكا؟ ألا تقمعون الوطنيين؟ وسياستكم الأفريقية؟ وبيعكم للسلاح لأي كان؟ ودعمكم الذرّي للعراق؟ تسمون هذا واقعية. فقط مع إسرائيل ترفضون هذه الواقعية.

ـ لماذا تتهمون إسرائيل دائماً بأنها مخطئة؟ فقط إسرائيل، فكأننا الدولة الوحيدة في العالم التي تخضع سياستها لمعايير أخلاقية، محض أخلاقية؟

ـ من الجنون والخطأ دمج الأخلاق والسياسة».

إن أصدقائي في رامات أبيب غالباً ما يكونون على صواب. أمامهم كنت أعترف بكل ما يقولون ولكن على مضض.

بالنسبة لمثقفين مثلهم من السذاجة فصل السياسة عن الأخلاق. فالأخلاق هي كل ما هو عاطفي وأسطوري. فالديمقراطيات هي تحديداً حساسة من هذه الناحية أكثر من الأنظمة التوتاليتارية أو البدائيّة. لو كانت الأمور غير ذلك، لما كانت السياسة هي هذه الخبريّة التي يرافقها الضجيج والغضب اللذان نعهدهما فيها...

إذا كنت أنعمت عليكم بهذه الأفكار العامة اللاذعة، فليس من تلقاء نفسي. فالأساتذة هم الذين خاطروا في الكلام عن هذه المواضيع التي إذا ما شوهدت من إسرائيل لا تبدو أبداً فولكلوريّة. إنها الخبز اليومي للشرخ.

تحدثنا أيضاً عن الصحافة التي هي كبش المحرقة.

كان يوجد بين الحضور أستاذ أدب متخصص ببول فاليري(*) يدعى سيلفيو يوشوا. التقيت فيما بعد عدة مرات بسيلفيو ويبدو أننا تعاطفنا مع بعضنا. فهو الذي أخذني إلى عند الأستاذ شياهو ليبوفيتز. أعتبر اللقاء مع ليبوفيتز لحظة مهمة في رحلتي.

أثناء الهجوم على لبنان كان سيلفيو مراسلاً صُحفيّا برتبة ضابط. وبهذه الصفة رافق مراسل التليفزيون الفرنسي الخاص حتى بيروت.

«كان يشكو من المراقبة العسكريّة، يقول سيلفيو بحسرة أكثر منها فظاظة. كان يعتبر أن كل تقييد لحرية تحركاته هو إهانة لشخصه ويطالب بإلحاح بمعاملة خاصة. في أحد الأيام وصلنا أمام حاجز طيّار والذي يُعتبر شيئا مألوفا في منطقة العمليات. ب...

(*) شاعر فرنسي مشهور

خفف سرعته ومن ثم اجتاز الحاجز بسرعة هائلة. إنها أعجوبة لكون الجنود لم يطلقوا النار» . .

بالنسبة للقارىء الغير معتاد على مهنة المراسل الحربي، أسمح لنفسي بالإشارة إلى أنه من الغباوة بمكان قطع نقاط المراقبة أو الحواجز بهذا الشكل حين «تُغطّي» أي نزاع. هناك ألف وسيلة أخرى أقل خطورة وأكثر فعاليّة لخداع ضباط الصحافة.

«تعرّفوا بسرعة على سيارتنا وأوقفونا. رفع ب. . . بطاقته الصحافيّة الفرنسيّة. الملازم المسؤول كان في حالة من الهيجان لا تُوصف. كان يريد إرجاعنا بسرعة إلى تل أبيب. أخذته على حِدة وشرحتُ له أن ذلك سيؤدي إلى مشكلة. أخيراً اقتنع وسمح لنا بالمرور. حين انطلقنا من جديد قال ب. . . كلمة أعتقد على سذاجتي أنها مخيفة: «سوف يرون! يرون ماذا؟ سأستعمل السلاح الذي بحوزتي». سلاحه كان التليفزيون. كان يقصد بكلامه أنه سينتقم بعرضه على طريقته أمام الرأي العام الفرنسي أهداف وسلوك الجيش الإسرائيلي. أعرف أنه وفى بوعده. إن التليفزيون الفرنسي تكلّم مثلاً عن الإبادة. حتى على المستوى اللغوي هذا لا يجوز. لستم الوحيدين الذين شوّهوا الواقع».

«كان على ب. . . أنْ يفهم أنني لا أتحمل هذه الحرب، وبأنني كنت متألماً جداً ولم يكن باستطاعتي مشاركته رأيه أمام الكاميرا».

بعد هذه المغامرة وليس بسببها فقط، طلب سيلفيو إعفاءه من مهمته. وبعد فترة لبّوا طلبه.

«لم يعد بمقدوري «بيع» وشرح الحرب للصحافيين، هذه الحرب التي لا أؤمن بها».

كل هؤلاء الناس الموجودين هنا هم من أنصار التفاوض مع منظّمة التحرير الفلسطينية. ولعلني أمثّل الصحافة الأجنبيّة بالرغم مني أمامهم - وليس فقط الفرنسيّة - التي لم تتكرّم بالغوص حتى أعماق الشرخ، كان يدفعهم شيء من الحياء للتصدي لي وحتى الارتياب مني.

رسمت خطة لهجوم معاكس.

«صحيح أن التليفزيون والصحافة كانا في كثير من الأحيان منحازين. فتحت تأثير الأحداث نسينا أنْ نردد أن الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين ليسوا قديسين هم أيضاً، وأن رياء منظمة التحرير الفلسطينية هو انتحاري ومجرم. ولكن ما العمل؟ فخلال هذه الأسابيع الرهيبة كانت إسرائيل نجم الأحداث، ووسائل الإعلام لا تغطي إلاّ أخبار النجوم. لقد حصدتم ما زرعتم. فلا تحاولوا أنْ تتهموا الصحافة بالدناءات التي تنشرها. فالصحافيون هم في النهاية أشخاص من لحم ودم. لقد رَأَوْا صبرا وشاتيلا وسقطت

القذائف على رؤوسهم مثل المدنيين في بيروت. . . لقد كان بلدكم ينهج سياسة مختلفة، فخفّة وحتى عدم استقامة بعض المراقبين المتهوّرين لا بد أن تفشل».

هزّ الأساتذة رؤوسهم. إنهم يملكون الحد الأدنى من الاستقامة بحيث لا يمكنهم رفض الحجج التي كنت أقدّمها. ديبورا امرأة قصيرة من أصل مصري ترجمت إلى الفرنسية أفضل الروايات الإسرائيلية، عبّرت بشكل عنيف عن قلقها.

«لا يمكنني أنْ أبوحَ إليك بكل ما يجول في رأسي، حتى وإنْ كنت أكثر راديكالية منك».

وكالعادة بعد هذا النوع من اللقاءات، فإننا نظلّ لفترة طويلة بلا حراك. ويوجد دائماً أحد يريد أنْ يكلّمك بعد انفضاض اللقاء لكي يضع في يدك رقم هاتفه. في الممر المعتم قطعت طريقي فتاتان سمراوان. الأولى هاجمتني، والثانية ظلّت في الخلف كقوة مساندة. استمرّ هذا الوضع طوال حوارنا.

«أريد أنْ أقول لكم لماذا لم نرَ ضرورياً أنْ نتدخل في المعركة. هؤلاء الأساتذة غاية في اللطف، ولكنهم لا يفهمون في السياسة. فهم برجوازيون صغار وكلامهم ليس له أي معنى. ومثل حركة «السلام الآن»، فإن عدد أعضائنا الذين يفكرون أبعد من ذلك كبير. وأعتقد أن علينا التباحث بشكل أكثر جدّية.

بكل سرور.

أخذت موعداً لليوم التالي.

ريتا صباح عمرها خمسة وعشرون عاماً من مواليد مراكش. نالت البكالوريا في باريس قبل أن تستقرّ في إسرائيل في عام ١٩٧٧ لتحضّر شهادة الجدارة في الأدب الفرنسي. والدها صاحب دكان في أيفري. لم تقم بعد بالخدمة العسكرية. هذه التفاصيل ذات أهمّية لفهم حديث ريتا. ليليا بدت لي كما سانشو لدون كيشوت(*). ولدت ليليا في زائير. أمضت عشرين عاماً أي عمرها كلّه في مصر. ريتا وليليا هما مناضلتان صلبتان وكانتاعضوتين في لجنة الدعم في الجامعة الفلسطينية في بير زيت في السامرة التي أغلقتها السلطات العسكرية عدّة مرات بحجة الشغب القومي.

«نظّمنا مظاهرة في الجامعة. فرّقها الجيش بواسطة القنابل المُسيّلة للدموع. مظاهرة يهودية إنها مؤشر. جرت عدّة مظاهرات. احتفلنا بذكرى احتلال الضفة الغربيّة والحرب

(*) شخصيتان روائيتان من كتاب الاديب الاسباني سرفانتس - دي ميكايل (١٥٤٧ - ١٦١٦)

على أشدّها في لبنان. وهذا أيضاً مؤشر آخر: عادة حين يخوض الجيش الإسرائيلي حملة، يصمت الجميع. إنها وحدة مقدّسة. نحن لا نصمت. فهذه الحرب كانت تبدو غير مقبولة بالنسبة لنا. أربعون كيلو متراً أو لا.. إنها مسألة مبدأ».

«نظّمنا مظاهرة صغيرة أمام بيت سوكولوف أي بيت الصحافيين. بعض المارّة شتمنا، ومزّق اليافطات. ولكن هذا لم يمنع نزول عشرة آلاف شخص إلى الشارع بعد عدة أيام».

«وهكذا وبشكل عفوي تشكّلت في الجامعة اللجنة المناهضة للحرب في لبنان. انضمّ إلينا بعض الأشخاص الذين شعروا بأنهم معنيون، امرأة لم تتدخل في حياتها في الشؤون السياسية. كانت واحدة من أنشط المحرّكين داخل اللجنة. أخذنا مبادرات كثيرة بالرغم من صعوبتها وبالرغم من عدم استيعاب الجماهير بسرعة، لأننا نعرف ماذا نريد في حركة «السلام الآن» كما تعلم، أفكارهم ليست دائماً واضحة. غموض سياسي. فهم ليسوا متفقين حول مبدأ الدولة الفلسطينية المستقلة!».

«في خضمّ الحرب اللبنانية، قدّمت اللجنة عريضة تُطالب بالانسحاب الفوري للقوات الإسرائيلية. وقع هذه العريضة أربعة آلاف شخص. ضابط يسكن بالقرب منا قال: «لا أريد أنْ أموت من أجل شارون ولا من أجل الاختبارات العسكريّة الأميركيّة...» وهو أيضاً وقّع العريضة. هذا بالرغم من كونه أحد أنصار الليكود القدامى، واشترك في حربين. أمضى سنة كاملة في الجبس بعد إصابته بجروح بليغة».

«وداخل عدّة مجموعات قريبة من لجنتنا يوجد عرب ويهود. أعتقد أننا لعبنا دوراً سياسياً في التشكيك بأسطورة الجيش المقدّسة. في إسرائيل تفتخر المرأة حين يكون ابنها مظلياً أو في فرقة الكومندوس. إذا عبس شاب بسبب الرحيل أو إذا قال إن هذه الحرب لا تعنيني يشعر أهله بالإهانة. لي صديق ينتمي إلى مجموعة تشكل نخبة، ذهب إلى 'عينتيبي بكل حماس للإفراج عن الرهائن الموجودين عند أمين دادا. صديقي هذا رفض أنْ يخدم في لبنان واستقال من فرقته».

«بعد صبرا وشاتيلا نحن أول من نظّم مظاهرة في قلب جادة ديزانغوف. كنّا على ما أعتقد حوالى خمسمائة شخص. هاجمتنا الشرطة وكان الناس يصفّقون لنا. هذا مع العلم ان مظاهرتنا كانت صامتة، كنّا فقط نحمل يافطات».

«اليوم لم يعد أحد يُهاجمنا في الشارع. لكننا لن نظل أقلّية تُطالب برحيل وحداتنا العسكرية من لبنان. حتى الطلاب يخافون. تم القبض على عشرين شخصاً هربوا من الجنديّة. لا أدري إذا كنت مطلعاً على الوضع: الطلاب ليسوا واعين سياسياً. النشاط

السياسي محظور داخل الجامعة. بعد خدمتهم العسكريّة هَمّ الطلاب الوحيد هو النجاح في الامتحانات وغالباً هم متزوجون وعندهم أولاد. من الصعب تعبئتهم. لسنا في جامعة نانتير عام ١٩٦٨».

في نانتير قلّ ما نرى طلاباً كانوا مقاتلين قدامى يمشون برجل ميكانيكية أو وجه مكسور.

لا أريد أنْ أكون غير عادل تجاه ريتا. من الجائز جداً أنْ أكون قد بسطت كلامها لكي أنقل إليكم شعوري المباشر حين كنت أسمعها. وهذا الشعور لا أتنكّر له أبداً.

جميل أنْ تُناضل بإيمان وأن تُخاطر وأن تقف ضد الأكثرية بشجاعة. ولكني أشعر بأن هنالك شيئاً مختلاً هذا الشيء يطال الشكل أكثر مما يطال المضمون.

ميرون بنفنيستي أو جورام تال، لكي لا نذكر سواهما، لم يتورّعا عن الإعلان بحزم وغضب أن «السلام الآن» بالرغم من موت أميل غرونزويغ هي مفرقعة صغيرة لزعزعة صرح الديماغوجية القوميّة. لكن بنفنيستي وتال يطرحان على نفسيهما أسئلة جوهرية ويتألمان أكثر من غيرهما من غموض الوضع. لقد كانا جزءاً من الأعراض التي تشكو منها إسرائيل. حتى الصقور والغوش إيمونيم والعقول المتحجّرة في حزب تحيا تشعر بعدم الارتياح. يبدو لي أن ريتا الغريبة عن عالم زملائها في رامات أبيب تناضل على «الطريقة الفرنسية». يكفي أنْ نذكر هذه العبارات: مبادىء، وعي سياسي، جماهير، أسطورة الجيش...

تضيف ريتا وتذهب في كلامها بعيداً.

«القمع يشتدّ يوماً بعد يوم.. يمنعوننا من توزيع البيانات ويدقّقون في الهويات. يهاجموننا إذا علّقنا ملصقات. ولأنني تظاهرت بعد صبرا وشاتيلا اتهموني بأنني أعاشر الشباب العرب. لقد أصبح الحوار مستحيلاً. إننا حيال عملية ما يُدعى سحر السلطة.

ـ لا تضخمي الأمور يا ريتا. سحراً. يجب أنْ نغيّر معاني الكلمات، فهذه مسألة خطرة. إنّ شدّة إخفائنا للواقع تمنعنا من تعديل اتجاهه. تُذكّرينني بالصحافيين الفرنسيين الذين تكلّموا عن إبادة في ما يتعلق بحرب لبنان. لماذا لا تستعمل كلمة تشدد أو هذيان قومي بدلاً من كلمة سحر؟ هكذا تتفاهمون بشكل أفضل. في كفار شالم قارن بعض اليمنيين سلطة اليهود الغربيين في إسرائيل بالنازية. لم يعد أحد يصدّقهم».

«نتكلم عن الفاشية لوصف ضياع الجماهير تحت تأثير ديماغوجية منظّمة. القومية العمياء والقمعية أليست فاشية؟ والجيش الإسرائيلي الذي تحوّل إلى شرطي في الشرق الأوسط ما هو إذن؟ إن التسامح الديمقراطي الذي يكلّموننا عنه ليلاً نهاراً، أصبح من

الماضي. منذ عدة أيام حاولت أنّ أتكلّم مع امرأة عاديّة عن الوسائل التي يستخدمها بيغن: «أنا عرفت النازية؟ الأفضل أنْ تعودي إلى فرنسا إذا كانت إسرائيل لا تروق لكِ» كان هذا جوابها فقط. حين تنغلق الناس ضمن معتقداتها لدرجة الغباء وحين لايعود بمقدورهم التشكيك بسياسة مجرمة ستلحق بهم الضرر عاجلاً أم آجلاً، فهذا يُعتبر فاشية بالنسبة لي».

«نعم ولدتُ في المغرب. النزاع بين «السود» و«البيض» لا يعنيني. يحاول البعض حالياً توضيح أن التأثير الصهيوني الشرقي هو المحدد منذ مئة وخمسين سنة. ولكن الذين يُهاجموننا في الشوارع ويحلمون بإبادة العرب هم تحديداً الشرقيون في الأحياء الشعبيّة... حين يدعم الفقراء والمحرومون سلطة قويّة تجرّهم إلى الهلاك، فهذا أيضاً برأيي من معالم الفاشية».

• توفقت ليبا أخيراً في وضع اعتراض.

«لا أتحمّل أن يُوضع وجود إسرائيل موضع الشك لأن السياسة التي تنتهجها الحكومة هي سياسة خاطئة...».

ولكن في رأس ريتا تجول فكرة أخرى. كانت تفكر بحريق الرايشتاغ.

«إن محاولات الاغتيال التي وقعت في أوروبا... خاصة محاولة الاغتيال التي وقعت عند غولدنبرغ... مقلقة. لا أدّعي أنها من صنع الاستخبارات الإسرائيلية. ولكن هناك توافقا ما. فبيغن يصرخ أن على يهود الدياسبورا العودة إلى إسرائيل وإلاّ سيقتلهم الغرباء... كان من الطبيعي أنْ تُؤدي الأمور إلى ما أدت إليه».

على العشاء، عند إيلانا، اقتربنا من الشرخ فجأة كما تقترب بزوم الكاميرا من الأشياء.. دخلنا إلى أحشاء الشرخ وثناياه. لم تعد المسألة سياسية بل تحوّلت إلى نوع من الجراحة.

تكلّمت سابقاً عن إيلانا التي ليست زوجة يوشي الذي ينتمي إلى جماعة غوش إيمونيم. كنّا هذا المساء في القدس عند ابنة السيدة الألمانية الأصل التي تحب الحفلات الموسيقية والمحاضرات. إيلانا هذه تُرسل أولادها إلى المدرسة «المختلطة» في حي كتامون مع الأطفال الشرقيين. كالعادة وجودي المتطفل واللجوج حرّض ممثلي المأساة، الذين يلعبون أمامي المسرحية من جديد. من جهتي لا أنبس ببنت شفة.

«هذه الحرب كانت أهم بكثير من حرب الغفران. كان علينا أن نفرق العدو وندمّره.

ـ الجميع كانوا مقتنعين بالاشتراك بهذه الحرب. لكن فيما بعد ثبطوا همتنا من كثرة الأكاذيب. لماذا الادعاء أنه لا يوجد ضحايا؟ حصلت أعمال بشعة رأيتها بأم عيني. لقد تأثرت معنويات الجيش.

ـ كيف تقول بأن هذه الحرب هي حيويّة لنا أكثر من حرب الغفران؟

ـ كان علينا أنْ نعود بسرعة.

ـ لا. كان يجب أنْ نذهب حتى النهاية. لم يرجع الإرهابيون إلى الأردن إلاّ بعد أنْ هُزموا هزيمة كاملة.

ـ لا فرق بين الليكود وحزب العمل.

ـ لا وجود لحكومة قوية في لبنان. علينا أن نقوم مقام الشرطة لتثبيت الأمن.

ـ أكرر. كان علينا أنْ ندمّر العدو والعودة بسرعة...

ـ ولكنهم كانوا ينبتون من جديد كالحيّات».

علينا أنْ لا نخلط الأمور. حتى وإن كان الجو حامياً، فهو لا يخرج عن نطاق المزاح.

إيلانا وأصحابها هم إسرائيليون ١٠٠٪ إذا جاز التعبير. إنهم أولاد صهاينة من الرعيل الأول وينتمون إلى هذا الوسط اليهودي الغربي المتطور الذي لا يزال يُشكل دولة ضمن الدولة حيث تتعرف الناس على بعضها بسهولة. أمضوا فترة في الكيبوتز. ويحبون الصحراء. يعيشون حياة متقشفة، ويغنون معاً أغاني الروّاد القديمة. أصدقاؤهم من الجنرالات والوزراء أو من المثقفين الذين يعلّمون البدو في النجف القراءة. هؤلاء الناس قلّما يهتمون بالوعي السياسي أو المستوى الإيديولوجي عند الفئات الكادحة. وهم يعايشون وطنهم بكل جوارحهم. يحاولون أنْ يفكروا كأفراد وكمواطنين أحرار. هذا يناضل من أجل السلام وذاك يفضل استعمال العنف والثالث يقضم أظافره. أحياناً يتوقفون عن الهزء ليصبحوا عقلاء إلى حد لا يُطاق.

«ما هو سياسي بالنسبة للسياسيين هو واقع بالنسبة لنا...»

ترفع إيلانا عينيها نحو السماء وتُقلّد لهجة اليدية النائحة التي لا تتكلّمها.

«أوي فوفوي! نعرف أننا شعب الله المختار. رجاءً اخترْ يا رب شعباً آخر مكاننا لكي نتنفس بضع سنوات».

للأسف بيبي ليس هنا. إنه في نزهة في مكان ما في سيناء برفقة مجموعة من الشبان الإسرائيليين. بيبي زوج إيلانا هو من أصل عراقي وضيع جداً. لا يزال شرقياً في جوانب عديدة من شخصيته. أما في الجوانب الأخرى، فقد انخرط كلياً داخل النخبة الغربية.

من الخطأ الاعتقاد أن الحدود بين الأفراد والآتنيات لا يمكن خرقها. فوالدة بيبي البالغة من العمر سبعين سنة، تعلّمت القراءة منذ فترة وجيزة.

«كانت خطيبتي شرقية، قال شاب فظنّت والدتي أنني أصبحت مجنوناً.

ـ الحياة ليست سهلة مع الرجال الشرقيين، فهم لا يتحملون النساء المتحررات. أليس صحيحاً يا إيلانا؟

ـ التكيّف أمر صعب. في الجيش ندافع عن بعضنا بعضاً حتى الموت ولكننا لا نصبح بالضرورة أصدقاء فيما بعد».

تأخر الوقت. وصل أصدقاء آخرون: عالم أثري ذو لحية يُدعى داني باحات وزوجته آنات.

«في المدارس العربية يقرأون قصائد تتكلم عن إبادتنا. هذا لا يجوز. لا أشعر بأية حاجة لاعتراف عرفات بنا. نحن دولة موجودة نعم أم لا؟ وبالرغم من ذلك لا أزال مع الرأي الذي يريد أنْ نتكلم مع الفلسطينيين لإيجاد مخرج. موقفي هذا ليس نتيجة حبٍّ لهؤلاء لست ملاكاً. ولكن هذه القضية أفسدت حياتنا. لا مانع من السكن في الضفة الغربية ولكن يجب أنْ لا نتحول إلى شرطة هناك».

«القوة؟ لها مخاطرها. التفاوض؟ لا ندري.

ـ لم أعد أحتمل هذه المُماحكات، قال داني باحات. هناك ضرورة واحدة لا غير يمكنها أنْ تجمعنا: نريد أنْ نعيش. نريد أنْ نعيش اليوم وغداً، أما الباقي...».

يتكلم عالم الآثار بعد ذلك عن مثل يختصر بشكل جيد الشرخ.

«أنا في محطة القطارات في القدس برفقة زوجتي وأولادي. كل مستقبلي يوجد في الحقيبة. هناك قطاران، واحد قوي والآخر ضعيف. أحد القطارين يذهب إلى الجحيم والآخر نحو الخطر. أي القطارين عليّ أنْ أستقل؟ الذي يقف على اليسار؟ أم الذي على اليمين؟ لا أعرف. إذا أرشدتني إلى القطار الجيّد أقبلك وأعتبرك مخلّصي».

«ينادونني من الجهتين: «تعال معنا، فهذا هو القطار الأفضل. لكنني لست متأكداً وكذلك أنت. إن الذين يعتقدون أنهم يقررون بملء وعيهم هم سذّج ومجانين. أنا أشبه السجين الذي يريد أنْ يهرب. لكنني لا أتحرك، أظل بالقرب من عائلتي وحقيبتي مع أن صبري نفد. الرصيف بدأ ينهار تحت أقدامي. التاريخ لا يتوقف».

قهقه داني ولم يشاركه أحد في ضحكته.

«لنحاول التفكير. القطار الضعيف مغرٍ للغاية؛ إنه قطار حركة «السلام الآن»، قطار شامبرلين وميونخ. القطار القوي وسخ ونتن. ولكني حين أنظر إلى البعيد حيث تغيب

سكة الحديد في الضباب أتساءل».

«لا أكنّ أي عطف لإرهابيي عرفات. منظمة التحرير الفلسطينية دمّرت في لبنان أكثر مما دمّرنا. إن وجود جيش فلسطيني في الضفةوعينيه على تل أبيب والقدس، لا يُطمئن أبداً، بل بالعكس بدل أنْ تنتهي الحرب تندلع من جديد. هل يُطبّق الفلسطينيون الطريق الديمقراطي الذي وحده يضمن السلام؟ أشك. إذا حاول أحد قادتهم أنْ يتكلم باعتدال يصفّونه...».

داني ربّاط يتكلم طبعاً قبل تصفية عصام السرطاوي على يد مجموعات تأتمر بأبي نضال.

«وماذا بعد، من الحكمة الصعود في القطار الضعيف؟ ليس من حلّ آخر. لست عصبياً لهذه الدرجة. إن فترة الحزن على المذابح الجماعية قد انتهت. نحن أحرار، هل تسمع؟ مثلنا مثل الفرنسيين والإنكليز والأميركيين والروس في أفغانستان. لما لا؟

دفة الميزان بدأت تميل أكثر فأكثر. ذكّرني داني بايلياهو يافين الذي يعيش في الكيبوتز الاشتراكي في مشمار هانغيف. يافين هو الشخص العادل الذي اعترف بالتجربة، مع الفارق أن يافين كان قد رفض الرضوخ لها: فلا ينسى المخاطر التي تُحدق بالقطار القوي. بالعكس فداني يأخذ بعين الاعتبار هذه المخاطر لحظة ثم لا يلبث أنْ يبعدها لكي ينزلق بشكل أفضل.

«لا أهتم بما يجري في لبنان. لا أريد أنْ أحشر ابني بين الكتائب والدروز والسوريين والفلسطينيين. كما إنني أرفض وجود هذه الأقلية العربية المسعورة داخل إسرائيل. ولكن على الأقل فالسيادة الوهمية التي يدافع عنها لها الفضل في إلهاء العرب فيما بينهم، وعلى الأفضل أن يربح مع العلم أننا نفضل المعتدل».

تأمل خيراً دائماً. يبدو لي أنه بالرغم من اليافطات الملوّنة الجميلة، فالقطار القوي يسير بسرعة نحو الخط الحديدي المفكوك. والقطار الضعيف كذلك؟ يمكن نعم أو لا.

يستمر داني ربّاط، إنه يسير بسرعة. رأيت آثار يوفال نعمان.

«لست ضد المستوطنات اليهودية غرب نهر الأردن. وأنا الصهيوني أقول لك بأنك تجهل تاريخنا. أحمل ثلاثة آلاف سنة من التاريخ على ظهري. كيف أستطيع أنْ أمنع يهودياً من السكن في الخليل؟ ألا يحق لشخص قُتِل أهله في نابلس أو الخليل عام ١٩٢٩ أن يعيش هناك. أريد أن أعيش قلت لك. أن أعيش».

آنات زوجة داني تتكلم بصوت منخفض مرتجف، ومن غير أن تنظر إلينا...

«لا أسمح لأحد أنْ يمنعني من الخوف. أنا خائفة... حين كنت في سن الخامسة

في الكيبوتز بالقرب من الحدود اللبنانية كنت دائماً أهجس بالعرب الذين يسكنون الجبال من حولنا. إنه عِصَابُ المذابح الجماعية. أهلي قتلوا في محرقة جثث نازية. لدي هذا العصاب. ألا يحقّ أنْ يكون لي عصابي مثل غيري؟».

«أليسار يُزعجني، أضاف داني مدعياً أن الشر كله مصدره بيغن وشارون. الشر بدأ عندما استلم هتلر السلطة في ألمانيا».

«داخل الوحدة التي كنت أنتمي إليها في الجيش، كنّا اثنين غير يساريين من أصل ستة آلاف مقاتل كلهم خرجوا من الكيبوتز. لم يكن الزملاء يفهمون موقفينا. «أنتما لطفاء جداً وأذكياء، فلِمَ أنتما غير يساريين؟ لم يعد باستطاعتي أنْ أكون يسارياً. هل تعرف لماذا؟ حين تُطلّق المرأة التي تحبها تنام مع العاهرات».

«إن جماعة «السلام الآن» يُلصقون فراشات على زجاج سياراتهم حيث كُتِبَ «السلام أفضل من الأراضي». نتيجة مواقفهم هذه ينالون خدمة ممتازة في محطات البنزين حيث العمال من العرب. أما في ما يتعلق بالباقي... أعز أصدقائي ينتمون إلى «السلام الآن». هكذا يتكلم أعداء السامية في أوروبا، أليس كذلك. دائماً يقولون: أعز أصدقائي هم من اليهود؟».

١٠

رجال السياسة
أيام الحمائم العسيرة

لا يلزمك شهادة رئيس محطة لكي تدرك أن قطاري القدس ليس لديهما العدد نفسه من الحافلات ولا يسيران بالسرعة نفسها.

القطار الرخو أي قطار التسوية مع القومية العربية يتزحلق على خطوطه، وخلال سيره يرمي الدخان. قاطرته الجميلة تلهث بشكلٍ يُرثى له. المنحدر الذي عليه أنْ يتسلقه قاسٍ وطويل.

القطار الصلب المصفح تعلوه المدافع الأتوماتيكية وأعلام رُسمت عليها نجة داوود. يتجه هذا القطار بسرعة نحو هدفه.

إن استبدال ـ أريك شارون بموشي أرينز في وزارة الدفاع الإسرائيلية لا يغيّر شيئاً. ربما كانت تنحية «البطل اليهودي» بمثابة انتصار للحمائم.

وبالفعل، لشارون الفضل في برهنة أن البيغينية هي العبث. إن هذا المجنون الشاذ كان يعجب مواطنيه الأكثر بدائية ولكن على الرغم من كل ذلك فإسرائيل ليست بدائية على وجه التحديد. فبأساليبه الصاخبة التي تُذكّر بالأساليب الرومانية وبتبجحه وأخطائه وتهرّبه كان شارون يزعج تقريباً الأمة بأسرها. لقد فقد اعتباره داخل الجيش. يا لها من حجة بالنسبة للمعارضة المعتدلة: «سياسة الليكود؟ إنها شارون...».

أرينز الليتواني الأصل الذي نال شهادة MIT(*) من بوسطن هو تماماً عكس الفظاظة وتُصنّفُه الصحافة كـ«صقر براغماتي». إنه كيوفال نعمان آلة باردة. فقد رفض في إحدى المرات الوزارة بعد إستقالة عازار وايزمن لأنه كان معارضاً بشدة لاتفاقيات كامب ديفيد. ولا شك ان أرينز ذكي جداً. وهذا يعني أن باستطاعته أنْ يغير رأيه. فقد كان ينبح بواسطة أوري دان. يعمل بكد، يتحرك بالاتجاه نفسه الذي رسمه شارون أي خط بيغن. أنظر لموشي أرينز وهو يقود القطار المصفح. الجديد هو أنه ميكانيكي حاذق.

(*) معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

وما الفرق طالما القطار يسير بنفس الاتجاه؟.

الفلسطينيون وما عُرف عنهم من رعونة انتحارية يتشبثون بالمطالبة بوطن قومي. وبيغن وأرينز كما بيغن وشارون بالأمس يتشبثان بالرفض. إذن القمع والحرب سيستمران. شارون يضرب العرب وهو يضرب صدره بقبضتيه الضخمتين. أرينز يضرب العرب وهو يبتسم أسفاً. لا شيء يؤكد أن في الضفة الغربية أو في مكان آخر أن المعنيين يدركون هذا الفرق.

صديقي الصحافي لا يُخدع أبداً مع العلم أنه ليس من الحمائم. بالنسبة إليه بيغن ليس سوى التعبير عن مصير تاريخي يتعدّاه.

«المجتمع الوطني الإسرائيلي كان يخضع لدينامية كانت ستُؤدي به حتماً إلى التوسّع. هذه الحركة ليست ابنة البارحة ولا هي من اختراع بيغن. جلّ ما في الأمر إن الطرف الحالي هو بحاجة إلى شخص كبيغن. نحن نشبه الرواد الأميركيين في مواجهتهم للهنود. فالأمبريالية اليهودية في الشرق الأوسط مهما بدت أسبابها وجيهة هي بحاجة إلى إنشاء أمبراطورية صغيرة».

ويضيف بتهكم:

«ليبغن وأبي نضال المعركة نفسها. على الأقل على صعيد الفكر. الأهداف متوازية: إبادة العدو ونفيه كلياً».

منذ عدة أيام ـ كَتبتُ هذه الأسطر في أواسط نيسان ـ نشرت الحكومة خطتها في الصحافة الإسرائيلية. الخطة كانت تتعلق بمستقبل يهودا والسامرة من هنا إلى ثلاثين سنة. لم يتوقف الاستيطان كما هو وارد في اتفاقيات كامب ديفيد. ما هي المعاهدة؟ وما قيمتها حين يرعد صوت الحرب على جبل سيناء أو أي صوت يحلّ محله؟

الإحصائيون والديموغرافيون الذين ساهموا في وضع الخطة يتوقعون خلال ثلاثين سنة أن يصل عدد اليهود في الضفة الغربية إلى مليون وثلاثمئة ألف يهودي، وكذلك العرب. سوف يلحق إذن اليهود بالعرب. سيصبح في إسرائيل والضفة ستة ملايين يهودي. هذا إذا سارت الأمور بشكل جيد. أما إذا حصلت خضات، فلا مجال بعد ذلك للتعداد.

ونتيجة لذلك فالمائة مستوطنة أو أكثر التي شُيدت أو المزمع تشييدها لن تعود تكفي. وعلى ضوء ذلك، قررت الحكومة تشييد مائة وخمسين مستوطنة جديدة، مما يجعل عدد المستوطنات اليهودية غرب نهر الأردن مائة وخمس وستين. وتحدد الخطة أهميّة ووظيفة كل مستوطنة. ستبنى خمس مدن كبرى، كريات اربا وأريال، إضافة إلى ثلاث مناطق سكنيّة

حول تل أبيب والقدس. وتحدد الخطة كذلك بناء ستة وثلاثين تجمعاً سكنياً متوسط الحجم، وخمس وستين قرية، وأخيراً تسعة وخمسين كيبوتزا اوموشافا. كما يرغبون في بناء من خمسة إلى ستة آلاف منزل أو شقة كل سنة. طبعاً لم ينسوا الأربعمائة كيلو متر من الطرق الجديدة والتجمعات الصناعيّة.

لم تنسَ الخطة العرب بسبب المسؤول عن الخطة والذي يعمل بالتعاون مع وزارة الزراعة. وتوضح الخطة أنه يجب الاستمرار في شراء الملكيات الخاصة العربية والأراضي الجيدة الأميرية. كذلك تلحظ الخطة حملة تشجير وبناء تجهيزات سياحيّة.

لتحقيق هذا الحلم الجميل كما فعل لاكي لوك(*)، لكي يدخل الحضارة إلى الأراضي الهندية يلزمه عدد كبير من الروّاد أو ما يُسمّى هكذا. هؤلاء المرشحون لا يتجمّعون أمام الباب، يجب إغراءهم لكي يشتركوا في مغامرة كهذه. نعلم أن دوافع الهجمة نحو الشرق هي المصلحة الاقتصادية والورع الديني.

تقضي المصلحة بالدفع، وتقديم كل ما هو جميل وبأسعار رخيصة. هذا ما لاحظناه في أفرات وفي باب الأمل..

أما في ما يتعلق بالدين أتذكر بعض الجمل التي قالها أوري دان:

«الغوش إيمونيم هم رواد. إنهم شبيهون بالصهاينة اليساريين في السنوات الثلاثين الذين أسسوا إسرائيل. عرف شارون كيف يتكلم مع الغوش. فَهِمَ مشاعرهم وأدرك أنه من دونهم لن ينجح أي شيء».

لذلك فالغوش إيمونيم هم جزء لا يتجزأ من الخطة. فهم بعملهم والمثال الذي يقدمونه مفتاح النجاح وعصب الاستيطان العسكري. أعرف أننا استمعنا سابقاً لتسفانيا دروري الحاخام الجميل الطلعة في كريات شمونة، وكذلك إلى يوشي وميريام لوفينجر ولكن ستكون آخر مرة أتكلم فيها عن الغوش.

الغوش الذين سنتكلم عنهم ليسوا الذين التقيتهم بل هؤلاء الذين كتب عنهم أموس أوز في صحيفة دافار. لنعود إذن إلى تيكوا مع أموس. ليس للكاتب الإسرائيلي علاقة كعلاقتي مع الغوش.

مناحيم الذي جاء من عدن يصنع آلات لصقل الألماس. هارييت زوجته هي من أصل أميركي.

(*) لاكي لوك شخصية من شخصيات رعاة البقر في المجلات المصورة

«أنا ومناحيم، تقول هارييت، أتينا إلى هنا بعد حرب الأيام الستة مباشرة. يلزمنا انتصار آخر كالذي حققناه في تلك الحرب لكي يفتخر اليهود بإسرائيل ويأتون للإقامة هنا.

- (أموس) والسلام؟ ألا تفكر بالسلام؟

- (مناحيم) لا. السلام مع مصر لم يشجع الهجرة. على كل حال لن يكون هناك سلام فالأغراب يكرهوننا. السلام يحل حين ينتصروا علينا أو ننتصر عليهم. عليهم أنْ يفهموا أننا إذا كنّا نتركهم على قيد الحياة فهذا لطف من جانبنا.

- (أموس) هل الشعب يفكر مثلك في إسرائيل؟

- (مناحيم) الشعب؟ إنه مجموعة من المنحطين العاجزين عن التضحية بأي شيء من أجل خلاص إسرائيل. يخافون جداً. أما أغنياء أنانيون أو محرومون خبلاء.

- (هارييت) إذا ضربنا العرب بشدّة سيفهمون أخيراً أن هذه الأرض هي ملكنا. ولكن علينا أن نقف نحن بأنفسنا. كان يجب أن نحتل جميع العواصم العربية خلال حرب الغفران. بالنسبة لنا وكذلك بالنسبة لهم، فهذه الحرب هي حرب مقدّسة.

- (مناحيم) المسلمون يعرفون أن هذا البلد هو بلدنا. كل ذلك مسجل في كتابهم.

- (أموس) هل تعتقد من الطبيعي أن يعملوا من أجلنا خاصة الأعمال المُحتقرة؟

- (مناحيم) في التوراة هناك من يعمل في قطع الخشب ومن يعمل في حمل الماء.

- (هارييت) التوراة تقول إنه إذا تنازلنا قليلاً سنخسر كل شيء، شاوول خسر مملكته لأنه أشفق على العماليق. أمره الله بتصفيتهم جميعاً ولكن شاوول لم يطعه. إما هم أو نحن.

- (أموس) من تقصد بهم؟

- (هارييت) الذين يضعون القنابل، المسلمون، العرب.

- (مناحيم) الأخطر بالنسبة إلينا ليس الذين يصرخون «لنرمِ اليهود في البحر»، ولكن الذين يقرّون ببعض حقوقنا. حقنا مصدره الله وليس العرب.

- (أموس) ما العمل إذا طالب العرب بالسلام؟

- (هارييت)يجب أنْ نرد متأسفين لقد تأخرتم. إن مصلحتنا تفرض علينا أنْ نخوض حرباً لانتزاع الحجة من يد ضعفاء النفوس في إسرائيل أولئك الذين يخافون.

- (مناحيم) نستطيع أنْ نتفاهم مع العرب حين يدركون أنهم لا يزالون في أرض إسرائيل فقط لأننا نريد ذلك وليس انطلاقاً من حقوقهم. أعرفهم جيداً. أنا من عدن. العربي طيب القلب شرط أن لا تضع في رأسه بعض الأفكار. حين يعرف أين مكانه،

كل شيء يسير بشكل جيد.

- (أموس) أين مكانه؟

- (مناحيم) في العملْ. أنا لا أريد أنْ أطردهم...».

وهكذا دواليك.

إن هؤلاء الرجال والنساء يفتحون لقومية الليكود أبواب إسرائيل «الكبرى». ولكن هناك ما هو أخطر. فمهما حاول المثقف موشي أرينز أنْ يكون صقراً هادئاً. فالغوش إيمونيم واللوفينجر ومناحيم وهارييت هم الذين يعيشون في الخطوط الأمامية بالتصاق مباشر مع القرويين العرب.

ربما ستقول بأن الغوش هم حفنة من المهرجين المضحكين وأنا أضخم دورهم بإعطائهم وزناً كبيراً داخل الشرخ. إنك مخطىء. إنهم عدة آلاف ولكنهم يتحركون مثل الملايين.

أتحدثُ أعمال عنف في الضفة في ظل الجيش الإسرائيلي؟ ليس كثيراً ولكنها بالتأكيد ستحدث بشكل أوسع. بعض الصقور قلقون من البيض الذي يُكسر من أجل العجة. حنان بورات، العضو في حزب تحيا يريد معاقبة الذين يجرحون أو يقتلون العرب من دون أنْ يحمّل المسؤولية للمجتمع الإسرائيلي بأسره. ولكن كيف يمكن فرز القمح عن الزؤان وهما في التصاق حميم. هل يريد فعلاً أنْ يأكل عجة أم لا؟

جُرِحت طفلة فلسطينية عمرها أربع سنوات من قبل جماعة من الكاخ (Kach) حركة الحاخام مئير كاهانا الإرهابية. الحاخام يُريد طرد العرب بالقوّة وبسرعة. لم أسعَ للقاء جماعة الكاخ لأنهم سواء كنت على خطأ أو صواب على ما اعتقد غرباء عن إسرائيل، إذن لا علاقة لهم بالشرخ. ليس هذا وضع الغوش إيمونيم. إنهم يضعون الفحم الحجري بحماس في قاطرة القطار الصلب. لا فرق عندهم إذا احترق الحقل المجاور. اغفروا لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون. آخرون يعرفون.

لن نتكلم أبداً عن الإرهاب «الكلاسيكي» لجبهة الرفض التابعة لأبي نضال ولا عن الجماعات السوريّة والليبية داخل منظمة التحرير الفلسطينية. لقد اعتادت إسرائيل على هذا النوع من الإرهاب ويمكنها أنْ تستمر. الشيء الجديد هو تشنّج العرب في إسرائيل «الكبرى» و«الصغرى». وهو ظهور العدو الداخلي الذي تغيظه حركة الاستيطان ويفقده المستقبل المسدود الأمل. إن مشاريع الاستيطان الجديدة وتهافت سكان الضواحي اليهود ودسائس الغوش لا تطمئن خواطر الناس خاصة خواطر الشبان الفلسطينيين الذين لم يتحركوا حتى

الآن. إن التطور الاقتصادي والدخل اللائق لم يُخفتا عبر التاريخ البعد القومي، بل بالعكس. تأزمت الحالة. المراسلون الدائمون للصحف الأجنبية - إسرائيل هي بعد الولايات المتحدة البلد الذي يتواجد فيه أكبر عدد من الصحفيين - لن يغفلوا عمّا يدور من أحداث.

الحرارة ترتفع يوماً بعد يوم. بدأ العرب الإسرائيليون البالغ عددهم ٦٥٠٠٠٠ نسمة بالانفعال.

«بدأ عرب إسرائيل يشعرون بأنهم فلسطينيون كما لاحظ فيكتور سيجيلمن.

إذا لجأوا إلى الإرهاب، ستكون حياتنا صعبة. فهم يتكلّمون العبرية، ويعرفون عاداتنا، وشوارعنا الضيقة. إنهم في وطننا وكأنهم في ديارهم، كما السمك في الماء. إن مستواهم التقني والثقافي العالي نسبياً، يجعل منهم أعداءً لا يُستهان بهم».

في يهودا والسامرة أصبحت المظاهرات أكثر عنفا. إن رجم العرب للسيارات الإسرائيلية في الخليل ورام الله، مؤشر سيىء. فسكان المستوطنات المسلّحون يستمعون لكلام ميريام لوفينجر أو مناحيم، وينزعون لنيل حقوقهم بسرعة. منذ عدة أيام، هاجمت جماعة من الكرمل،وبحجة الانتقام،وهددوا مدرسة للعرب في ياتا بالقرب من الخليل؛ أطلقوا النار في الهواء، وتوعّدوا. سيحصدون غداً أضعاف ما زرعوه، ولا بد لدورة العنف إلاّ أنْ تحتدم. لن يطلقوا النار في الهواء بعد اليوم. في غياب حلٍ آخر ستدفع منظمة التحرير الفلسطينية العجلة ولن تستطيع السلطات اليهودية السيطرة على تلك الآلة.

لم ننسَ بعد جواب يوفال نعمان المتعلق بالتهديد بالإرهاب أو بالمقاومة العربية بحسب مصطلحات الصقور أو الحمائم: الإرهاب لا يعني شيئاً ليوفال! سيزول الإرهاب بمجرد أنْ يفقد العرب الأمل. في بداية السنة رموا قنبلة على أوتوبيس في تل أبيب. كنّا نسينا هذه العادة. فرفايل ايتان المسؤول عن ملاحقة الإرهاب قال كلمة بطولية ولكن فيها الكثير من الرعونة: «نتحمل قرناً من الإرهاب إذا اضطرونا لذلك! فانكلترا لم تذعن لبلفاست».

ونحن بانتظار نهاية هذا القرن، نرى التوتر يزداد أمام نظرنا في يهودا والسامرة. تجري هناك أمور تتكلّم عنها الصحافة بشكل غير ملحوظ ولا يأتي التليفزيون على ذكرها أبداً.

بين يديّ نتائج تحقيق قامت به حركة من أجل السلام وحقوق الإنسان التي تحركها شولاميت آلوني. يرجع التقرير الضخم إلى عدة أشهر. سأذكر فقط بعض الوقائع. طُعن

عربي بالخنجر من قبل المستوطنين في كريات اربا، إلقاء قنبلة من النافذة، تحطيم سيارات عربيّة خلال الليل؛ فيلم يظهر يهود رام الله يطلقون النار على المظاهرات، تدخل الميليشيات شبه العسكرية المكوّنة من الاحتياطيين، دور «لجان القرى» الذي يشبه دور الحركيين. صحيح أننا لم نصل بعد إلى المجزرة ولكن التعديات تجري على قدم وساق وبدون شك وقع عدد من القتلى. وفي الفترة الأخيرة اقترح يوفال نعمان الذي لا يتغير فكرة تجنيد بعض المدنيين للحراسة في الأماكن الغير آمنة.

يجهد الجيش لمنع المستوطنين من أخذ حقهم بيدهم، ولكن حمى الحرارة معدية. يجب أنْ نتصرف بشكل جيد، علينا أنْ نحمي اليهود الذين وضعناهم هنا. الجنود يقطعون الطرق ويمنعون أهالي القرى من الخروج من منازلهم، باختصار يلجأون منطقياً إلى كل الوسائل التي تُستعمل في إحلال الأمن في المناطق المعادية. من غير المعقول أنْ تأتي العملية بدون شوائب. وبالفعل فقد وقعت عدّة شوائب.

الجنود الذين يقومون بالخدمة في الضفة الغربية لا يحبون أبداً مهمة التمشيط الموكولة إليهم. إن الجنود في تساحل بالرغم من مميزاتهم لا يملكون النزاهة. العديد منهم حكم عليهم بالسجن لعدة أشهر لإخافتهم. أحد ألموظفين في شرطة الحدود أجبر بعض المشتبه بهم أن يضربوا بعضهم البعض، ، أنْ ينجوا، أنْ يزحفوا على الأرض وأن يغنوا الهاتكفا(*) وأن يعدّوا النجوم ويشتموا عرفات وأن يمدحوا بيغن. نعتقد أنهم بمجرد خروجهم من السجن لن يكونوا على استعداد لإقامة علاقة صداقة مع المستوطنين.

إن إرهاب الناس ليس دائماً من عمل أناس مرؤوسين مسعورين، أو ساديين، كمثل هذا الكولونيل الذي أعطى أمراً غير شرعي، بإطلاق النار على المولدات الشمسية، وضرب المشبوهين وتحطيم ساعاتهم ومصادرة رخص السير الخاصة بهم. حين تتحرك القرية يُفجّرون بعض المنازل. هذا عمل روتيني. فالتحرك الوطني يؤدي بالضرورة إلى عقاب جماعي في المستوطنات. فالجنرال إيتان، إيتان العظيم، حدد بشكل جيد نظرية العمل ضد النشاط الهدّام: «يجب معاقبة الآباء بجريمة أبنائهم».

إن كل كلمة من هذه الكلمات، وكل تصرف يدوي صداه عالياً في إسرائيل ويعمّق الشرخ. لا سيما وأن يهودا والسامرة ليستا مستعمرة «عادية».

ما العمل للخروج من هذا الجو المتوتر إنْ لم يكن بالتضحية وبالتخلي عن بعض الأراضي؟ عبثاً. لا مجال للتراجع ولو خطوة. اخترع رفايل إيتان شكلاً للتصدي يفسر بشكل واضح زوغان السيطرة.

(*) النشيد الصهيوني

«في حال وقوع حادث بسيط، يجب إنشاء عشر مستوطنات جديدة. حين يصل عدد المستوطنات إلى مائة بين نابلس والقدس، لا أحد يعود يستطيع أنْ يرمي اليهود بالحجارة على طول هذه الطريق».

ليست المسألة رمي حجارة أو لا، طالما المستوطنات ستُشاد في كل الأحوال. وماذا سيقول رفول حين تصبح الحجارة قنابل أو شاحنات مفخخة؟

في أواسط نيسان، قال رفايل إيتان كل ما يريد قوله وهو يودّع لجنة الدفاع البرلمانية:

«على العرب أن يشعروا أنهم في الفخ مثل الحشرات في أسفل القنينة».

دوت صرخة استنكار من قبل اليسار وليس اليمين.

حين تتخطى أشكال الانتفاضة الشعبية عتبة معينة، تأخذ أشكالاً متنوّعة وغير منتظرة. في اللحظة التي أكتب فيها لم تكن توضحت بعد قضية الشبان الفلسطينيين الذي سُمّموا. ربما على الأرجح لن تتوضح أبداً. وهذه المرة أيضاً يحاول عرفات على طريقة غوبلز اتهام الصهاينة بتسميم وتعقيم الشباب في الضفة الغربية. إدانة من دون أي دليل. السلطات الإسرائيلية فعلت الشيء نفسه. أوقفت عدّة فلسطينيين واتهمتهم بجريمة سخيفة: «التحريض على الهستيريا الجماعية».

بكل تأكيد فالقاطرة البيغينية ترتجف وهي تسير على السكة غير المركّزة.لكي تدّعي بأن محصلة العنف العامة هي إيجابية وأن التفاوض سيُعرّض دولة إسرائيل للخطر، يلزم همة لا يَتمتّعْ بها جميع الإسرائيليين.

لا أقصد القيام بتحليل الوضع السياسي والاستراتيجي لإسرائيل، كل ما أحاول القيام به هو تعيين موضع الشرخ الذي من دونه لا يُفهم الشرخ.

إن الحرب الخاطفة في لبنان تلتهب. قيل إن الاتحاد السوفياتي أُبعد من منطقة الشرق الأوسط: نعم ولكن نتيجة للتوتر المستمر سيعود السوفيات إلى المنطقة. فسوريا تعجّ بالأسلحة الحديثة، كما انها تُحرّض جماعتها داخل منظمة التحرير الفلسطينية. إذا استقرّ الإرهابيون الذين طُردوا من لبنان والأردن في سوريا، يجب العمل على طردهم من هناك. يضاف إلى ذلك وجود الخميني الذي يُكشّر عن أنيابه...

غولا كوهن من حزب تحيا لا تحب الكلام في هذه التفاصيل الصغيرة. إنها مضرة للغاية.

حين كنت في إسرائيل وقع حادث أحدث ضجة كبيرة.

قائد القوات المسلّحة رفايل إيتان منع صغار الجنود من الاشتراك في الزيارات

التقليديّة التي تُنظّم في ياد فاشم. ياد فاشم في القدس هو البناء المخيف الذي يُستعمل كمتحف لضحايا المذابح الجماعية حيث كُتبت أسماء ستة ملايين يهودي قضوا على أيدي الهتلرية. إن الذين يعملون كدليل في هذا الصرح هم من الرجال والنساء المثقفين جداً.

في أحد الأيام، شتم دليل، وهو ابن شخصية سياسيّة معروفة، مجموعة من الجنود الشبّان. فخامة هذا المكان أعطت صدى رهيباً لكلامه الذي كان تقريباً كما يلي: «ماذا تفيدون بدباباتكم وطائراتكم وصواريخكم؟ لماذا تقتلون، لماذا تموتون؟ فإسرائيل هي آخر مكان يمكن ليهودي أنْ يشعر فيه بأمان. نسير من حرب إلى حرب، إن ثقلها عبء على الصدر. الأفضل لنا أنْ نعيش في الدياسبورا، فذلك أقل خطراً علينا. ما الفرق بين الموت في ميركافا تحترق أو في معسكر أوشفيتز؟».

القطار الصلب يسير بأقصى سرعته.

أظهرت نتائج تحقيق أُنجز في بداية نيسان أن ٥١,٧٪ من الإسرائيليين يعتقدون أن تقرير كاهان عن المسؤوليات في قضية صبرا وشاتيلا قاسٍ جداً و٣١٪ يعتقدون أنه متوازن، والبقية من دون رأي.

ريتا صباح هي بالطبع على خطأ حين تتصور أن إسرائيل تسير على طريق الفاشية. في حيفا كان ثلاثة مناضلين من الهيئة المناهضة للحرب في لبنان يوزّعون بيانات يهاجمون سياسة الليكود في الضفة بعنف. شتمهم بعض المارة وبصقوا في وجههم. أُلقي القبض على الرجال الثلاثة واتهموا «بالإخلال بالأمن». لا أدري ما إذا حكم عليهم أو أُخلي سبيلهم..

الريح ستتحوّل إلى عاصفة ولكن ليس في مصلحة حركة «السلام الآن»...

عد على أصابعك: مقتل السرطاوي، انتهاء المحادثات بين عرفات والحسين، القرار بعدم تجميد بناء المستوطنات - «لا يمكن تجميد الحياة» يقول بيغن - رفض مشروع ريغان من قبل الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية. ماذا يفعل؟ وماذا باستطاعتهم أنْ يفعلوا الحمائم؟ أين هم؟ ليس في المكان الذي يجب أنْ يكونوا فيه.

لقد فوجئت حين كنت في أشدود بردّة فعل، أو بالأحرى بغياب ردّة فعل - يودا بن أروش. كيف؟! نقابي واعٍ وكادر عال في الهستدروت ومناضل اشتراكي يتأثّر بديماغوجية بيغن..

«إن المؤسسات التي تُعنى بالبناء والتابعة للهستدروت مفروض عليها أنْ تبني في يهودا والسامرة. إن المنتسبين لاتحادنا لا يمكنهم أنْ يفهموا لماذا نرفض البناء في هذه

المنطقة. والليكود يحاول تدميرنا أمام الرأي العام».

إن الخوف من التحرك ومن الوقوف بوجه الموجة السائدة؛ هذا هو مرض اليسار الإسرائيلي. فمسيرة عشر خطوات وراء بيغن تؤكد لحزب العمل أنه لن يربح. ولكن السير في الاتجاه المعاكس سيعرّض حزب العمل لخسارة أصوات أكبر. فاللبسُ هو أعمق ممّا نتصور. وفي الحقيقة هل حزب العمل يتألّم فعلاً لأنه سينبطح أمام الموجة القومية التي تعصف بالأمة؟ لقد حلّ محلّ فكر بن غورين فكر جابوتنسكي وهذا مؤلم جداً. ولكن استعادة الأراضي هل كانت غريبة عن الصهيونية؟ إن فكرة الاستيطان أبعد من «الهضاب السود» هي مشتركة بين الجميع. ولكن استعمال المصطلحات يتغير، ويجري الكلام عن ضمان الأمن أكثر ممّا يجري الكلام عن أرض الأجداد.

واحد على الأقل يحاول أنْ يتخلص من العدوى هو بارليف. صديقي القديم الجنرال حاييم بارليف قائد القوات العسكرية السابق وزوج تامار الجميلة. بارليف شريف وثابت وعنيد. لا تؤثر فيه موجة الديماغوجية. وصلت إلى مقر حزب العمل وأنا أرتجف. أخيراً سأسمع لغة واضحة، لغة حذرة ولكنها واضحة.

بدأنا بإحصاء اتجاهات النواب داخل الكنيست الذين لا يتقيّدون كلياً بخط حزبهم الرسمي. لقد حاولنا أنْ نبرهن أن الأكثرية التي يتمتّع بها الليكود ليست بالفعل هي الأكثرية كما يبدو. بدأت أضجر.

«اثنان من أصل ثلاثة نواب في حزب التامي هم ضد سياسة بيغن. واحد من أصل ستة من الحزب الوطني الديني هو من أنصار التفاوض. الليكود منقسم. فقط شخصية بيغن هي التي تضمن وحدة الصرح. يجب أنْ لا ننسى أنْ أكثرية أعضاء المؤتمر الصهيوني هم ضد بيغن».

يدخل شيمون بيريز إلى المكتب ويكلّم بارليف.

«حزبي يناضل ضد بيغن الذي يرفض التنازل عن شبر من الأراضي مهما كلّف الأمر. وفي الوقت ذاته نحن ضد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة. أي حل متطرف لن يؤدي إلى السلام».

يضيف بارليف وهو يزن كلامه ويقلّب جُمله كما هي عادته.

«جميع الأراضي لنا؟ إذن لا مجال للسلام. جميع الأراضي للأردن؟ كذلك لا مجال للسلام. دولة فلسطينية تقع بين الأردن وإسرائيل؟ لا مجال للسلام. كل ما نطلبه هو ضمان أمننا القومي. وما يطلبه الفلسطينيون هو العيش في حرية داخل دولة عربية مستقلّة حيث يشكلون الأكثرية. الأردنيون يريدون سلاماً عادلاً مع إسرائيل وممراً يصلهم بالبحر

الأبيض المتوسط. كذلك يريدون التخلّص من خطر عرفات وأصحابه أسياد الضفة الغربية من نهر الأردن».

خاب أملي، إنه مشروع آلون بكل تفاصيله والذي يرفضه الجميع.

ربما لا أفهم شيئاً في تفاصيل سياسة الشرق الأوسط ولكن وراء هذه اللوحة المنسجمة، يبدو لي أن الصورة فجّة للغاية. سوف يتركون الفلسطينيين يدبّرون أمرهم مع حسين شرط أنْ تظل منظمة التحرير العدو الرئيسي خارج اللعبة. وبما أنه من المستحيل أنْ يقبل أحد الأطراف بهذا المشروع ستحتفظ إسرائيل بتلك الأراضي حتى مجيء المسيح.

ولا يزال مشروع آلون يتعثر. بارليف لا يجرؤ على المجازفة. وإذا سمعه أحد من ناخبيه؟ يلقي ما في جعبته.

«إذن سنستمر في بناء المستوطنات والمراكز العسكرية (غال) على نهر الأردن. الباقي، أي الضفة الغربية وغزة، المنزوعتا السلاح، ستظلان بعهدة الأردنيين والفلسطينيين. إن حسنات هذا الحل جليّة. من جهتنا، سنحتفظ بأكثرية يهوديّة. وأكثرية الفلسطينيين في الأردن. أما عرب إسرائيل فيمكنهم أنْ يلحقوا بأخوانهم إذا أرادوا ولكن أظن بأنهم سيقررون البقاء هنا. أما فلسطينيو لبنان إن رحلوا أو بقوا فهذا لا يعنينا بل يعني حسين. لقد أضعنا عدّة سنوات بن غوريون كان قبل بتقسيم أرض الأجداد».

سنوقع وسنقبّل بعضنا. ولكن هناك عقبة واحدة: مشروع آلون يتجنّب حتى فكرة الوطن الفلسطيني المستقل. ولولا هذه الفكرة لما وقعت الحرب في الشرق الأوسط. إن حرب الجزائر كانت قد انتهت بسرعة لولا مطالبة جبهة التحرير بوطن مستقل. أعرف أن لا مجال للمقارنة بين الوضعين، ولكن يبدو أن جميع الوطنيين في كل مكان وعبر كل الأزمنة يتصرفون بالشكل نفسه.

«إن وجود دولة فلسطينيّة في الضفة الغربية ليس بالأمر الحسن. إنها المرحلة الأولى. عرفات يقول إن المرحلة الثانية هي الوحدة مع الأردن والمرحلة الثالثة الوحدة مع حيفا ويافا. حتى خارج هذا الاعتبار، إن دولة منظمة التحرير ستكون رأس حربة للسوفيات ولا نريد أنْ يستقرّ عرفات على بعد ربع ساعة من تل أبيب حتى وإنّ كانت دولته منزوعة السلاح نظرياً.

ـ حاييم إن هذا يزعجني أكثر منك ولكن منظمة التحرير أليست الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني؟

ـ أبداً، استقبلت في هذا المكتب حيث نجلس مثقفون من نابلس يرغبون بالتخلّص من السيطرة الإسرائيلية والعيش معنا بسلام. يكفي أنْ يتظاهر الأردن بقطع

الطريق على عـرفات حتى تكـون نهاية منـظمة التحـرير. حسـين غير مستعـد حتى الآن. ولكن لو كان لإسرائيل سياسة أكثر انفتاحاً لكان قَبِلَ. وعرفات سيعرف أين هي مصلحته وسيهدأ».

بعـد ذلك، يمكن مفـاوضة مثقفي نـابلس حـول السـلام. هؤلاء المثقفـون الـذين يتعاظم مدى تأثيرهم على المقاتلين الشباب الذين ترعرعوا في المخيمات الفلسطينية!.

«عند اللزوم، إن مبدأ استقـلال الضفة الغـربية الـداخلي يمكنـه أنْ يُشكل مـرحلة انتقـالية. ولكن بـالنسبة لليكـود، فهو ليس سـوى حجّة للضم. من جهتنـا سنكـون من أنصـار استقلال أوسـع، شرط أن لا تُمسّ القـدس ولا وجودنـا في وادي الأردن وكذلـك أمننا».

«إن الأربعة آلاف إسرائيلي الذين يعيشون في الكيبوتزات العسكريّـة على نهر الأردن يجب أنْ يظلوا هناك. إذا كان السلام حقيقياً فلا شيء يمنعهم من العيش في تلك المنـطقة التي تكون تحت السيطرة الأردنيّة الفلسطينيّة».

- فهـل الجميع متفقـون حول هـذه المسألـة في حزب العمـل؟ يُقـال بـأن هنـالـك خـلافا . . .

- لا، إننا متفقون عـلى الجوهـر. لا أحد يُـريد الضم. ولا أحـد يريـد الانسحـاب الكـامـل. فما بـين شـولاميت آلـوني وإسحـاق رابـين تختلف الآراء في مـا سنعـطي وبمـا سنحتفظ. فقط نائب من أصل مائة يرغب بوجود دولة فلسطينية مستقلة».

يوفال نعمان كان على حق حين قال إن جماعة حزب العمل في وضع مُحرج.

«هـل تقلقك صحـة الشعب الإسرائيـلي السياسية، في هذه الفترة التي تظهـر فيهـا المزايدات القومية؟

- إن قسماً كبيراً من الشعب الإسرائيلي ليس له موقفاً سياسياً بكل معنى الكلمة. إن كان من جهة اليسار أو اليمين. ولكن يجب الاعتراف بأن ديمـاغوجيـة حكومتنـا قد فعلت فعلها وخاصة في أوساط العمال. مناحيم بيغن يقول: إن مشروعنا سوف يضـع تل أبيب تحت رحمة مدافع الإرهابيين. والناس تصدّقه. من جهة أخرى، فالناس الأقل تسيساً هم فخورون بذهاب الجيش الإسرائيلي إلى بيروت لتدمير رأس الحيّـة. إنهم فخورون بقصف أوزيـراك، وكـذلك فخورون بزيارة السـادات، وبالـوقوف بـوجه ريغان وألمانيا وفـرنسا والعالم بأسره. إلى متى؟ . . .».

بصفته السكرتير العام لحزب العمل حافظ حاييم بارليف على الخطّ العام للحزب.

أتصور أن هذا الرجل الشجاع والعضو القديم في البالماخ يتخطى مشروع آلـون.

حين يعود حاييم من مكتبه عند المساء إلى البيت لا تنزعج تامار من التشبث بباقـة زوجها وهزّ خزانته الكبيرة. ولكن حزب العمل هو مؤسسة تعمـل في السياسـة وهي بعيدة كـل البعد عن العواطف على الطريقـة الموسـولينيّة. في الفتـرة ذاتها نـلاحظ اندفـاع الليكود في حرق المراحل.

نعلم مثلاً أن رئيس الوزراء السابق إسحاق رابين الـذي يُعتبر من اليمـين العمالي يـرى أن مشروع آلـون يعطي للعـرب أكثر ممّـا يستحقون. حسب رأيـه، يجب الاحتفاظ بوادي نهر الأردن وبالسلسلة الشرقية من السامرة وبمنطقة غوش أتزيون وجنوب غـزة. في المناطق الباقية المنزوعة السلاح يمكن للفلسطينيين أنْ يلعبوا لعبة حَجَـر الرّجـل(*). سوف يتحرقون للعيش بسلام مع دولة إسرائيل على قاعدة مشروع رابين.

شيمون بيريز مختلف نوعاً ما. إنه مستعد لكل المواقف ولكل التنازلات شرط أن لا يرميه الناخبون الذين لا يزالون معه بالليمون المهترىء.

بعد مصرع عصام السرطاوي، قال بيريز بنوع من الحسرة: «أعلنُ بصـراحة، أنني ضد منظمة التحرير، لكنّ السرطاوي جدير بالاحترام لأنه كان يسير عكس التيار».

هذا قليل من كثير. . .

إن ماضي هذه الحمامة في فتـح لم يكن أبيض كالثلج، ولكن ليس هـذا هو المهم. السـرطاوي كـان من أنصار الانفتـاح الذي يفتش عنـه حزب العمّـال. الانفتـاح لا يعني التخلي عن وادي نهر الأردن والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في بناء دولته.

مـا أن أُعلن موت عصـام السرطـاوي حتى سارع يـاسر عرفـات لاتهام المحـرضين الصهاينة. واعتراف تنظيم أبي نضال بالجريمة لم يزعجه مطلقاً. هـذا هو المنـطق - ما قبـل منطقي - الذي يميّز منظمة التحرير الفلسطينيـة. ولكن نمط بيريـز وإن يكن أكثر لبـاقة إلاّ أنه لا يختلف كثيراً عن نمط هذه المنظمة. قبل افتتاح مؤتمر الأممية الاشتراكية في البرتغال، اعترض شيمون بيريز بقوة على وجود مراقب لمنظمة التحرير.

«إرهابي! لا نجلس مع هؤلاء الناس. لا نتنفس الهواء الذي يتنفسونه».

كثيراً ما يَـرِدُ في الخطب السيـاسية في إسـرائيل وفي الأحـاديث الخاصـة ذكر ميثـاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي يرفض وجود دولة إسرائيل. عدّل هذا الميثاق عدّة مرات ولكثرة هذه التعـديلات لم يعـد أحد يعـرف ما هـو مضمونـه الحقيقي وبات كـل شخص يفسـره بحسب ميولـه. هذه هي عبقـرية منـظّمة التحـرير التي تعـرف استعمال المـواقف

(*) لعبة الحجر اي الوقوف والقفز على رجل واحدة

المعتدلة والصلبة. لن نتكلم عن بيغن. أما في ما يخصّ خطاب حزب العمال فيبدو لي أنه خطاب موازٍ لما يقوله الميثاق الفلسطيني. ترفض إسرائيل منظمة التحرير لأن منظمة التحرير ترفض إسرائيل والعكس بالعكس.

يجب أنْ نفهم: شيمون بيريز يخاف من ناخبيه التقليديين الذين أصابتهم العدوى البيغينيّة، والذين يشترون منازل في «باب الأمل». وعرفات يخاف من المتطرفين الذين ينبتون في طرابلس ودمشق، الذين أصابهم مرض مُزمن نتيجة حياة التشرد في المخيمات. هناك الخوف الديمقراطي والخوف القومي. إنهما مختلفان ولكن بالحقيقة...

يا لهذه الفرصة التي ضاعت والتي كان يجب خلالها دغدغة الرجل الذي «كان يسبح عكس التيار» وإظهاره مظهر الذي لا غنى عنه. إن نجاح بيغن مع السادات كان سيؤثر ولا بدّ على حزب العمل. لو كنت شيوعياً على نمط الخمسينات، لكنت قلت إن شيمون بيريز مسؤول «موضوعياً» عن موت السرطاوي.

أكرر مرة أخرى، إن غرضي ليس تحليل مراحل العلاقات الإسرائيلية العربيّة. يجب أن أعرض بسرعة الوضع السياسي العام لكي أحدد موقع الشرخ ومعاينة آثار التفسخات التي أضحت اليوم كبيرة. كم مرة قالوا لي خلال رحلتي، خاصة في أوساط الحمائم ، إن غولدا قد زرعت ما يحصدّه بيغن الآن في وضح النهار.

إنها حادثة قديمة وليست قديمة جداً. بعد حرب الأيام الستة وأيلول الأسود ومجزرة الفلسطينيين في الأردن. تلك المجزرة التي كنت أغطيها في مجلة النوفيل أو بسرفاتور، تساءلت في كتاب آخر ما الأثر الذي يتركه فجأة خطاب مغاير لخطاب غولدا مائير. خطاب رسمي وعاطفي يكون قريباً لهذا الخطاب:

«أيها المصريون والعرب. لقد احتشدتم لتدميرنا ولكن تلقيتم ضربة في أقل من أسبوع لن تنسوها أبداً. إن شبابكم تركوا أحذيتهم في الصحراء قبل أنْ يموتوا من العطش».

«أيها الفلسطينيون، لن يؤدي بكم الإرهاب سوى إلى الفاجعة. أخوتكم في الأردن أساؤوا إليكم أكثر منا. لقد حان الوقت لأن تغيروا اتجاهكم».

«نحن المنتصرون ونحن الأقوياء، باستطاعتنا عمل أي شيء أما أنتم فليس بمقدوركم أي شيء. إن إسرائيل تفعل ما لم تفعله أي من الأمم المنتصرة. لا نعطيكم السلام لا بل نطلبه منكم. ليس عن ضعف لأننا أقوياء ولكن شفقة لأننا كنّا غير شفوقين».

«لنجلس معاً ونتحدث عن المستقبل. العالم بأسره هو شاهد على إرادتنا الطيبة.

وسوف يكون شاهداً في حال تلكؤنا. لن يكون هناك دولة فلسطينية وكل واحد في الما ستقبل يرفع أصبعه سيلاقي جزاءه».

لم تلقِ غولدا خطاباً كهذا أبداً. لو فعلت، لكانت انتزعت عداء العالم وربما عداء العرب. فالدولة اليهودية لا تخسر شيئاً. ففي حال عدم التوصل إلى حل يمكننا أنْ نضرب بقوة إلى ما لا نهاية. لو قيلت تلك الكلمات لكان الكلام القاسي الذي يتفوه به يوفال نعمان مشروعاً صحيحاً من الألف إلى الياء.

أعتذر لهذا التشخيص المُسهب. كان لا بد منه للدلالة على استمرارية الشرخ ومنطلقه.

إن بعض الإسرائيليين ممن كانوا يتميّزون بالوضوح والجرأةلم ينتظروا وقوع الحرب في لبنان، ولا تهديد بيغن المنتظم للضفة الغربية ليهزّوا إسرائيل والضمير العمّالي. فأمثال آل أفنيري ، وآل ناتان يالن موز وآل أمون كابليوك، وآل فيكتور سيجيلمن وبعض الآخرين دقّوا ناقوس الخطر بدون جدوى، وكل واحد منهم على طريقته. هناك أحد الأنبياء الذي لا تعرفه الناس جيداً: هو ياكوف أرنون. فأرنون هو أحد الإسرائيليين الثلاثة الذين اجتمعوا بعرفات والسرطاوي في تونس مع ماتيّ بيليد وافنيري . ولكن هذا الاقتصادي الذي كان لمدة أربعة عشر عاماً مديراً لوزارة المال جاء متأخراً إلى العمل السياسي. وإذا كان استقال من الحزب الاشتراكي ـ المباي في تلك الفترة ـ في سنة ١٩٧١ فذلك تحت وطأة الغضب المدني. لا أحد يتكلم عن هذه القضية ويبدو أن هناك أسباباً لذلك: في تلك السنة قدم أنور السادات عرضاً لغولدا مئيرهو نفسه الذي قدمه لبيغن بعد خمس سنوات. الكلام عن السلام... إن المرأة الحديدية الإسرائيلية ارتأت أن لا فائدة من مواصلة عمل كهذا؛ وهكذا وقعت حرب الغفران.

المحامية شولاميت آلوني التي تمثل اليسار المتطرف داخل حزب العمل، قوية وامرأة ممشوقة ومن الأفضل عدم دوس أطرافها. استقبلتني في مكتبها الصغير في الكنيست حيث كانت تغيب من وقت لآخر للاقتراع في الجلسات. لقد كانت شولاميت دائماً من الحمائم الصداميين حتى أيام غولدا مئير.

منذ أنْ تعمّق الشرخ لم يعد الحمائم من الهامشيين. إنهم جزء من إسرائيل يناقش ويناضل ويغضب ويرفض. ليس سهلاً أن تكون من الحمائم. ولكن شولاميت آلوني التي تحتفظ بأظافرها لا تنهزم بسرعة.

تنطلق شولاميت في تحليلها من داخل حزب العمل ولكن لا تلبث أن تحيد إلى

مكان آخر. يمكننا أن نتسلى بالتفتيش عن القواسم المشتركة مع باراليف ولكن يلزمك مكبر دقيق.

«يقول حزب العمل إن لا حدود للتفاوض».

أي حزب عمل يقول ذلك؟

«إن رسم الحدود ليس هو المهم. المهم هو الاعتراف بالشخصية الفلسطينية وحقّها في تقرير مصيرها. أما الباقي فيأتي لاحقاً. الليكود لا يريد حتى الكلام عن هذا الموضوع».

«الضفة الغربية يجب أنْ تكون ضمانة من أجل السلام المقبل. أتمنى في أحد الأيام أنْ يتقدم فلسطينيو الأراضي المحتلة من الاقتراع. سوف نرى لمن يقترعون. لا هم أكان لعرفات أو لغيره. علينا أن نتكلم مع الذي يخرج منتصراً نتيجة الاقتراع، فهو الممثل الشرعي الوحيد».

«إن سياسة الحكومة هي في طريق ضرب كل أمل بالتوصل إلى حل سلمي للقضية الفلسطينية. إن الجهد المُعطى للاستيطان لا يفيد بشيء أمن إسرائيل. إذا كان همّنا تثبيت سيطرتنا على القبائل التي قاتلها في الماضي يوشع فلا نفع من الكلام عن التفاوض. من الأفضل التفكير بإنماء مشترك زراعي وصناعي يستفيد منه الطرفان. أما الحيثيات السياسية لهذا التعايش فيمكننا أنْ نجدها لاحقاً شرط أنْ تكون النوايا حسنة. ولكن أول شيء يجب العمل لمنعه هو صد الأبواب للأبد».

«إن بيغن هو موسوليني، هو الدوتشي الذي كان يصرخ قبل الحرب العالمية: إيطاليا، كورسيكا. إن حزب العمل متأخر جداً بحيث لا يمكنه أنْ يتحرك بشكل فعّال. حين تتكلم بوضوح يسمعونك. ولكن حزبنا يتلعثم ومن الصعب معرفة ما يقول لكثرة غموضه. يجب أن نأخذ قراراً واضحاً ونُكلّم الإسرائيليين بوضوح والقول لهم إلى أين يسير بنا هذا الغول الشره الذي يطالب بأرضه وهذا المجنون الذي يتذرّع بكلام الله وبأرض الميعاد دون الأخذ بعين الاعتبار الحقائق السياسية. بيغن كأمثاله، يستعمل سيكولوجية الجماهير كسلاح. إنه يغيّر الاتجاه الوطني الشرعي الذي كان إبان نشوء الدولة الإسرائيلية نحو القومية، ويمزجها بهواجس اليهود الغربيين القديمة والحرمان الشرقي. ليصبح حين ذلك المزيج متفجراً. ولكي نلغي مفعول القنبلة لا تكفي المواقف الحذرة، بل يلزمنا شجاعة سياسية. علينا أنْ نتكلم بصوت عالٍ وواضح».

«منذ عدة سنوات لم يكن أحد يجرؤ على الكلام عن دولة يهودية فقط. ويُقال بأن اليهودية بحسب بيغن تحل محل الديمقراطية وتلغيها».

أشعر بقليل من الانزعاج. استعمل أنا أحياناً «دولة يهودية». ولكن ليس عن قصد. فالكلمة نفسها لا تحمل المعنى نفسه في فم إسرائيلي أو في فم أجنبي. أعتقد أن إسرائيل هي دولة وأن الناس الذين يعيشون فيها من جهتي الشرخ هم من اليهود دينياً وثقافياً.

«هل للمعارضة أمل في قَلْبِ المعادلة؟

- ليس في القريب العاجل، على الأقل انتخابياً. ولكن منذ حرب لبنان بدأ التيار السلمي يطال الأمة بأسرها ويُقسّمها: اليسار المعتدل، الجيش، رجال الدين، النساء، الشرقيون... إنه واقع جديد. هذا التيار لا يزال غير مُنظّم ولا يزال يُعتبر أقلية. ولكن عدد اللجان والحركات التي تعارض بساطة «طريق بيغن» لها دلالتها.

«في إسرائيل، خاصة يسارياً، لا أحد يناضل خارج إطار الأحزاب السياسية. فهذه المجموعات العفوية تنقصها الوسائل والخبرة. ليس عندهم متفرغين. حتى «السلام الآن» أو حركة الحقوق المدنية لا أجهزة لديهم ولا أحد يفكر بتمويلهم. وبعد فترة المتطوعون يتعبون».

«بالمقابل المجموعات اليمينيّة هي أكثر تنظيماً ودعماً. فرجال الدين المتطرفون يحصلون على مساعدات مالية من الجمعيات اليهوديّة الموجودة في الدياسبورا. مثلاً الغوش إيمونيم لهم بُنية متينة، ويملكون الأموال اللازمة لشراء الأراضي العربية في الضفة الغربية».

«من دون مساندة حزب العمل تظلّ فعاليّة المناضلين السلميين محدودة جداً. إن العماليين هم أكثرية داخل الهستدروت وفي اتحادات الكيبوتز والموشاف. إن حزب العمل يملك وحده القوة لمواجهة بيغن؛ هذا إذا توفرت عنده الشجاعة السياسية...».

في الزاوية التي تربط شارع يهودا ماكابي بشارع وايزمن في تل أبيب يُوجد مطعم ظريف جداً، أمامه ساحة كبيرة. الأكل شرقي. يقدمون لحم الغنم المشوي الطري جداً. نظرات الزبائن تُذكّرك بكتاب مفتوح نصف فتحة ترغب بقراءته حتى الفجر.

في أحد الليالي قبل أنْ أغادر بفترة قصيرة، اجتمعنا في المطعم المذكور حول طاولة كبيرة. كان يوجد أصدقاء قدماء وجدد: فيكتور ودوريت وسيلفيو يوشوا وزوجته وديبورا المترجمة وكاتبان لم أعد أتذكّر اسميهما ودبلوماسية فرنسيّة متخصصة بقضايا الشرق الأوسط. تحدثنا عن «حكمة» اليسار اليائسة.

«إنهم لا يريدون دولة فلسطينية، ويفضلون رمي البطاطا الحارة التي تحرقهم بوجه

حسين.

ـ لا يمكن تدمير إرادة شعب. لقد فات الآوان مع الفلسطينيين. إن مطالبهم الوطنية لن يتراجعوا عنها.

ـ أفضّل دولة فلسطينيّة صغير في الضفة على القنابل التي تنفجر كل يوم في قاعات السينما في تل أبيب.

ـ إن الشرخ الذي تعيشه يبدو أنه بين اليمين واليسار. ولكن هناك خطا ظاهرا وآخر حقيقيا. من يرغب في مفاوضات حقيقية ؟ وبتنازلات مقبولة من الفلسطينيين ؟ فقط عشرة آلاف شخص وثلاثة أو أربعة نواب.

ـ إنّ احتلال الضفة الغربية سيؤدي إلى حرب أهلية مستمرّة. بيغن يرغب في طرد الفلسطينيين من جميع الأراضي وذلك بالضغط عليهم. إذا تحركوا سيضربهم بقوة.

ـ ولكن هذا لا ينفع. فالقنابل ستعود لتطال هذه المرة الأتوبيسات في تل أبيب».

لا يهم من المتحدث. أذكر فقط أسماء أصدقائي الراديكاليين. حتى هنا حول هذه الطاولة ألاحظ بعض الفروقات الطفيفة وبعض المخاوف التي تحوم ولا تجرؤ على ذكر اسمها.

«بيغن أعطى لبنان للأميركيين وسيقبض غالياً ثمن هذه الهديّة الجيو ـ سياسية. إننا ضمانة ضد موسكو...».

ـ وضد الخميني!.

ـ إسرائيل تواجه حربين: حرب ضد العرب وأخرى ضد الشرقيين. الأموال كلها تذهب إلى لبنان والضفة الغربية ولا يبقى شيء لتأمين المدارس والمساكن التي تساعد اليهود الشرقيين في الخروج من القمامة. لكن هؤلاء الأغبياء لا يلاحظون شيئاً لكثرة سحرهم ببيغن.

ـ ألا يوجد غير بيغن. حزب العمل هو ليكود غبي. عليه أنْ يطلب من الأميركيين بصوت عالٍ وقوي، تقليص المساعدات طالما لا يفتش عن السلام بشكل صادق، وطالما لا تُجمّد عملية الاستيطان. إن حزب العمل هو من النوع الذي يقول: نعم ولكن. إنهم أوغاد، خبثاء وجبناء. إنهم يتحمّلون المسؤولية أكثر من غيرهم».

لأن بيغن على الأقل واضح. الأرغون والبيتار التابع لجابوتنسكي لم يخفيا أبداً مزاعمهما. أما الاشتراكية الصهيونية صاحبة الرّسالة الإنسانية الكبرى فقد بدأت تشيخ بشكل سيىء.

«بعض الصحافيين الحذرين «البرجوازيون» هاجموا بشكل مفضوح مبدأ القوة.

العماليون لا يجرؤون».

فيكتور يتكلم بصوته المخنوق بسبب الربو. ولكن إحساسي أن هذا الصوت يُلعلع عالياً إلى درجة يؤلم بها طبلة الأذن.

«لا يجرؤون على إثارة موضوع المصلحة الحياتية لشعبنا. ولكن إذا رفضوا القتال وفضح الخطر القومي فمن يقوم إذن بهذا العمل؟ كيف ستفهم إسرائيل أن هناك سياسة أخرى؟ إنها حلقة مفرغة... إن ديماغوجية الليكود قوية جداً بالنسبة لهؤلاء السياسيين الذين لا يملكون أية إرادة أو شجاعة. فهل يقولون إن بيغن يقدّم هدايا للبرجوازية الصغيرة في الضفة الغربية بينما يرفض أنْ يقدّم حتى الضروري «للسود»؟ أكيد لن يقولوا ذلك. إن هؤلاء البرجوازيين الصغار الذين يشيدون منازلهم في يهودا هم من ناخبيه. وحزب العمل لا يحرّك ساكناً، لا بل يُغازل الحكومة، هذه الحكومة غير الوطنية المجرمة. يجب مهاجمتها وفضحها حيث يجب وبالأسلوب الملائم لا نقدها بشكل مهذّب. بيغن لا يعرف التهذيب، وهو عديم الذّمة بعكس شيمون بيريز».

ينحني فيكتور نحوي.

«كانت غولدا قتلت نفسها لكونها لم تتنبأ وتتهيأ لهذه المغامرة. أكيد أنا منزعج من الهجومات التي تتعرض لها إسرائيل في الخارج. ليس لأن تلك الهجمات هي غير مبرّرة ولكن لأنها غبية. لسنا قديسين ولا شياطين. ليحاكموننا إذن بالقطعة. الأفضل لفرنسا عوض أن تُعاقب إسرائيل لعدوانيتها أنْ تتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية لمساعدتها على صياغة سياسة أقل هذياناً».

قلت إن فيكتور سيجيلمن الذي أهدى إليه هذا الكتاب ليس متديناً متقيداً. إنه يهودي يحب شعبه كثيراً. للتعبير عن خيبته يلجأ إلى كلمات التوراة.

«أنا بحاجة للخروج إلى الشوارع ودق الشوفار والقول للإسرائيليين: أصحوا من نومكم، إنكم تذهبون للهلاك».

الشوفار هو نوع من النفير كان ينفخ فيه كهنة المعبد لتدمير أسوار أريحا. الحاخامات ينفخون بالشوفار للإعلان عن انتهاء الصيام في الغفران وفي أي مناسبة أخرى رسمية».

«ليس لدي شوفار والله أشاح بوجهه عن جنون شعبه».

البطالة في إسرائيل لا تتعدّى ٥٪. الاستهلاك ارتفع حوالى ٧٪ خلال سنتين. يورام أريدور وزير المالية يتمتّع بشعبية كبيرة. في ١٩٨٢ وصل العجز في التجارة الخارجيّة إلى خمسة مليارات دولار؛ نمو الدخل الوطني كان معدم؛ ارتفعت الديون الخارجية إلى

خمسة وعشرين مليار دولار. بالرغم من كل ذلك، فلم يكن هنالك مجال لفرض نوع من التقشّف. فالرأي العام مدين لليكود بالبحبوحة النسبيّة. ولأنهم يتأثرون بلقمة عيشهم فناخبو مناحيم بيغن يعيدون النظر بكل شيء. فالاقتصاد الوطني هو على كف عفريت.

ففي هذا الفصل السياسي وليس العاطفي فمن المفروض أنْ نعطي الكلام إلى رجال يعرفون أصول اللعبة الاقتصادية ويقفون بالتالي على أرجلهم. نسيم غييام أو ديفيد موتشفيتش لا تنقصهما العاطفة ولكنهما يملكان الحس العملي. ما الذي يخفف في المدى المنظور من الغلواء العسكريّة والاستيطانية للأكثرية الحكوميّة؟ ربما موت بيغن أو الأزمة الاقتصادية.

نسيم غييام في المصرف.

«يصل التضخم إلى ١٢٠, ١٣٠٪ في السنة... لا أحد يتأثر. كل شيء في البلد أصبح مزيفاً واصطناعياً. في الحقيقة التضخم لا يتعدّى ٢٠٪ وذلك بفضل نظام من التعويضات يستمر إلى ما لا نهاية. والظاهر أن هذا النظام فعّال جداً».

«تصحح الأسعار وتعدّل كل ثلاثة أشهر. كذلك تعدّل أسعار الالتزامات التي تعطيها الدولة. المعاملات المهمة تجري بالدولار. إذن فوضع الأفراد من الناحية الاقتصادية غير مهدد وكذلك وضع الدولة التي تتلقى المساعدات من الولايات المتحدة ومن الدياسبورا...

ـ هل يمكن أنْ تستمر هذه الوضعية طويلاً؟

ـ لا، إذا إسرائيل لم تنخرط في نمط الحياة العادية لكي تتعلّم قواعد هذه الحياة. اليوم ٢٣٪ من دخلنا القومي مخصص للدفاع. يجب أنْ نتوصل في يوم من الأيام إلى جعل ميزانية دفاعنا لا تتعدّى ١٠٪».

«في الخمسينات شدّدت حكومتنا على الصناعات التي تستوعب كمية كبيرة من اليد العاملة. كانت مرحلة ضرورية بسبب الهجرات الجماعية الكبيرة. منذ عدة سنوات اتجهت الأنظار نحو الانتاج العصري. وكانت نتائج هذا التوجه مثمرة جداً. فصناعاتنا المتطوّرة لها مكانتها في العالم. لا تنقصنا الأدمغة. ففي مجال الالكترونيك وصناعة المعدّات الطبّية نحتل مركزاً مرموقاً. ولكن هذا لا يكفي في إصلاح الخلل الكبير الذي يعاني منه الاقتصاد.

ـ والبورصة؟ هذا الجنون الجماعي الذي يخيف زوّاركم؟

ـ منذ ثلاث سنوات انطلقت حركة تموين المؤسسات الجديدة. ولكنها تحوّلت إلى لعبة مجنونة، نوع من المونوبولي مع الفرق أن الأموال ليست من خشب. تضخّمت هذه

اللعبة لأن الأرباح التي تُجنى من البورصة لا تطالها الضرائب. فالتضخم دفع بالناس إلى اللعب بالبورصة للمحافظة على مُدّخراتها. فالإسرائيلي الذي لا يتعاطى أعمال البورصة يُعتبر غبياً في المحيط الذي يعيش فيه. عادة عندما توظف الناس أموالها، فهذا من علائم الثقة. ولكن في هذه الحالة لا. حُذّرت الناس من مخاطر هذه العمليات ولكن عبثاً.

ـ يقال إن الاقتصاد والخيارات السياسية للفئات الاجتماعية المختلفة يتداخلان بشكل غريب لديكم...

ـ هناك نوع من استبدال فئات الناخبين وهذه عملية لا تُعتبر صحّية إطلاقاً. نظرياً، العمال والجماهير المحرومة من جهة وسكان الكيبوتزات من جهة أخرى، هم من أنصار حزب العمل. التجار ورؤساء المؤسسات والذين يُعتبرون من البورجوازية هم من أنصار اليمين. عملياً القضية مقلوبة، وفي ما عدا سكان الكيبوتزات فإنهم لا يزالوا يحافظون على ميولهم العماليّة».

«المفارقة ليست سوى ظاهريّة. فالبرجوازية الصناعية والمالية هي حديثة العهد في إسرائيل. لقد تمّ دعمها كالكيبوتز من قبل الاشتراكية الديمقراطية خلال مرحلة الازدهار الاقتصادي. فقد حصلت على قروض كبيرة. أما البرجوازية القديمة فهي أيضاً لا يمكن اعتبارها يمينيّة. لا تتنكر لأصولها الصهيونية الغربية. فالكيبوتزات تتعامل مع عالم الأعمال البعيد كل البعد عن ديماغوجيّة الليكود الشعبويّة. هناك حزب ليبرالي في الكنيست من المفترض أنْ يلائم البرجوازية، ولكن بالرغم من كل ذلك فأكثر من نصفها يقترع لصالح حزب العمل».

«أما «السود» فبالعكس، إنهم مأخوذون ببيغن: «منذ ثلاثين سنة لم يهتم بنا الآخرون... إن المستوطنات والأحياء الشرقية الفقيرة تشكل أكثرية اليمين.

ـ وهذا العداء للكيبوتزات هل له ما يبرره اقتصادياً؟ أم أن المسألة هي محض صراع ثقافي؟

ـ الاثنان. إن قوة الكيبوتزات الاقتصادية لها ما يُفسّرها تاريخياً. ظلت الكيبوتزات فترة طويلة معفيّة من دفع الضرائب إلّا في ما يتعلّق بما يوزّعونه على المنتسبين؛ أي كمية لا تُذكر. استطاعوا إذن أنْ يراكموا رأسمالاً جماعياً كبيراً. اليوم لم يعودوا يتمتعون بهذه الامتيازات: لكنهم لا يزالوا، كما يُقال، فخورين بقوتهم التي دفعوا ثمنها غالياً. لا يشتركون كثيراً بالحياة السياسية العادية. الكيبوتز غنيّ وذكيّ... خلاصة القول من الصعب منافسته.

ـ بما أن موقع الليكود هو موقع يميني، فمن المفترض أنْ يؤيد المالكين؛ أليس

كذلك؟

ـ إسرائيل ليست بلداً عادياً. في ما يتعلق بالأرباح والأعمال، كانت الحكومات السابقة تعمل بشكل أفضل. أما في ما يختص بالاقتصاد فالليكود لا يمكن تصنيفه يمينياً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. فديماغوجيته تأخذ بعين الاعتبار أنصاره المتخلفين. كذلك لم يكن حزب العمل في المجال الاقتصادي يسارياً حسب التعريف الأوروبي. فقد كان حزب العمل يقدم مساعدات لأرباب العمل. هذا ما يفسر مرّة أخرى أن رأسماليينا الذين تحدروا من الصهيونية الاشتراكية قلما أُخذوا ببيغن.

ـ منْ الواعد أكثر في مجال الأعمال؟ الحمائم أو الصقور؟

ـ من الخطأ القول عندنا إن سياسة ترتكز على استعمال القوة العسكريّة بشكل مستمر تشجع الأعمال. في حال توصلنا إلى حل مع جيراننا العرب، فسنحتفظ بجيش قوي لا أحد يُشكك بضرورته. ولكن سيصبح اقتصاد البلد أسلم والتوظيفات مضبوطة. الجميع يستفيدون على المدى الطويل ما عدا بعض المضاربين».

«مما لا شك فيه، من جهة أخرى، أن الاستيطان في الضفة الغربية سينتج عنه ازدهار في بعض قطاعات البناء والليكود لا ينسى أنْ يذكّر بذلك. ولكن الضفة تُعتبر مبذّرة للمال. فهي تأكل ما يبقى عن الحرب. وماذا إذن؟ إذا رجع غرب نهر الأردن للعرب وتحسّنت العلاقات ما الذي يمنع من إقامة علاقات عمل مع العرب؟».

«إننا نعيش في الشرق الأوسط، علينا أن لا ننسى ذلك، وليس في اسكندينافيا ولا في أميركا».

ديفيد موتشفيتش اقتصادي كبير. إنه صناعي أكثر منه رجل أعمال. ديفيد يهودي غربي بشكل ملحوظ. والد ديفيد بدأ يصنع الحلوى بعد عام ١٩٢٠. وبعد فترة وجيزة أصبح لديه مصنع للشوكولا في تل أبيب ومصنع للحلويات في الناصرة. فالملبّس في إسرائيل وجميع أنواع الحلويات هي موتشفيتش.

ديفيد الذي لم يصل بعد إلى الأربعين من العمر وسّع أعمال والده في عدّة اتجاهات. فهو عضو في مجموعة دانوث التي، كما فهمت، هي شركة تضم عدة بنوك متصلة بفورست ناسيونال أميركان. إنه من أرباب العمل الديناميكيين. فهو يشبه تماماً صورة الرأسمالي ذي التقاليد الصهيونية كما رسمها نسيم غييام. ولكن ما يميّز صاحبنا أنه أعنف من غيره.

«في يوم من الأيام سينهار كل شيء. نبيع مستقبلنا. ازدهار؟ ليس هنالك من

ازدهار. فقط بعض الطائشين الذين يحققون أرباحاً من لا شيء من دون أنْ يساهم عملهم هذا في التطور الصناعي. تجارتنا الخارجية وضعها سيىء. وخلال هذه الفترة...

ـ ولكن من أين هذه الأموال التي تربحها الناس بالبورصة؟ إنها تأتي من مكان ما؟

ـ نعم من التضخم. إن بلداً بصحة جيدة هو بلد غني ومواطنيه ليسوا أغنياء. هنا الوضع مختلف. إذا لم نغيّر سياستنا جذرياً وبسرعة، فالبطالة والأزمة ستقضيان علينا. هناك إسرائيليون يذهبون للعيش في الخارج. لا أحد يأتي من الدياسبورا للإقامة عندنا».

«علينا أنْ نبدّل، أن نعود إلى السياسة الاقتصادية السابقة. علينا أنْ نستعمل الدخل الوطني والمساعدات الخارجية في توظيفات مثمرة وليس من أجل الاستيطان، ولكن لإعمار البلد بأسره. الليكود يقيم قاعدة اقتصادية قوية في الضفة الغربيّة التي سنخرج منها غداً. إنه رهان سياسي، لا بل صوفي، يجب أن لا تقدم عليه حكومة مسؤولة».

«التوظيفات الصناعيّة الحقيقيّة ضعيفة جداً. والناس البسطاء يفرحون بكمية الأموال التي بحوزتهم، وباللعب بالبورصة وبكشف حساباتهم بالبنك لشراء سيارات جديدة وفيديو كاسيت. سوف يكونون أول المتضررين من الركود الاقتصادي. ما أنْ يقطع الأميركيون نصف مساعداتهم، لا بل رُبعها حتى تقع الواقعة».

يا لشجاعة بيغن.

«وبالرغم من ذلك لدينا صناعة عصريّة ممتازة. فبدل أنْ تُراهن الحكومة على هذه الصناعة، أخذت توزع «النِعم» المؤقتة على ناخبيها. لولا ذلك، لكانت ديماغوجيتها كسرت أنفها. نعم إسرائيل تنفق دخلها مُسبقاً. إنها أعجوبة، ورغم الضجيج القومي، فإن الأكثر حرماناً لا يدركون بأنهم يُساقون سوقاً. لا وجود للبؤس الحقيقي عندنا، ولكن الهوّة بين الأثرياء والفقراء تتعمّق».

«لقد آن الآوان لأن نغيّر الرأس. وهذا أمر معقول شرط أنْ تهتم الحكومة أكثر بالمصلحة الوطنية وأن تُدغدغ أقل جماهير ناخبيها. داخل هذا الضباب المصطنع الذي يفبركه الليكود، كيف سيدرك رجل الشارع أنه يجب تصحيح رمايته؟ ولكن ما إن نعرف ولو لماماً أسس اقتصادنا حتى نتساءل بقلق إذا كان لدى الأكثرية أدنى اهتمام بصحة إسرائيل. وأعتقد أنها لا تهتم. هناك مشاغل أكثر تُشغلها. بيغن قرر متابعة المزايدة إلى أنْ تصل سياسته العربية إلى نقطة اللارجوع. سوف نرى ماذا سيجري. الله هو المعين».

«ليس من السهل المُطالبة بالعودة إلى سياسة التقشّف التي انتهينا منها للتو. ولكن من الصعب كذلك بالنسبة لشبابنا وبعد ثلاث سنوات من الخدمة العسكرية أنْ يجدوا

أنفسهم عاطلين عن العمل. فبيغن بهوسه المتشدد حول فكرة واحدة يهيىء فشل مشروعه السياسي: في حال حصول أزمة، ولا بدّ أنها ستحصل، وستطال البطالة أولاً عرب الضفة الغربية ثم عرب إسرائيل. إذا كان هؤلاء وأولئك لم يحرّكوا ساكناً حتى الآن فالفضل يُعود للرواتب المحترمة التي تُدفع لهم. ففي حال عدم الحصول على تلك الرواتب سوف ترى. لن تعود الحياة تُحتمل حول المدن اليهوديّة الجديدة، ومن بعدها الخليل والقدس. . .».

«ومباشرة بعد ذلك، ستطال الأزمة العرب واليهود الشرقيين غير المهزة. فبيغن يستعمل هؤلاء بشكل مشين، كجماهير ناخبين وسوف لن يغفروا له خاصة وأن حقدهم متفجّر».

«نعم، فالليكود هو ما هو عليه، ومن الغباء أن نندهش. ولكن المثير أن المعارضة التي تعرف بماذا تتمسك، والتي لديها التجربة في إدارة الأعمال، لا تملك الجرأة لقول الحقيقة أمام الناس. فعلى الصعيد الاقتصادي كما في باقي المجالات، تكبّل المعارضة بالديماغوجية البيغينية. صحيح أن شيمون بيريز لا يملك شعبيّة واسعة. ومن هنا، وبغياب أي أمل بالانتصار، ازدواجية حزب العمل الذي يحرم إسرائيل من قوة سياسيّة موازية لليكود. ولكن الخوف لا يشكل عذراً. فكل حزب لديه قادته الذين يستحقهم».

طرحت على ديفيد موتشفيتش السؤال نفسه الذي طرحته على نسيم غييام: «ما هو الأنسب للأعمال؟ التفاوض من أجل السلام أو ضم الأراضي؟».

يُصدم قليلاً الصناعي الكبير والمتموّل الواقعي وينظر إليّ نظرة ازدراء.

«لم أطرح على نفسي السؤال بهذا الشكل. يبدو لي في الوسط الذي أعمل فيه، أن النزعة الغالبة هي إلى جانب التفاوض. ولكن كما تعلمون فإن هاجس الناس هو الربح المباشر. وحتى على المدى الطويل. . .».

«إن مؤسساتنا موجودة في إسرائيل. إننا إسرائيليون. كيف يمكن فصل مستقبلنا عن مستقبل الوطن وعن مستقبل هويته؟ مع العلم أن هذه الهوية تُبنى باستمرار على قواعد هي أخلاقية بقدر ما هي سياسية. أتصور من الصعب جداً تحقيق أرباح، كما تقول، وتطوير نشاطات مؤسساتنا في بلد يُسخّر كل قواه لمعالجة وضع مليوني عربي في حالة عصيان مستمر، مع ما يتطلبه ذلك من سيطرة عسكريّة مستمرة. هذا الجو ليس ملائماً لازدهار الأعمال.

ـ تكلمت عن ضغوطات اقتصادية محتملة من قبل الأميركيين لإجبار بيغن على تعديل سياسته. حتى الآن الضغط ليس فعالاً. بإعلانه عن زيادة المستوطنات اليهودية في الضفة بيغن يحتقر الولايات المتحدة. . .

ـ لأن الأميركيين لا يزالوا بحاجة إلينا، لوضع حد لسوريا ومن خلالها للروس. ولكن من الممكن تصور سيناريو: إن سوريا لم تعد تشكل خطراً على الوجود الأميركي في هذه المنطقة من العالم. تصور مثلاً عدا الأقلية المؤيدة للسوفيات التي تسيطر على دمشق قد حلّ محلها السنّة المعتدلون الذين يشكلون ٦٠٪ من عدد السكان. يقوم بعد ذلك تحالف قوامه سوريا والأردن والعربية السعودية تدعمه واشنطن. غرض هذا التحالف هو مجابهة إيران. وفصائل الأخوان المسلمين المختلفة. في هذه الحالة يصبح عناد الإسرائيليين معرقلاً، حاجزاً بوجه السياسة الأميركية. سنرى ما اذا كان رونالد ريغان سيظلُ مُتساهلاً مع بيغن».

«تقدم لنا الولايات المتحدة ملياري دولار في السنة. كمية ضخمة بالنسبة إلينا. أما بالنسبة لأميركا فهذا الرقم هو أقل كلفة اقتصادياً وخاصة انتخابياً من إرسال المارينز لكي تكون شرطة في الشرق الأوسط. إن أصدقاءنا الأميركيين يُطبقون سياسة الممكن. حين يصبح الممكن غير ممكن أو إلى حين لا يعود ينفع. . .».

١١

رجال الكتاب

بيت هلال وبيت شما

إذا ما قورن الغوش بناطوري كرتا[1]، لبدوا متشككين مسالمين. إن جماعة ناطوري كرتا (نواطير القلعة) هم هؤلاء المؤمنون الذين يرتدون الدثائر الفضفاضة والذين يثيرون حشريّة السواح الذين يمرّون في حي ميا شعريم في القدس. الناطوري الذين يعيشون وكأنهم في «شتاتيتل» هم من اليهود الغربيين بامتياز الذين لم يتحمّلوا أنوار بداية هذا القرن. لذلك نراهم لجأوا إلى خفايا التلمود العميقة التي لا صلة لها بالحياة. فهم الذين خلال نهار السبت يُهاجمون بالحجارة السيارات التي تخرق القدسيات ولا يوفرون حتى سيارات الإسعاف. ويصرون على الكلام باليدية ويرفضون إقامة خدمتهم العسكريّة ويحتقرون العمل المنتج ويرفضون الاعتراف بدولة إسرائيل لأن المسيح لم يأتِ بعد.

لم أسعَ إلى لقاء ناطوري كرتا، فلا محل لهم في الشرخ وبالتالي ليس عندهم شيء يقولونه. ولكن عزلتهم الرائعة تؤدي بهم أحياناً إلى الاحتكاك بالحوادث الأرضية: منذ عدة أسابيع قرأنا في صحيفة الموند بياناً غريباً بلبل بعض الناس غير المطلعين. كان إعلاناً مدفوعاً من فرع الناطوري الفرنسي. يتكلم الإعلان عن النتائج السلبية لسياسة الليكود تجاه العرب، وبالتالي الاستيطان الكافر الذي تقوم به في الأرض المقدسة جماعة الحكومة المجدّفة ليس سوى قرصنة وثنية لأن من الناحية اللاهوتية لم يحن أوان هذا الاستيطان بعد. إن إله ميا شعريم ـ كإله أوتو فلينجر ـ يبغض أعمالاً كهذه. إن دم الشهداء الحاليين وفي المستقبل الذي أهرق عبثاً سيقع على الذين حرّضوا على الجريمة. الأخطر أنْ يهوه الذي هاله هذا العمل لا يصب جام غضبه فقط على الهراطقة بل سيطال غضبه

اليهود الصالحين. ولكن بفضل الإعلان فالله ـ الذي يقرأ المونـد ـ سيوفر رعاياه الصالحين.

ليس أكيداً أن ناطوري كرتا في القدس هم أكثر تطوراً من ناطوري باريس.

آموس أوز قام بزيارة للمدرسة الصهيونية حيث أمضى طفولته. لقد أصبحت مدرسة دينية تابعة للناطوري وتموّل من الدولة.

«ما عدا التلمود هل تعلّمون التلامذة الرياضيات والعلوم الطبيعية؟».

ـ لا.

ـ العمل اليدوي لكي يختار الأولاد فيما بعد مهنة؟».

يشير المعلم من النافذة المفتوحة إلى عربي يصلح سطحاً في الجهة المقابلة من الشارع.

«وهذا لِمَ خُلق؟ الله أعطاه اسم اسماعيل الذي يعني «الذي يسمع»، إذن يخضع للأوامر. إن عمل الصالحين يقوم به سواهم كمثل هذا الرجل».

ـ والتاريخ، ألا تعلّمون التاريخ؟

ـ أتقانا الله هذا الشر. على الشعب اليهودي أن يكتفي بما عنده. قلما يهمنا ماذا سيحصل عند الغرباء. علينا أنْ لا نختلط بهم.

ـ احتفلت مدرستكم بعيد الاستقلال؟»

نظر المعلم إلى آموس نظرة شفقة.

«ماذا؟ هل جاء المسيح؟ لم أسمع بمجيئه».

بدأ الغضب يستبد بالمعلم.

«البلد حيث يصبح اليهودي كالغريب، فهذا قمة الانحطاط. عن أي استقلال تتكلم؟ عن استقلال هؤلاء الرجال الذين يسعون إلى التشبه بالسعادين؟».

لقد تظاهر الناطوري مؤخراً في القدس. كانوا يحملون يافطات كُتب عليها: «لا تشتركوا في الانتخابات» أو «الموت لعلماء الآثار الهتلريين». المقصود باليافطة الأخيرة الحفريات التي تجري في المدينة القديمة بالقرب من حائط المبكى. ويذكر اموس أوز أيضاً أن الطلاب المتعصبين حالياً في إسرائيل هم أكثر من الطلاب في أوروبا الوسطى في القرن التاسع عشر.

ويضيف المعلم مفكراً:

«يقال بأن هناك ذبائح بشريّة في الكيبوتزات...»

ما رأيكم بالغوش إيمونيم؟

ـ وثنيون. يتصرفون وكأن المسيح هو لهم وحدهم. يثيرون غضب الغرباء من أجل لا شيء. لكثرة ما يستعجلون مجيء المسيح سيعجّلون بمجيء هتلر. خير لنا أكل اللحوم الحرام في الكيبوتز من الكلام مع هؤلاء الكلاب».

إنه حكم قاس على الغوش. الشرخ يمكن أن يأخذ أشكالاً غريبة.

من المؤسف حقاً أننا لم نتحدث طويلاً إلى الناطوري كرتا أعداء الغوش إيمونيم بالرغم من انتماء الاثنين إلى العائلة نفسها: عائلة اليهود الذين يسعون إلى تطبيق التوراة حرفياً في ما يتعلق بالأحداث المعاصرة.

الناطوري ليسوا خطرين إلى هذه الدرجة. إنهم علماء جل ما يعملونه هو الاعتراض الذي يثير الضحك. يعيشون وراء أسرار حيّهم في القدس كالبقايا الأتنولوجية في متحف حيّ لكي لا نقول في حديقة حيوانات. إن تعلّقهم بالكتاب يفصلهم عن العالم.

الغوش يشبهون الناطوري ويختلفون عنهم. فهم يسعون إلى فرض قراءتهم على الخارج من دون أي تأويل أو تعديل. يطبقونها كما تطبق الوصفة المطبخيّة، يسيّسون بها الأغراب ويُلوّحون بها ضد الأعداء، ويصقلون بها أسلحتهم. ما يقوم به الغوش إيمونيم حتى النهاية غيرهم يطبقه إمّا قليلاً أو كثيراً. التوراة تئنّ بثقلها في عواطف إسرائيل، تشد عزيمة المحاربين والمستوطنين. أكانوا صقوراً أو حمائم، يمكننا القول إن النزاع الأخلاقي الذي يقسّم الأمة هو تعبير عن طريقتين في تطبيق التوراة في الحياة اليومية.

هذه الفرضية التي ربما ستزعج بعض الإسرائيليين تتطلب تعليقاً. يمكن الاعتبار أن ثلث السكان متدينون ويتقيدون بتعاليم الشريعة، بينما النصف يحترم نوعاً ما التقاليد كالأعياد والفروض غير الضاغطة. هذا صحيح. ولكن يكفي أنْ تتوغل نوعاً ما في ثنايا الأمور حتى تدرك إلى أي حد يتأثر المواطنون بالتوراة، إن لم نقل بالتلمود؛ بما في ذلك المناضلون العلمانيون. أعتقد أن من السهل فهم ذلك: ظل اليهود هكذا عبر العصور لأنهم تمسّكوا بالكتاب. حين اكتشف سكان الغيتو الحداثة الغربية في أواخر القرن الماضي وجدوا عالماً يتمسك هو أيضاً بالعهد القديم من خلال العهد الجديد. من يجرؤ الادعاء أن أكثر الروّاد اشتراكية لم يكن، حتى في طريقة شتمه فنينجر، مسكوناً بالتوراة؟ وبأن فرويد وماركس وأينشتاين كانوا غرباء عن التلمود؟ يجب معالجة هذه النقطة المهمة.

لا يوجد في دبابة الميركافا شيء ديني؛ اسمها مشتق من عربة النبي النارية. يساراً ويميناً وفي الوسط الحياة اليومية للإسرائيليين والقصص الطريفة التي يروونها بعضهم لبعض، وأحلامهم والمصطلحات التي يستعملونها وعلاقاتهم، كل ذلك يظل مطبوعاً

بالتوراة. فالتوراة هي كتاب التاريخ، تاريخهم الحميم كما يُذكّر بذلك بيار فيدال ناكي.

شلومو بن آمي وشالوم كوهن لم يكونا مخطئين حين قالا بأن تقاليد اليهود الغربيين هي أقل فجاجة من تقاليد اليهود الشرقيين لكون اليهود الغربيون لم يُعيروا فنينجر اهتماماً كبيراً مما سمح لهم باكتشاف النشاط السياسي بالرجوع إلى الكتاب.

بإمكاننا أن نتسلّى بتعداد الشواهد والمعاني التوراتية التي تستعملها إسرائيل وتُكثر من استعمالها منذ تأسيس الدولة. ستكون اللائحة طويلة. شولاميت آلوني طالما قال إن استعمال عبارة «الدولة اليهودية» ليس عن عبث.

إن الأكثرية الحاكمة لا تتورع عن تبرير سياستها الأمبريالية باللجوء إلى الكتاب. وهذا الأمر ليس بحاجة إلى برهان.

قلنا إن حاخام إسرائيل الغربي السابق شلومو غورين قد أعلن أن غزو لبنان هو عمل مشروع ومقدس. ولا أزال أذكر خلال حرب الأيام الستة أن غورين الذي كان حاخاماً للتساحل قرع البوق تحيّة للاستيلاء على حائط المبكى. بيغن اليهودي الغربي لا ينفك يمزج بين هموم الأمن القومي والحقوق التاريخية للشعب المختار على أرض الميعاد حيث أسماء الأماكن تسكن صفحات التوراة. هل تفوه بكلمة واحدةلوضع حد للغوش أو للحاخام لوفينجر؟ إن الآيات التي تتحدث عن مجزرة العمماليق وطرد إسماعيل إلى الصحراء لا يمكن اعتبارها من التوراة في نهاية القرن العشرين.

يكفي الكلام عن هذا الموضوع. أريد فقط التذكير أنه انطلاقاً من الغوش إيمونيم و«السلام الآن» مروراً بالليكود وحزب العمل والكيبوتز وجادة ديزانغوف وفيكتور سيجيلمن ولاعبة الناي وإيلانا وأصدقائها وصولا.. لجميع الذين التقينا بهم التوراة، موجودة. نُريد استرجاع الخليل؟ نريد مدّ يدنا إلى الفلسطينيين؟ نريد أنْ نحب، أنْ نكره، أن نضحك أو نبكي؟ التوراة هنا، في المقام الأول، وإلّا لما كنت خصصتُ لهذه الصفحات الأخيرة لقاءاتي برجال الكتاب.

يجب أنْ لا نتراجع أمام بعض الأفكار العامة المعروفة: التوراة والنصوص العديدة التي تكمله كالمغزال الملفوف بشكل لولبي هي كالجبل.

مهما بدا أننا غريبون عن الله، يكفي أن تُمرّر أصبعك بين صفحتين من صفحات الكتاب حتى تشعر أن شيئاً قد أمتعك كلياً. عديدون هم الذين استولى عليهم الكتاب. أنا شخصياً الجاهل، شعرت بعدما لامست هذا الصرح أنني ناطوري كرتا أريد أن أنفرد في ظل مدرسة برفقة التلمود... ليست المسألة مسألة إيمان ولا وحي على طريق

دمشق: إنه غنى ودقة هذا الصرح، التي تلحقك بزوغان المعرفة.

علينا الانتباه. الكتب المقدسة مشبّعة بنفحة إنسانية كبيرة ممّا يجعل من الصعب بلعها كما الثرثرة. ليستْ القضية قضية فن للفن. عند الانتهاء من قراءة القرآن تجد نفسك أمام هارون الرشيد أو الخميني. التوراة شبيه بالقرآن. الأمر يتعلق بطريقة القراءة. فالكتابات المقدّسة تحتوي على جملة من القواعد التي كانت في أساس المغامرة الأخلاقية الغربيّة. وتحتوي كذلك على حوادث تقشعرّ لفظاعتها الأبدان.

الغوش إيمونيم كغيرهم يتظاهرون بنسيان أن يوميات الحروب والقواعد الاجتماعية والأنظمة القانونية الواردة في التوراة قد صيغت في فجر الحضارة على يدِ ومن أجل رعاة لم تكن دماثة خلقهم هي ما يميّزهم. فالشرخ ليس في التوراة، لا بل في القراءتين المتعارضتين لهذا الصرح: قراءة تستعمل الكتاب كوسيلة وأخرى كغاية.

في سفر التكوين أو في الكتب التاريخية أو في يوشع، فلا تلاحظ المذابح الوحشيّة حيث النساء والأطفال يُقتلون بحدّ السيف، والنهب، والشعوب التي تذبح، والعشب الذي ينبت على أنقاض المدن التي حاربت إسرائيل.

نرى من هنا ميريام لفنجر يستنشق رائحة الحريق بلذّة مزدوجة. إذا كان الناس في Aï قد نجحوا في حشر الإسرائيليين، فلم يقدموا لهم هدايا. لو حاصر العرب تل أبيب في الغفران لما كانوا لطفاء. السؤال ليس هنا: حين نسمع الغوش إيمونيم يستشهدون بكتاب يوشع في تحديد مواقفهم نحو العرب، تقشعرّ أبداننا. صحيح أن أحداً لم ينفّذ أقوال يوشع بحرفيتها. بيروت لم تحترق إلّا قليلاً وسكانها لم يعاملوا بحدّ السيف. على كل حال، الأمثال التوراتية التي تُلهم رواد الطليعة الإسرائيلية المتشددة لا تُطمئن أبداً. لقد تغيرت الأيام منذ يوشع.

تغيرت كذلك الأيام منذ أنْ وُضعت القواعد الأولية للأخلاق وللقانون التوراتي. هذه القواعد لم تكن هي أيضاً متسامحة. المرأة الزانية كانت تُرجم والعينان تُقلع من أجل عين والوجه يكسر من أجل سن. المتطرفون لا يبغون فعلاً إعادة هذه الممارسات إلى إسرائيل، ولكن في ما يخص العرب لا شيء يمنعهم من ذلك.

لنقرأ التوراة بعين مختلفة الآن مع الأخذ بالحسبان تاريخ الأيام المجيدة والدعوة للأمل والجهد المضني لرفع الإنسان فوق مستوى البربريّة. كل شيء تغيّر. إن الدعوة هذه لم يمر الوقت عليها شرط أنْ ننظفها من خشونة العصر البرونزي. إنها دعوة أبديّة ولن تشيخ. إن شجاعة لجنة كاهان السياسية وضرورة التسامح تجاه الآخر والمحبة والعقل الذي لا يتخلّى عن التفكير، كل ذلك هو أيضاً التوراة. التوراة ضخمة لدرجة أنها تحتوي

كل شيء؛ الناطوري كرتا وأوريال سيمون.

هلال أو هلال الكبير أو هلال القديم بحسب المفسرين كان زمن يسوع عالماً محترماً من علماء القانون. كان متسامحاً وذا قلب طيب. وترشح من معاني كلماته أصداء الأناجيل الآتية.

جاء أحد الوثنيين إلى شما، عالم آخر معروف في القدس بتشدده.

«أريد أنْ أصبح يهودياً قال الوثني. ولكن يجب أنْ تعلّمني التعاليم كلها وأنا واقف على رجل واحدة...»

طرد شما هذا الوقح بضربة على قفاه. ذهب الوثني عند هلال الذي قال له بنعومة:

«لا تفعل لغيرك ما لا تريد أنْ يفعله بك. هذه هي التوراة. أما الباقي فكله اجتهاد. إذهب وتعلّم».

روى لي فيكتور سيجيلمن قصصاً أخرى جميلة عن هلال القديم. وكعادته كان منفعلاً أثناء الكلام. كان يفكر بجدوده، بالعلماء الملتحين والطيبين الذين كانوا يدرسون التوراة على ضوء الشموع في الشتاتيتل في غاليسيا (Galicie). فيكتور بعيد كل البعد عن الذين ولكنه يرفض تماماً زوال هذه التقاليد الرائعة تحت الضربات التي تتلقاها اليوم.

«يوجد منزلان داخل الكنيس، منزل هلال ومنزل شما. شما يعلم أنه يجب تطبيق القواعد حرفياً. هلال، عكس ذلك، يريد أنْ يفهم. إن محبة الله والناس هي الأساس وليس النصوص».

ويضيف فيكتور:

«لقد وضع الحاخامات شيئاً فشيئاً هيكلاً من النصوص والقواعد كالدرع لمنع يهود الدياسبورا من الانخراط. إن حركة الحاسيديم بقيادة بعل شم توف قطعت كلياً مع هذه القواعد الصارمة. الحاسيديم يريدون أنْ يخدموا الله بالفرح ولا يرون من القانون إلاّ جوهره وليس حرفيته. أعتقد أن الحاسيديم هم تجسيد مسبق لليهودية».

«إن أنصار السلام من رجال الدين، يقول فيكتور يستشهدون بهلال. الحاخام غورين وسواه يعتبرون أن الاستيلاء على الأرض هو أهم من كل شيء. اليهود الذين ينتمون إلى بيت هلال يعتقدون بأنه إذا كنا نريد أنْ نعيش على أرضنا علينا أنْ لا نستولي عليها كلها بقوة السلاح. بحسب التعاليم ليس من مركزية أساسها الأرض، الله وحده هو المركز إذا سألت هلال الحكيم ما هي التعاليم الأساسية في التوراة؟ هل هي إسرائيل الكبرى أم دولة إسرائيل؟ فيجيبك: «لا تفعل لغيرك ما لا تريد أنْ يفعله بك». بهذا

المعنى فالتوراة هي كونيّة وكل ما يستأثر بالله هو يهودي غير صالح».

أنتظر أفيزير رافيتسكي، أستاذ الفلسفة اليهودية في جامعة القدس. رافيتسكي هو مناضل في الحركة الدينيّة «أوزنا شالوم» الشجاعة والسلام. كنت أتصوره ملتحياً يرتدي ثياباً سوداء يشبه تسفانيا دروري، وإذا به شاب مثقف ورياضي.

«حين تعود إلى منزلك بعد أن استقرّ فيه سواك لفترة طويلة، فلا مهرب من وجود بعض المشاكل... خاصة إن التطابق بين الدولة الإسرائيلية الحديثة وأرض الميعاد لا يزال ملتبساً. فيهودا وبشكل أقل السامرة هما جزء من حلم العودة التاريخية. ولكن تل أبيب؟ حيفا؟ كان يقيم في هذه الأماكن الفلسطينيون التي يشتق منها اسم فلسطين».

«أكانت الهوية الوطنية الفلسطينية في أساس ردّة الفعل على الصهيونية أم لا؟! فالمهم أنها موجودة. لا يمكننا إغفال الوقائع بالركون للمشاعر، مشاعرنا».

«لنتكلم قليلاً عن هذه المشاعر. فهي أيضاً حقيقية. إن شرعيّة الدولتين: الإسرائيلية والفلسطينية ليست متوازية. فجميع الصلوات والأشعار اليهودية تتكلم عن أرض الميعاد. إنها من صميم وعينا منذ ثلاثين قرناً. يهودا هي مكّة بالنسبة إلينا. إن رغبة العرب ربما تفوق رغبتنا ولكن ثقافتنا القديمة تلعب دورها بشكل أساسي. إن هذه الثقافة هي معطى موضوعي لا يمكن إغفاله. نتوقف هنا ونطرد العرب ونجبرهم على تحمّل شرعية رغبتنا بالقوة؟ هل لأن رغبتهم جديدة، فهي إذن ذات نوعيّة رديئة؟ هذا ليس حلاً».

«يوجد بعض الصهاينة الإيجابيون وآخرون أقل إيجابية. إن الذي ذهب إلى إسرائيل لكي يهرب من العداء للسامية أكثر من تمسكه بكلام الله، فكيف يمكنني أن أتعرّف على حقوقه؟ فالمشاعر متداخلة أكثر مما نتصور. إذن من العدل تقسيم الأرض بين هاتين الرغبتين».

هذه عينة من التفكير التلمودي المنجلي بالجو الجامعي.

«في حال عدم القبول بتسوية، فلا مهرب من الحرب وعلينا أنْ نستعد لهرق الدماء إلى ما لا نهاية. فقداسة الحياة لا تقلّ أهمية عن قداسة الأرض. يوجد إذن تناقضات في التوراة؟ ظاهرياً نعم، لأن قراءة وفهم التوراة مفتوحة على كل الاحتمالات: فالتوراة ليس مرجعاً في علم الميكانيك التطبيقي. فهو غير محدود، لا ينضب».

إذا أخذت برأي افيزير رافيتسكي، فالغوش إيمونيم يقرأون التوراة بشكل انتقائي، بالفعل، إن إله إسرائيل لا يُشيح بنظره عن الأغراب وحتى عن أعداء شعبه.

«في سفر التكوين وعد يهوه إبراهيم ببلاد السموريين. لكن العموريين استفادوا من تأخير أربعة قرون، لأن «خطيئتهم لم تبلغ ذروتها». كما قال الرب. لماذا اليوم نصرّ على الاستيلاء على أرض الفلسطينيين من دون أي تأجيل؟ خطيئتهم لم تبلغ ذروتها. إنها ولا شك عرضيّة أكثر من خطيئة العموريين الوثنيين؛ وكذلك من المسيحيين الكفار. يجب أنْ لا ننسى أن العرب هم مسلمون موحدون. يمكننا أنْ ننتظر من هنا. . .».

قبل مقابلتي أفيزير تصفحت التوراة. وقعت في الفصل الرابع والثلاثين من سفر التكوين على مقطع كأنه يعالج أمور الحاضر.

لكي ينتقم من اغتصاب دينا، دخل أولاد يعقوب الاثنان، ليفي وسيميون إلى مدينة سالم «المسالمة». قضوا على جميع الذكور داخل المدينة ونهبوها وأخذوا النساء والأولاد كعبيد. لكي يشتم أولاده، وجد يعقوب كلمات تتوافق مع مواقف «السلام الآن»: «لقد جعلتموني مكروهاً من الأهالي، من الكنعانيين وPérizzien. ليس لدي سوى عدد قليل من الرجال وسيجتمعون ضدي ويقضون علي وعلى بيتي» يعقوب كان أكثر واقعية من الحاخام لوفينجروزوجته ميريام.

ويضيف أفيزير رافيتسكي وهو يقارن بين الحرب والسلم:

«في التوراة نوع من التوازن بين الحياة والدم والأرض. النبي داوود نفسه لم يبنِ هيكل يهوه لأنه حارب كثيراً: «لأنك قتلت كثيراً لن تستطيع تشييد بيتي». وبالرغم من ذلك، فقد جمع داوود أرض إسرائيل بحسب ما جاء في الوصايا. لم يرتكب خطيئة. ولكنه أراق الدم، فهو ليس طاهراً. فسليمان بعكسه لم يحارب بحدّ السيف. ولكي ينال السلام تنازل عن عشرين مدينة إسرائيلية إلى ملك أجنبي. سليمان طاهر، سيشيد الهيكل».

الأمثلة التي تُشير على الأقل لنجاسة الحرب إن لم نقل الكفر، لا تعدّ ولا تحصى. لبناء معبد يمنع استعمال النصل الذي يُستخدم في الحرب. لأن المعبد مقدس بينما السيف مدنّس. المعبد يساهم في إطالة الحياة الإنسانيّة وتطهيرها، والسيف المحدد ينتزعها. إذا كنت مُتديناً، فما العمل عندما تحاول حكومتك السياسية أن تُنافس الأنبياء؟ قيل إن كل يهودي هو نبي وإن النبي مؤهل قانونياً لينقذ الملك».

«الاحتفاظ أو التنازل عن الأرض لا علاقة للدين بهما. إن لجوء الصقور إلى الكتب المقدّسة ما هو إلّا اعوجاج في ما يتعلق بهذا الموضوع. فالأخلاق وكرامة الحياة هما أهم من الأرض بكثير. إذا سيطرت على الآخر برغم إرادته فهل تظل كرامته موجودة؟ هذا لا يعني أن جميع الانتقادات الموجهة ضد إسرائيل هي انتقادات مبرّرة ونزيهة. نُظّمت

مظاهرة دينية بعد صبرا وشاتيلا. بالرغم من كل ما يقال، فسيطرتنا تظل أرحم من سيطرة الفرنسيين مثلاً على الجزائر. وغالباً ما يتناسى الناس جرائم العرب ضد اليهود وضد أنفسهم. يقال بأن الأجانب ينظرون إلى اليهودي كما ينظر بعض الرجال إلى المرأة: إما قديسة أو عاهرة؛ لا مجال للحل الوسط».

«من الناحية الميتافيزيقية، أرض الميعاد هي إسرائيل. أما من الناحية التاريخية، فأرض الميعاد هي ضميرنا. فهل هذا يُبرّر سيطرتنا على كل شيء وبسرعة؟ لا يوجد نصّ يبرّر ذلك. ليست المرة الأولى التي تعرف فيها إسرائيل الخطأ. الأرض هي هدف من دون شك ولكن ليست الهدف الوحيد. ديانتي تمنعني من أن أحور كل شيء في نقطة واحدة. من الأفضل أن ننتظر. علينا أن نتجنّب الحروب المستمرة التي تنذر بالقتل والموت».

ما مدى تأثير الحركات الدينية التي تنادي بالسلام والتسوية؟

ـ إن المتدينين الغوغائيين الذين يظهرون على التليفزيون هم إجمالاً من الصقور. . ولكن الأكثرية الحاكمة تنظر نظرة ريبة إلى لجوء التيار القوي إلى اعتبار التوراة شاهداً على تصرفاته. شلومو غورين الذي لا يزال كبير حاخامات إسرائيل لا يريد أنْ يتنازل عن شبر واحد من الأرض. أو فادياح يوسف زميله الشرقي هو من أنصار التسوية، كحاخام تل أبيب الشرقي. أنت تعلم أن المهاجرين الشرقيين هم قوميون متعصبون، لأنهم قلّما يتقيّدون بالتعاليم والقواعد الدينية، فهم متدينون بالتقاليد؛ وهذا ما يدفعهم إلى المزايدة. أما الحاخامات الشرقيون، فهم أقل تعصباً من زملائهم الغربيين. إن هؤلاء يعتبرون ضمانة كبيرة لعملنا. وهذا يعتبر وضعاً جديداً لا سابق له».

في كانون الثاني الماضي، عُقد الاجتماع الأول العلني لحركة «دروب السلام» في القاعة الواسعة في بيت أغرون في القدس؛ ظل ألفا شخص خارج القاعة لازدحام المكان. كان بين الحضور وعلى المنصة ممثلون معروفون للمدارس الدينية العسكرية التي تعتبر مبدئياً أوكاراً للصقور.

«لسنا هامشيين، قال الخطباء. إننا نمثل الخط التقليدي للصهيونية الدينية. الغوش إيمونيم يراهنون على وحدة الأرض. أما نحن فنراهن على نزاهة الأخلاق اليهودية».

يهودا اميتال رئيس المدرسة الدينية العسكرية في غوش أتزيون في الأراضي المحتلة قرر النضال ضد التيار القومي «الذي يستند زوراً على التوراة. . ومما لا شك فيه أن هذه المواقف تشكل ضمانة قوية للمتدينين وخاصة للشباب الذين لا يميزون بين التطرف واليهودية.

«إن مجموعة أوز في شالوم، يضيف رافيتسكي، موجودة منذ عدة سنوات. ولكن منذ

الصدمة التي أحدثتها حرب لبنان، بدأت الحركات تتكاثر وتتسع. إنها ردّة فعل على خيبة الأمل التي دفعت بالكثير من الطلاب نحو اليمين».

«إن دولة فلسطينية مؤيدة للسوفيات في الضفة الغربية على بعد أقل من عشرين كيلو متراً من تل أبيب تشكل خطراً كبيراً على إسرائيل».

ما أن تركت آفي رافيتسكي على رصيف شارع آحاد حآم حتى هرولت مسرعاً للقاء الحاخام هالفي العالم الديني الشرقي.

«إذا أتيت للتفتيش عن الحقيقة، ستعود خائباً. فأنا كيهودي وكفرد، لي رأيي. ولكن كحاخام ومثل باقي رجال الدين في الأديان الأخرى عليّ أن أكون حذراً».

«الشعب اليوم منقسم؛ كما هو الأمر في كتبنا المقدسة الغنية لدرجة أنها تحتمل أكثر من تأويل. ففي النصوص المقدسة والتلمود والعلماء لا تجد جواباً واضحاً وصريحاً. وإلاّ تكون المسألة بسيطة جداً. ولا يعود للصالح من فضل. اعتقد أن الأمر هو هكذا. يمكنك من خلال القراءة اكتشاف ملاحظات وأمثلة تستند إليها في حكمك، ولكن هذا الحكم يظل ملكك أنت. لا شيء واضحا في التوراة كي تعلق مصير شعب به. فكل أمر بسيط هو خطر جداً».

فوجئت وأصبت بخيبة أمل. كنت أتصور أن الحاخامات من عيار صاحبنا، علماء وحكماء قادرون على حل أعقد المشاكل بسرد أمثولتين.

«أكرر بأن لا التوراة ولا التلمود يمكنهما التدخل مباشرة في الحياة السياسية أو الاقتصادية للدولة. أو في حال تدخلا، فبشكل رموز فقط. الشعب حر في التفتيش واختيار طريقه. لا يمكن التفضيل بين الاشتراكية والرأسمالية في هذا المجال. الحاخامات ـ تلاحظ أنهم ليسوا كهنة ـ لا جواب يعطونه، اللهم إلاّ جواباً أخلاقياً. على كل واحد أن يسعى من خلال مطالعته للكتب الدينية لأن يعرف ما الذي يجعل من اليهودي يهودياً بكل معنى الكلمة. لا أحد يحل محل البحث الشخصي».

«لدينا ولا شك قواعد تحدد مجمل آداب إيماننا وآداب شعبنا. فمثلاً، لا يجوز تحويل المدين إلى عبد أو بيع الأرض بالتنازل كلياً عن عدم استردادها. أما في ما يتعلق بالأمور الباقية...».

الحاخام ينتقل بين السياسة والأخلاق.

«إن العمل الصالح هو في النهاية العمل الذي يحافظ على الحياة. ولكن أين تبدأ حياة الفرد وأين تنتهي حياة الأمة؟ لا أستطيع الإجابة».

«يعلّمنا الحس السليم أن هدف كل سياسة هو المحافظة على الوطن. كيف؟ بقبول أو برفض التنازل عن قسم من الأراضي المحتلة؟ هذا ليس مكتوباً في أي مكان. كان جيداً عقد تسوية مع السادات. وهنا أيضاً المسألة كانت حساً سليماً ولا دخل للدين فيها. أرض الميعاد؟ هي أيضاً عرضة للتفسير. نعم أرض الميعاد نفسها».

«في الجنوب هناك قسم من الصحراء تعتبر مصر أنه لها وهو في الواقع من هبات الله لنا. ليوم؟ للغد؟ أي قسم؟ جاء في الكتاب: «إن حدود إسرائيل تمتد حتى نهر مصر. المعتدلون يعتقدون أن هذا النهر هو وادي العريش، أما المتطرفون فيقرون بأنه النيل فهم مقتنعون تمام الاقتناع أن أرض إسرائيل تمتد من النيل للفرات. مهما يكن ياميت هي ملك لنا. بيغن تنازل عنها. ولما لا يتنازل عنها؟ المهم هو المحافظة على الحياة وليس على الأراضي. أما في ما يختص بأرض الميعاد فلا وجود لكل أو جزء، لأول أو لثانٍ. حسب ديننا. ولكن لمصلحة الحياة والدولة يمكن للزعيم السياسي أنْ يقرر في ما يتعلق بالتفاصيل».

الحاخام هالفي هو أقل ترداداً مما يُوحي به. لا أحب أن ألعب معه البوكر.

«إسمع، أكلمك الآن بصفتي حاخاماً: لا شيء يمنعنا على الصعيد الديني من التنازل عن قسم من أرض إسرائيل، إذا كان الأمر يتعلّق بحياة اليهود. لا شيء يُجبرنا على التمسك بيهودا والسامرة. المسألة هي فقط سياسية. إذا رأت الحكومة أن رفع اليد عن يهودا والسامرة أمر لا بدّ منه بالنسبة لضمان أمن إسرائيل فلها الحق أنْ تتصرف على هذا الأساس».

ضمان أمن إسرائيل وليس تحقيق رسالة إلهية.

«إذا أتت حكومة أخرى وقالت: «علينا أنْ نتنازل عن الأراضي لحفظ أمن إسرائيل» تكون أيضاً على حق. ولكن يبقى أفضل شيء هو المحافظة على كل شيء بالاتفاق مع جيراننا. لكننا لسنا كثيرين ولا أقوياء إلى درجة فرض الحقيقة التي نريد انطلاقاً من حقنا المشروع. ستقع الحرب إلى ما لا نهاية. إذا رأت حكومتنا أن علينا أنْ نفاوض، فهذا حقها وواجبها السياسي. لا دخل للدين بكل هذا».

ـ والقدس؟

ـ القدس المقدّسة هي قلب إسرائيل. هذا لا يعني أن باقي الأراضي لا قيمة لها. أكرر بأنه لا يحق لأي حاخام التدخل بهذه الأمور. جلّ ما يمكن المطالبة به هو العمل بهدي الدين. قال الرب: «تتصرفون بحسب شريعتي وتخضعون لها».

الشريعة بحسب هلال لا تستغرق تلاوتها وقتاً كبيراً: «لا تفعل لغيرك...» إن

الحاخام الشرقي هالفي هو من بيت هلال بكل تأكيد.

لقد جاء في سفر التكوين ١٠/١٧ : «لا تذلّوا ولا تقهروا الغريب لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر».

كلّمني أوريال سيمون في السياسة قبل أن يفتح التوراة. إنه تصرف منطقي. التوراة ثابتة أما السياسة فعرضيّة.

«حتى حرب لبنان، كانت إسرائيل مقتنعة ما عدا بعض الهامشيين كل الاقتناع أن السلاح يمكنه حل المشكلة. هذا ما كان يميّز سياستها الخارجيّة. هوجمنا فدافعنا عن أنفسنا، كان هذا وضعنا منذ البداية. العدو كان سهلاً. والانتصار كان سهلاً. الصدمة التي أحدثتها حرب لبنان أيقظت الأمة من حلمها الأخلاقي المُريح. أصبحت الأمور أكثر تعقيداً. وبات قسم كبير من الناس يُشكّك بالتالي بصحة الحلول العسكرية...».

أوريال سيمون هو رئيس قسم الدراسات التوراتية في الجامعة العبريّة في جيفات رام في القدس. كان أوريال يهجس باستمرار بمستقبل بلده؛ ولكن الشرخ دفعه إلى الابتعاد ولو قليلاً عن التلمود والوقوف بوجه يهوديّة المعركة.

والتوراة؟ سيأتي وقتها.

«بيغن يعمل المستحيل لكي يظل الإسرائيليون بسطاء وأقوياء. هذه هي القاعدة الأساسية لكل ديماغوجية. لم نتعودها من قبل. الصحافة كلها تقف ضد الحكومة، لأن لا أساس واضحا وصلبا لسياستها.

ـ دينياً؟

ـ دينياً، بمقدار ما يلجأ أصحاب التيار القومي إلى حجج كاريكاتورية للتوراة لتبرير سياسة العنف، والحق المطلق والمباشر بأرض الميعاد، والازدراء بكل الشعوب ما عدا الشعب المختار».

«هذا الكلام يحمل تناقضاً واضحاً. فاختيار إسرائيل والعهد بين الإله واليهود، لا يعني مطلقاً أن اليهود وحدهم لهم حقوق. فسفر التكوين يتكلم عن خلق الإنسان، لا عن خلق إبراهيم وسلالته. فالرب لم يخلق اليهود وإنّما خلق الإنسان».

في هذا الوقت يُلقي أوريال سيمون خطبة مشابهة أمام جمهور من الضباط أصحاب الرتب العالية في جيش الدفاع الإسرائيلي ويركز على حقوق الإنسان. فالمثقفون والفنانون أصحاب الميول المختلفة، حمائم أو صقور، مدعوون لتحريك الفكر العسكري. إن الجيش

الإسرائيلي يستمع إلى الأقوال المعتدلة والمتطرفة. أحياناً يهتزّ هذا الجيش لمثل هذه الأقوال ولكنه يستمع ويناقش. الأستاذ ليبوفيتز نفسه يشارك في هذه الندوات. هذه هي إسرائيل.

«ابن آدم، ابن الإنسان، لم يكن يهودياً. ولهذا الأمر سبب. يجب أن ننتظر عشرين جيلاً حتى يأتي إبراهيم. وآلاف السنين حتى تظهر التوراة. وهذا يعني أن الجنس البشري كله بلا استثناء على صورة الإله، وأن حياة كل الناس مقدّسة وليس فقط حياة اليهود».

«إن سوء التفاهم، الذي كان يغذّيه البعض، يعود إلى أن المسيحيّة والإسلام يُعتبران ديانتين عالميتين، بينما اليهودية ديانة قومية. اليهودي هو يهودي بديانته وهو ديّنٌ بيهوديته. وهذا الأمر صعب قبوله من جانب الأغراب. فاليهوديّة لها قناة أخرى تصب بها على ما هو عالمي، وأعتقد أن هذه الطريقة هي الأفضل. لنتذكر أعمال إسحاق».

«لا يوجد من يكره الشوفينية أكثر مني. ومع ذلك أعتقد أن إسرائيل هي الشعب المختار. إذا كان إبراهيم، أب اليهود اختاره الله، فهذا لا يعني أنْ نكون متكبرين. فالرب لم يبارك اليهود لصلابة أعناقهم، بل بالعكس في أحيان كثيرة كان يرذلهم في حالات غضبه. فاختيار الشعب اليهودي يفترض منهم أنْ يكونوا منارة أو مثالاً يُحتذى به، فيوصلوا للعالم الرسالة التوحيدية ورسالة الكرامة الإنسانية. حتى الآن استطعنا خلال التيرات التاريخية أن نُنْجِزَ بعض التقدم: المسيحية والإسلام...».

«لا أحد يستطيع أنْ ينكر من أن اليهودية هي ديانة قومية. فالقومي هو أكثر تسامحاً من العالمي. وليس في هذا الأمر أي تناقض. فاليهودي بحدّ ذاته شتيمة للمنحى العالمي الذي يُهدي الناس، شاؤوا أو أبوا، ويلوي رقبة الكافر إلى أنْ ينكر آلهته.

تذكّرْ محاكم التفتيش والحملات الصليبية. وتذكّرْ الإسلام بيت الجهاد. اليهودية لا تُلحق أحداً بها. وهي تتحمل وجود الديانات التوحيدية الأخرى طالما تبقى بعيدة عنها. إذا كان الله قد اختار الشعب اليهودي فهذا لا يعني أنْ يفرض نفسه على الإنسانية بمجملها: لكن الله اختار الشعب اليهودي لخدمة الإنسانية. وهذه هي الميتسفا، كل الميتسفا، أكثر من امتلاك أرض الميعاد. فالوعود تُعطى لتدوم. ولكن فيروس الشوفينية يُشوّه ويُفسد كل ما هو قيّم في كُتبنا. فهذا الفيروس يُبسّط ويحوّل بشكل كاريكاتوري الدين كما السياسة»!.

«هذه الشوفينية ليست مرضاً جاء بالصدفة، وليست خبثاً في أساسها. فاليهود المضطهدون المهددون، هم مرضى كما هو حال الفلسطينيين ولأسباب لا تختلف كثيراً عن بعضها، سوى أن مرض اليهود هو أقدم. إذا تذكّرنا تاريخنا، يجب أنْ لا نتعجب لِمَ لم

يصبح المرض خبيثاً؟! هذا الأمر لا يعطينا أي حق، ولكن ربما يُعطينا بعض الظروف التخفيفية. نحن نملك أرضاً لشعبنا ومع ذلك، فنحن مثل منظمة التحرير الفلسطينية، لا نزال نشكل حركة قوميّة. وكل حركة قومية معرّضة للمبالغة في حقها بالعدالة. لا يكفي أنْ يكون الإنسان مضطهداً ليمنع نفسه من اضطهاد الآخرين. وإذا كان هناك من وهمٍ ضائع عند حمائم إسرائيل، فهو هذا الأمر. منظمة التحرير الفلسطينية ـ الليكود الخللِ ذاته، الهيجان المازوشي عينه».

«تذكّرْ القتال المشرّف الذي يخوضه الغوش إيمونيم في ياميت، والمباني التي هُدمت بأمر من شارون لكي لا يستفيد منها المصريون. أن يفقد الإنسان عقله إلى هذه الدرجة من أجل قرية، فهذه هي الوثنية بعينها. فالادعاء أن كل ما هو إنساني، هو إلهي هذا الأمر يدخل في صميم الوثنية: الجيش، الأرض، اللذّة، المال... فنهار السبت مثلاً، أمر مهم: ولكن إذا كانت حياة إنسان في خطر، يحق لكل يهودي حتى ولو كان حاخاماً أنْ ينقل جريحاً في سيارته إلى المستشفى. وفي هذا الأمر لا تتساهل الشريعة بل تأمر به. ويمكن تطبيق هذه الشريعة على الأراضي المحتلة: ممنوع الموت والقتل من أجل أرض إسرائيل. ويُعتبر خطيئة كل تصرف لا ينقذ حياة الناس».

أوريال سيمون أعطاني ساعةً من وقته. لكننا بقينا مجتمعين لثلاث ساعات. فهذا الرجل سلق كلامه سلقاً وتهجّم على جنرالات إسرائيل الذين كانوا يتوقعون كلاماً أفضل».

ثَمة لقاء مثير. إسرائيل، يا لهذا البلد! للمرة الأولى أستطيع أنْ أعلن بوضوح عن موقفي من دون أن أُتهم بهوسٍ باليهوديّة. محدثي هذه الليلة إسرائيلي محض، منذ ثلاثين سنة، بجواز سفر قانوني؛ هو الأب مارسيل دوبوا،دومينكي، أستاذ الفلسفة في الجامعة، في القدس. وهو كاثوليكي، ولكن أنْ يكون المرء إسرائيلياً ويدعى دوبوا ومارسيل، فهذا الأمر لا يؤخذ على محمل الجد.

فتبعاً للتقاليد، يرفض الرهبان من الرتب العليا السكن في الأكواخ. فالطائفة الدومينيكية الصغيرة في القدس تقيم في بيت اسحق شارع أغرون. وهو مكان رائع حيث يسود الذكاء والسلام في مكتباته. عندما سأتعب من كوني ناطوري كرتة سأصبح بكل تأكيد دومينيكي في القدس.

بدون أي تردد، فالأب دوبوا البشوش الجبار صاحب الشعر الرمادي القصير لا يهتم إلاّ بما يعنيه.

كدت أنسى أنْ أقول وأنا أحضّر الشاي في المطبخ المتواضع، منتظراً قدوم محدثي، انني أحرقت عشاء الآباء حين أشعلت خطأ الفرن الذي يستخدمونه لحفظ الطعام. غُفرت لي هذه الخطيئة.

«أريد حكومة واعية للتقاليد اليهودية وقيمها من غير أن تكون رهبانية. حكومة تهتم بتقليص الفروقات بين الأغنياء والفقراء، حكومة تبرهن عن حدٍّ أدنى من الخيال الإبداعي بالنسبة لجيراننا العرب...».

«يقول مناحيم بيغن إنه مغتاظ من سوء نية الأمم».

«ولكن ذلك لا يبرّر عناده. يوجد حتماً في هذه البلاد، اليوم أكثر من الأمس تهديداً للذاتية اليهودية. هذا الخطر يتهدد إسرائيل في الكبرياء كما في اليأس. اليهود، مرة أخرى، هم مثال لقدر الإنسانية: فمحبة الله تكفيهم ولكن...».

«إن اختيار الشعب اليهودي تفترض الوحدة والنموذجية. يا لهذا الامتياز المخيف!

تتصرف إسرائيل مثل كل واحد منا: تتأرجح بين تشدد المراهق ورحمة الراشد».

«الانفصال يفترض الالتصاق».

«القدس هي فريدة وعالمية».

«على اليهودية أنْ تكون حذرة بوجه المسيحية. عليها أنْ لا تكون متشددة ولا تتمسك بحرفية الوصايا وذلك للمحافظة على هويتها. العرب شديدو المراس؟ بكل تأكيد. ولكن يمكن الكلام معهم. بيغن واثق من نفسه كثيراً. ويرضي بذلك أولئك الذين يعيشون في اليقين...».

«لكل أسلوبه. اليهود الغربيون والشرقيون يتمسكون كل من جهته بالهويّة اليهوديّة. يجيبون بنفس الطريقة على السؤال: «ماذا تفعل هنا؟ ـ أنا يهودي؛ أنتظر المسيح. شعبي يملك رسالة سينقلها إلى العالم...» الكلمات نفسها تتردد والشعور نفسه بالإنتماء إلى شعب واحد؛ إنها الطريقة اليهودية في التفكير وفي حل المشاكل؛ إنها وحدة المصير بالرغم من تقلّبات التاريخ: الحاجة نفسها بالقول: «أيها الأجانب أتركونا بسلام». ولكن التقهقر يبدأ حين يحوّل اليهودي ما هو زمني إلى شيء مقدس؛ مع العلم أن هذا التحويل هوعملية محض يهودية: فالمطلق هو من صفات الله، وكل سفسفة للمطلق تعتبر خطيئة؛ لا بل أكثر من خطيئة. واليهود يملكون حاسة لا يضاهيها أحد في هذا المجال.

ـ والانشقاق بين اليهود الغربيين والشرقيين؟

ـ ليس هذا بانشقاق! إنما عمران يتصارعان. فاليهودي الشرقي هو أمام اليهودي الغربي بمثابة فلاح. لقد تغيرت الأمور بسرعة في إسرائيل. والشباب الشرقي بدأ يخرج

عن طاعة الأب البطريركية وكذلك عن طاعة الحاخام في الجبال حيث كان يعيش. ماذا سيضع مكان كل ذلك؟ اليهودي الغربي يحدد نفسه بالنسبة للغريب كونه مضطهداً، الشرقي ليس عنده هذا الهاجس. لم يحاول أن يُعلمن حياته. أين هو ماركس وتروتسكي وفرويد اليمني؟».

« آرييل شارون يعيش في عهد القضاة. اوريال سيمون في عهد أشعيا ».

وراء ظهر مارسيل دوبوا توجد كتب عديدة وأستطيع بسهولة من حيث أجلس أن أتعرف على مؤلفيها: أفلاطون وكانت وسبينوزا وبرغسون.

«أما الآن سأقول لك شيئاً رهيباً. علينا ولا شك مساعدة أخواننا الذين ينتمون إلى ذرية إسماعيل. ولكن جاء في سفر التكوين: «قال الملاك لهاجر ها أنت حبلى وستلدين طفلاً ذكراً وستسميه إسماعيل لأن يهوه سمع كلامك. أما إسماعيل فسيقف ضد كل الناس...». إن تكذيب سفر التكوين هو تحد للشعب اليهودي».

نسي الأب مارسيل دوبوا أن يكلّمنا عن يسوع. صحيح أنني لم أطلب منه أن يحدثني عنه.

إن حائط المبكى في العبريّة، هذا المكان الذي تتجذّر فيه الاستمراريّة اليهوديّة، هذه الدعوة للحلف اليهودي الذي علينا تحقيقه بالرغم من الصعوبات التي واجهها جوب Job هذا الحائط يُسمّى الكوتل Kotel. المؤمنون يتدافعون لترتيل المزامير والصلوات أمام هذا الحائط. ولكثرة ما يميلون بصدورهم بشكل منتظم؛ لا يلطمون جباههم بالحجارة التي نبتت بينها الشبث والهندباء. لا شيء يغضب ليبوفيتز أكثر من هذا الحائط الذي يعبده اليهود الضائعون كما كان يعبد أجدادهم العجل الذهبي. ويعلن باحتقار أن هذه العبادات ذات الطابع المسرحي أمام حائط المبكي ليست إلّا سيركاً مبكياً أو مكاناً وثنياً.

إن ليبوفيتز يحرّض في صحيفة هآرتس الجنود على العصيان ضد شارون. لقد ذكرت سابقاً أن ليبوفيتز يحاضر كما أوريال سيمون، أمام العسكريين. كما أنه يدعو أحياناً الشعب للاستماع إليه من خلال ملصقات يكتبها بخط يده. حيثما وجد تمتلىء الصالة: حمائم وأحياناً صقوراً واسرائيليين متعطشين للذكاء ويهوون التحدي وجلاء الأمور من فم هذا اليهودي ذي الفكر اللاذع.

فالجمهور في ما يخص التحدي نال كل ما يريد.

«نحن هنا أشبه بألمانيا سنة ١٩٣٦. إذن من المُباح العصيان. لو أن الديمقراطيين الألمان كانوا أشد عزماً لكانوا قاموا بانقلاب ومنعوا هتلر من الانتصار».

يذهب ليبوفيتز أبعد من ذلك. ولا يوافق بالرغم من ذلك ما ذهبت إليه ريتا صباح التي سمعنا كلامها في رامات أبيب.

يناهز ليبوفيتز الثمانين. إنه من أصل لوتياني. عالم فيزيولوجيا معروف، ومتديّن صلب. إن وهرته العلميّة والمعنويّة لا تضاهى.

سيلفيو يوشوا الجامعي المتخصص ببول فاليري اخذ لي موعداً في القدس مع ليبوفيتز. قدمني إلى أشعيا الذي يقطن في شارع أوسيشكين. أشعيا في العبرية تلفظ أشعياهو. المكتب حيث يجلس الأستاذ ليبوفيتز معتم، تحيط به نسخ عديدة من التلمود. هذا هو التلمود الذي صدر عن منشورات فيلنا: يبدو أنه ليس من أدق النصوص.

«إن جمهوريتكم الرابعة دمّرتها حرب الجزائر. لقد حالفكم الحظ: إن أعظم(*) فرنسي في القرن العشرين سلخ الجزائر عن فرنسا. إن يهودا والسامرة كانتا وستظلان بالنسبة إلينا مصيبتين، كما كانت الجزائر بالنسبة إليكم. علينا أنْ نحرر إسرائيل، شعب إسرائيل،كل اليهود من حمل السيطرة هذا».

«كتبت ذلك منذ أربع عشرة سنة، بعد حرب الأيام الستة: من دون استثناء السيطرة بالقوة على شعب يرفض هذه السيطرة يحوّل المستعمر إلى مجرم. ولا مجال للشك بصحة هذا الكلام مهما كانت الحجج والدوافع الأخلاقية والتاريخية. كثيرون هنا امتعضوا من الصحافيين الأجانب الذين تكلّموا عن إبادة في ما يتعلق بحرب لبنان. لماذا الهروب من الحقيقة. الإبادة البشرية أو الإبادة الثقافية هي نتيجة طبيعية لكل سياسة أمبريالية. الحرب في لبنان فتحت أعين الإسرائيليين الواعين. أما الآخرون فهم يصفقون بنشوة، لأن القومية لديها ملكة جعل الناس مجانين ومتوحشين. نعم فالوطنية حين تأخذ قيمة مُثلى تجعل من الناس وحوشاً ومجانين».

كنت أدوّن ملاحظاتي بسرعة لأن ليبوفيتز كان يتكلّم بسرعة. وكنت بالرغم من ذلك وكلّما سنحت لي الفرصة، أرفع عيني لكي أنظر إليه.

العجوز لا يضع على رأسه كيبا لأنه لا يهتم بالشكليات الدينية. إنه يذكّر بمالرو وفرناندل... يضع يده على ركبته التي يحركها باستمرار.

«لست ضدّ الوطنيّة والقوميّة، لكنني أرفض أنْ أجعل من القوميّة شيئاً مقدّساً. فالاستقلال الذي فقده الشعب اليهودي منذ ثمانية عشر قرناً أدّى وبرّر الحرب الوطنية عام ١٩٤٨. أما الحروب اللاحقة فكانت حروباً سياسيّة. فهي تخضع للنزعة القوميّة

(*) يقصد الجنرال ديغول.

بمعناها المقدّس؛ مما يمنع كل تسوية. حرب الأيام الستة هي حرب دفاع عن النفس بسبب تهديدات عبد الناصر من دون شك. ولكن في اليوم السابع بدأت تتحول إلى حرب احتلال. رفايل إيتان كان يقول حينذاك: «أفضل الأراضي على السلام»ودايان وإن تراجع عن موقفه فيما بعد قال الشيء نفسه في ما يتعلق بسيناء».

«يوجد هنا شعبان مهزومان يملكان الأرض بالتساوي. عليهم أنْ يتفقا... بدل ذلك يتحاربان. إننا إزاء حرب أخرى ضد العالم العربي من المغرب حتى الكويت، مروراً بمصر، لأن تعنتنا سيؤدي إلى خسارة السلام مع مصر. ما هي الإمكانية الأخرى؟ يمكن للاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة أنْ يفرضا علينا، اليهود والعرب حلاً ما...».

«اليهود المتدينون هم الذين يجعلون من القومية شأناً مقدساً. من هم الجنود الذين يرفضون الخدمة في لبنان؟ متدينون؟ لا. إنهم اشتراكيون من سكان الكيبوتزات غير مؤمنين...».

«بالنسبة للغوش إيمونيم ومناصريهم ان أرض الميعاد هي العجل الذهبي. وحين أقول ذهب فأنني مهذب... فكل شيء مقدّس أكان مدينة أو رجل أو امرأة هو بمثابة العجل الذهبي. فالسياسة والحركات الاجتماعية هي الممكن بحد ذاته وفيها لا يوجد أي أثر للقداسة. من الممكن أنْ يكون مشروع سياسي ضروري محترم عادل أو غير عادل. ولا يمكن أنْ يكون مقدساً إلى درجة يتخطى فيها القواعد التي يُفترض فيها أنْ تجعل التعايش بين الشعوب ممكناً».

«فاليهودية بالمعنى التاريخي والميتافيزيقي لا يمكنها أنْ تندمج بالدولة من دون حدوث كوارث، أو كما يقول المسيحيون من دون كفر. وُجدت الدولة اليهودية مرتين في التاريخ. مرةً أيام التوراة ومرة في ظل الحكم الماكابي Maccabi، وخلال هاتين المرحلتين كان تاريخنا صراعاً لا يعرف الهوادة بين الدين والسلطة السياسية. مما لا شك فيه أن المسألة الدينيّة في إسرائيل هي مسألة تكوينية بالتحديد، وذلك لأن جوهر اليهوديّة هو جوهر قومي. وهنا يكمن سوء التفاهم. ولكي تسير الأمور لا بدّ منْ فصل السياسة عن الدين، وهذا ليس بالأمر الجديد. لقد ذكرت سابقاً الماكابي، ولكن من دون الرجوع كثيراً إلى الوراء. كان بن غوريون يحاول أنْ يضع الدين خارج الدولة؛ وأكثر ما كان بن غوريون يكرهه هو اليهودية كدين حين كانت تريد أنْ تتدخل في السياسة. لم ألتقِ رجلاً يشجب هذا التدخل بهذا القدر. إن فصل الكنيسة عن الدولة أنقذ أوروبا والمسيحية. لم يكن بن غوريون يريد أنْ يجعل من السلطة المدنيّة صنواً للسلطة الدينيّة. يا للأسف! في العهد الماكابي اصطدم الملوك ـ الكهنة بالأنبياء مما أدّى إلى حرب أهليّة. فشل بن غوريون. لقد

خاف. فهو لم يستطع، بل لم يجرؤ على تحجيم سلطة رجال الدين الزمنيّة.

ـ هل الغوش إيمونيم يتحمّلون وحدهم هذا الذنب؟

ـ الغوش؟ غولدا مئير والعمّال كانوا طلائع الغوش. فهم الذين هيّأوا الأرض والمناخ.

ـ هل أنت قلق؟

ـ بالطبع! لِمَ كل هذه الضجة لو لم أكن قلقاً. لست متأكداً من مستقبل إسرائيل، ولا من مستقبل الشعب اليهودي برمته. منذ القرن التاسع عشر لا تزال عمليّة التفكك مستمرّة. استطعنا انتزاع الاستقلال السياسي، ولكن المزج بين الدين والسياسة يقلب أصول اللعبة، ويغذّي أوهام قاتلة نرى اليوم نتائجها. «إن محرك الصهيونية هو بسيط وواضح؛ فلا يلزم إشراك إبراهيم ويعقوب اللذين لديهما هموم أخرى. طلب مني صحافي من مجلة التايمز اللندنية أنْ أفسّر له معنى الصهيونية. في البدء لخّصت له العناوين الكلاسيكية من الناحية الفلسفية والإيديولوجية والأخلاقية. وفيما بعد اقترحت عليه تحديدي الخاص: وذلك أننا نحن اليهود قد مللنا حكمَ الغرباء!».

هذا التحديد يمكن فهمه بسهولة؛ فليبوفيتز هو بدون شك من سكان بيت هلال.

«فلنتهِ من قضية الأراضي التي يجب الاستيلاء والحفاظ عليها تحقيقاً لما خُطّ في لوح القدر!» ليبوفيتز يغلي من الغضب. سيّان عنده الفضيحة ودحض قوله. فهو لا يتوقف عن توجيه توبيخاته المطهّرة إلى إسرائيل. ركبة الأستاذ ترتجف، وجفونه تهتزّ. إذا اعتبرنا ليبوفيتز شيخاً فموسى كان أبله.

«اليهودية ترفض شتّى أشكال عبادة الأوثان. وهي ترفض إعطاء أي صفة إلهية إلاّ لله. يحق لك أنْ تخضع لشريعة العودة لكي تعيش حسب التوراة، ولكن لا تتدخل في شؤون الجيش الإسرائيلي.

ـ هل عليك أنْ تكون إذاً ناطوري كرتا؟

ـ لا، أللهم إلاّ إذا التزمت في الغيتو الأبدي. يجب على إسرائيل أن تكون دولة علمانيّة. المزج بين الدين والدولة يضع الدولة في خطر: ويشوّه طبيعة اليهودية. لنعتبر مثلاً أنك تريد أنْ تعيش السبت اليهودي: ولكن التوراة لا تمنع بشكل واضح القيام بأي عمل نهار السبت. لكي تعيش سبتاً جيداً يلزمك عشرون عاماً من الدراسة. وهذا ليس طقساً شكلياً. فديننا لا يحتوي على طقس كهذا، فاليهود الأغبياء هم الذين ينسون هذا المعنى. إن قيمة التصرف الشرعي لا تكمن في توافقه مع النموذج. المهم هو النيّة. التلموديون يساهمون غالباً بإفراغ الوصايا اليهوديّة من محتواها: التلمود هو تصرف

الناس، وهو أيضاً التقاليد الشفويّة.

لا شيء يضاهي هذا النقاش بين ما هو مكتوب والتقاليد الشفوّية حين نحاول أن نسبر غور الشرخ.

« في ما مضى كان اليهودي هو الذي يتقيّد بالشرع. أما الذي لا يهمه الشرع فكان يتخلّى عن كل شيء يتخلىّ عن يهوديته. الحداثة والصهيونية عقدتا الأمور. وأصبحت الأكثرية اليهودية خارجة على الشرع.

« ما يقوله الحاخامات، وما يقررونه لا يعدو كونه خديعة إذ إنك لا تختار من تلقاء نفسك ما يُسمىّ بالعمل الصالح ».

موريس كلافيل يحب كثيراً هذا التحديد الضيق للايمان والإنتماء. لا أحد يضاهي ليبوفيتز في عِدائه لما يسمّى الكهنوتية

« إن سياسة إسرائيل هي مزيج من القومية ومن التعاليم التلمودية. هذه السياسة ستؤدي بنا إلى الدمار. أفضّل ألف مرة المواطنين العاديين على أولئك الذين يحملون التوراة بيد والبندقية باليد الأخرى.

ـ الخليل. يجب احترام شعور اليهود ؟

ـ لا يمكن وضع سياسة معقولة على أساس الشعور الديني. فشعور الآخر يجب أنْ يؤخذ بالحسبان. العيش في الخليل ؟ لمَ لا إذا كان هذا ممكنا من الناحية السياسية. ولكن الغوش أمونيم يذهبون أبعد من ذلك. إنهم حسب اعتقادهم يتقيدون بما جاء في الكتاب إنما هؤلاء القوم يفعلون كل ذلك ضد إرادة العرب وطبعاً ضد إرادة الله. الخليل، الخليل... لن نتمسك بذلك. وميزة اليهودية هي عدم التمسك بأمور صغيرة كهذه ».

يا لهذا الجرّاح العجوز. من الصعب الاتكال عليه لتضميد الشرخ. ولكن إذا كان الأمر يتعلّق بتنظيف الشرخ لا أحد يُضاهي ليبوفيتز.

معجم

أرغون : (أرغون زاخي ليئومي) المنظمة القومية المسلحة، التي ابتدأ نشاطها عام ١٩٣٧.

اريتس إسرائيل : أرض اسرائيل.

آليا : هجرة يهود الدياسبورا (الشتات) الى اسرائيل

اولبان : نوع من المدرسة حيث يتعلّم المهاجرون الجدد العبرية عبر دروس مكثّفة.

البالماح : في اثناء النضال من اجل الاستقلال، كان وحدة مسلحة من يسار الهاغانا

بيتار : حركة الشبيبة اليهودية القومية. شكلها جابوتينسكي عام ١٩٢٣

بيلبول : ذمامة (علم القضايا الضميرية) التلمودية : طريقة في التفكير حاذقة وملتوية قليلا في الغالب..

تاليت : خمار (شال) للصلاة.

تحياه : حزب قومي متعصب. منضم الى تحالف الليكود.

التلمود : التعليق المكتوب حول التوراة.

التوراة : الشريعة الموسوية، او اسفار موسى الخمسة.

الحاسيديم : « الرجال الاتقياء » طائفة صوفيّة يهوديّة تأسست قرابة عام ١٧٤٠ في بولونيا.

حيدراحيم : تعليقات الحاخامات حول النصوص المقدسة التي وضعت بين القرن الأول والقرن الثاني عشر

حيروت : « حرية » حزب بيغن القومي، العامود الفقري لتكتل الليكود.

حيروتنك : عضو حزب حيروت.

خمسين : رياح شديدة تهب في الصحراء

سيكوت : عيد النصب.

شالومو : تصغير شالومون : اسم شائع في اسرائيل

شتاتيتل : اسم يطلق على القرية اليهودية في بولونيا أو في روسيا .

شتيرن (مجموعة) : منظمة قومية ، قريبة ، من الأرغون .

الغوش إيمونيم : كتلة الايمان ، حركة دينية قومية

غوي (جمع غويم) : اللايهودي (الغريب) باللغة العبريّة

فالونفوت : الجمع العبري لكلمة الكتائب اللبنانية

كاتيوشا : مدفع يطلق الصواريخ من صنع سوفياتي .

كاسروت : مطابقة نظام التغذيّة للتعاليم التوراتية والتلموديّة . مجلس من الحاخامات يحدد شرعية الاطعمة المصنوعة على طريقة الكاشير .

كيبوتزنك : عضو في الكيبوتز .

كيبا : الطاقية التي يعتمرها اليهود المحافظون .

مهباروت : المعسكرات التي عاش فيها المهاجرون الجدد .

ميتسفا : التصرف الصحيح ، المطابق للتوراة .

الموشاف شيتوفي : قرية جماعية اكثر كمالاً من الموشاف

موشافنك : ساكن الموشاف

ناطوري كرتا : « حراس القلعة » يهود اشكيناز شديدو التعلق بالتقاليد ويرفضون وجود دولة في اسرائيل .

نهال : الكلمة في الأصل ، وحدات من الجيش مكلفة بانشاء كيبوتزات زراعيّة . وفيما بعد مستعمرات صغيرة للتعمير العسكري .

هاباد : طائفة يهودية دينية ، يرأسها الحاخام الشهير ليبويتس ، المتمركز في الولايات المتحدة الامريكية .

هاغانا : منظمة الدفاع اليهودية التي انبثق منها الجيش الاسرائيلي .

هانوف : عيد الأنوار ، اقيم في عام ١٦٥ قبل الميلاد ، في ذكرى يوحتاس المكّابي .

الهستدروت : إتحاد العمال الاسرائيليين العام : المركز النقابي الأوحد في اسرائيل والذي يمتلك قوة ووسائل مهمة .

ياكحيا : كلمة تحبب ، الاسرائيلي من اصل الماني (اشكيناز) .

ياشيفا حاسدير : مدرسة تلمودية تسمح للشبان اليهود المحافظين اجراء الخدمة العسكرية وفي الوقت ذاته متابعة دروسهم الدينية .

الفهرس

توطئة ٥

١ ـ الجيش ، انتقام أشعيا الأشعر ١٥

٢ ـ قلوب طيبة ورؤوس يابسة مَثَلُ التاليت ٣٩

٣ ـ يهودا والسامرة باب الأمل ٥٣

٤ ـ أصحاب اليقين البطل اليهودي ٧٥

٥ ـ « البيض » و « السود » الأسنان للأعلى ٨٧

٦ ـ « السود » و« البيض » إطلاق نار على الكيبوتز ١٠٧

٧ ـ « سود » و« بيض » في زيارة عمّال الأحواض في أشدود ١٢٣

٨ ـ « السود » و« البيض » صليب معكوف في الغبار ١٣٣

٩ ـ قطارا القدس ١٥٣

١٠ ـ رجال السياسة أيام الحمائم العسيرة ١٧١

١١ ـ رجال الكتاب بيت هلال وبيت شما ١٩٧

٧٥,-

هذا الكتاب

منذ حرب لبنان، وخاصة بعد مجازر صبرا وشاتيلا لم يعد المرء يستطيع أن يبقى محايداً في إسرائيل. هل يتوجب على الاسرائيليين أن يتفاوضوا مع الفلسطينيين؟ وأن يدفعوا ثمن السلام الغير مضمون. وهل يجب على اسرائيل البقاء، حسب خطة بيغن في الضفة الغربية؟ يمتد الآن شرخ واسع وعميق بين هاتين المعادلتين.

بين الاشكيناز والسفاراد، بين الصهاينة واليهود، بين الكيبوتزات والمدن الجديدة يتشعب هذا الشرخ ويزداد عمقاً، ليطال أيضاً الجيش والأحزاب ومجمل السكان والمثقفين وحتى رجال الدين، وتتغلغل، وهذا هو الأشد أيلاماً، في رؤوس وأفئدة الجميع.

إن جان فرنسيس هيلد لا يكتب، تحليلاً آخر عن الشرق الأوسط. لقد قابل الإسرائيليين. لم يبريء ساحتهم ولم يحكم عليهم. لقد استمع لهم بإنتباه، بغض النظر عن اللعبة السياسية ـ فهو ينطلق من السلام في العالم.

ولد جان فرنسيس هيلد في ٩ تموز ١٩٣٠ ـ وبعد دراسة للفلسفة، أصبح مراسل جريدة (ليبراسيون)، في التلفزيون وبعدها في «النوفيل اوبسرفاتوار، قبل أن يحرر زاوية «المجتمع» في «الاكسبرس».